357
نوفمبر
2008

عالم المعرفة

الجزء الأول

إمبراطورية الثروة

التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية

تأليف: جون ستيل جوردون

ترجمة: محمد مجدالدين باكير

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923-1990

357

إمبراطورية الثروة

التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية

تأليف: جون ستيل جوردون
ترجمة: محمد مجدالدين باكير

نوفمبر 2008

••

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	**دينار كويتي**
الدول العربية	**ما يعادل دولارا أمريكيا**
خارج الوطن العربي	**أربعة دولارات أمريكية**

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	**15 د.ك**
للمؤسسات	**25 د.ك**

دول الخليج

للأفراد	**17 د.ك**
للمؤسسات	**30 د.ك**

الدول العربية

للأفراد	**25 دولارا أمريكيا**
للمؤسسات	**50 دولارا أمريكيا**

خارج الوطن العربي

للأفراد	**50 دولارا أمريكيا**
للمؤسسات	**100 دولار أمريكي**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب: 28613 ـ الصفاة ـ الرمز البريدي13147
دولة الكويت
تليفون : ٢٤٣١٧٠٤ (٩٦٥)
فاكس : ٢٤٣١٢٢٩ (٩٦٥)
الموقع على الإنترنت:
www.kuwaitculture.org.kw
ISBN 978 - 99906 - 0 - 254 - 8
رقم الإيداع (٢٠٠٨/٠٧٥)

العنوان الأصلي للكتاب

An Empire of Wealth

The Epic History of American Economic Power

by

John Steele Gordon

Harper Perennial, 2005

طبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ذو القعدة ١٤٢٩ - نوفمبر ٢٠٠٨

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المقدمة

السعي نحو السعادة

لم تعرف مكانة الولايات المتحدة، مع بزوغ فجر القرن الحادي والعشرين، ما يضارعها في العلاقات الدولية على مر العصور. ويمكن أن نستحضر هنا الإمبراطورية الرومانية في أوج ازدهارها قبل ألفي عام لنجد حالة مماثلة مع اختلاف السياق التاريخي.

لقد فتحت روما العالمَ المعروف آنذاك بقوة السلاح، واستمدت قوتها من جيوشها وكتائب جندها. منذ ذلك الحين مارست كل القوى العظمى هيمنتها السياسية/ العسكرية على الشعوب الأجنبية دعما لمصالحها الخاصة. لقد وضعت الإمبراطورية البريطانية يدها قبل قرن مضى على ربع مساحة اليابسة في العالم حينما كان ثلث سكان العالم خاضعا لتاج الملك إدوارد السابع. لكن قلة فقط من هؤلاء تحدثت الإنجليزية أو اعتبرت نفسها في عداد الشعب البريطاني.

أما الولايات المتحدة فكانت طوال تاريخها بلدا معارضا بشدة للهيمنة الإمبريالية، وكانت القوة العظمى الوحيدة في القرن العشرين التي لم تسع

«أكبر نقاط قوة الولايات المتحدة لا تكمن في المجال العسكري»

المؤلف

في أعقاب كل الحروب التي خاضتها إلى ضم أراضي دول مجاورة، مع أنها كانت البلد الوحيد الذي خرج من كل صراعات القوى العظمى الثلاثة التي شهدها القرن بحال أقوى. تبلغ مساحة الولايات المتحدة اليوم ستة في المائة فقط من مساحة اليابسة في العالم يقطنها ستة في المائة من سكان العالم - ويعتبر مواطنوها أنفسهم أمريكيين ناطقين بالإنجليزية. كما أن نفوذها في العالم يفوق النفوذ البريطاني إبان ذروة القوة البريطانية في منتصف القرن التاسع عشر. ويعود الفضل في ذلك كله إلى الاقتصاد الأمريكي. إذ بينما تبلغ مساحة الولايات المتحدة ستة في المائة من مساحة اليابسة ويعدُّ سكانها ستة في المائة من سكان العالم، فإنها تنتج ما يعادل ثلاثين في المائة من الناتج المحلي الإجمالي لدول العالم مجتمعة، أي أكثر من ثلاثة أضعاف ما تنتجه الدولة التي تليها في الترتيب. كما أن الولايات المتحدة تتفوق على كل دول العالم في جميع الحقول الاقتصادية تقريبا: من أعمال المناجم إلى قطاع الاتصالات، وبكل المقاييس: من حصة الفرد من الناتج الزراعي إلى الكتب المنشورة سنويا إلى حاملي جوائز نوبل (أكثر من ٤٢٪ من حاملي نوبل).

ولا يعدُّ اقتصادها الأكبر في العالم فقط، بل يمتاز أيضا بأنه الأكثر ديناميـة وقدرة على الابتكار. ولا نبالغ إذا قلنا إن الولايات المتحدة كانت مهد كل منتجات التقدم التكنولوجي التي شهدها القرن العشرون تقريبا - والذي كان بحقٍّ أعظم القرون في تاريخ التكنولوجيا - وفيها أخذت بعض تلك المنتجات شكلها الصناعي العام وغدت سلعا نهائية. من هنا فإن ثقافتها تسود العالم أجمع: من الجينز الأزرق إلى أفلام هوليوود إلى الكوكا كولا وموسيقى «الروك آند رول» إلى السيارات الرياضية SUV وغرف الدردشة الإلكترونية. وبالتأكيد تحمل التقنيات الجديدة مع انتشارها في العالم طابعا أمريكيا لا مفر منه.

هذا وتتحول اللغة الإنجليزية بوقع غير مسبوق إلى لغة توحد العالم، مثلما وحدت اللغة اللاتينية أوروبا طوال قرون. كما أن ستين في المائة من دارسي اللغات الأجنبية في العالم اليوم ينكبون على اللغة الإنجليزية التي دخلت كمادة أساسية في كل الأنظمة التعليمية في العالم. يُعزى هذا في بعض منه إلى أن دولا كثيرة تعتمد الإنجليزية لغة أساسية أو لغة ثانية، وذلك بفضل الإمبراطورية البريطانية، من جهة وتفوق الولايات المتحدة، من جهة أخرى، على غيرها من دول

العالم في حقل الاتصالات وصناعة الترفيه. فالشبكة الدولية (الإنترنت) التي تعتبر من أقوى وسائل الاتصالات المبتكرة حتى الآن هي أساسا ابتكارٌ أمريكي، كما أن الإنجليزية هي اللغة المستخدمة في أكثر من ثمانين في المائة من مواقع الإنترنت التي يصل عددها اليوم إلى أربعة مليارات.

وهكذا، إذن، فإن أكبر نقاط قوة الولايات المتحدة لا تكمن في المجال العسكري - على الرغم من درجة التطور التي وصلت إليها في هذا المجال طبعا - بل في ثروتها وتوزعها بين شرائح واسعة من سكانها وقدرتها على خلق مزيد من الثروة وإمكاناتها الابتكارية غير المحدودة في تطوير أساليب جديدة تفيد في استخدام تلك الثروة استخداما منتجا.

وإن كان العالم اليوم يكتسب سريعا طابعا أمريكيا كما صبغه الطابع الروماني قديما، فإن الفضل لا يعود إلى ترسانة الأسلحة التي تمتلكها الولايات المتحدة، بل إلى رغبة دول العالم في اكتساب ما تملكه الولايات المتحدة واستعدادها وسعيها لتبني أساليب خلقه. إن الانتشار الواسع لموجة الديموقراطية والرأسمالية في العقود القليلة الماضية بفضل النموذج الأمريكي أساسا قد تحقق من دون حروب وجاء كفتح سلمي لاقى ترحيبا واسعا من قبل الشعوب من جهة، والنخب التي بدأت ترى نفوذها يتلاشى من جهة أخرى. هذا الفتح السلمي يعدّ من أكثر الفتوحات التي عرفها التاريخ منطقا وإيجابا وشمولا، كما أنه يعتبر أكثرها ديمومة في كل وجوهه.

من هنا فإن أمريكا هي إمبراطورية سلاحُها الثروة؛ إمبراطورية بُنيت على النجاح الاقتصادي والفكر والتطبيق اللذين عززا ذلك النجاح. كمثل العديد من تجارب النجاح في المجالات الأخرى، يعتبر النجاح الاقتصادي الأمريكي بمعايير اليوم أمرا محتوما بل مقدرا. إذ إن البلد كان يتمتع على الدوام بأراض شاسعة تميزت بتنوعها وخصوبتها إلى جانب مخزونه الكبير من الموارد الطبيعيةً الوفيرة والموارد البشرية الكفؤة. لكن الأرجنتين امتلكت مثل تلك المقومات وهي لم تدخل أيضا في حروب طويلة منذ العام ١٨٧٠، ومع ذلك، تسعى جاهدة للحفاظ على موقع لها بين الدول المتقدمة، إذ إن ناتجها المحلي الإجمالي لا يتعدى ثلث الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة.

تعود هذه الفروق أساسا إلى عوامل سياسية. ذلك أن النظام السياسي في الأرجنتين، الموروث عن النظام الإمبريالي الإسباني، الذي قام على سياسة حكم الطبقات العليا، قد أدى على الدوام إلى تقويض الثروة،

وأعاق آلية خلقها بدلا من المساهمة في هذه الآلية. أما النظام السياسي الأمريكي فقد استُمد لحسن الطالع من التقاليد الإنجليزية، خصوصا فكرة سيادة القانون وليس سيادة الدولة. كما أن الإنجليز أسبغوا أهمية كبيرة على مفهوم الحرية الذي ينص على أن للفرد حقوقا متوارثة (حق التملك) لا يمكن انتزاعها تعسفا.

إضافة إلى ما تقدم، فإن قدرة إنجلترا على تطوير هذه المفاهيم وإدخالها في صلب النظام السياسي وتوريثها للأجيال المتعاقبة كانت تقوم في الأساس على واقعها الجغرافي الذي لم يكن خافيا عن أوروبا والعالم: تلك الأميال الثلاثة والعشرين من المياه العميقة التي تفصل جزيرة بريطانيا العظمى عن البر الأوروبي. إن القنال الإنجليزي ضيقٌ بما يكفي لأن تقيم إنجلترا صلات وثيقة ودائمة مع أوروبا الأم، كما أنه واسعٌ بما يكفي لدرء خطر الغزاة عن الجزيرة. مع ذلك لم تؤمن عواقب الافتراض الأخير، حتى في أفضل حالاته، بعد أن تعرضت الجزيرة للغزو ذات مرة في الألفية الثانية.

لقد تميزت إنجلترا، وهي التي لم تكن في حاجة إلى بناء جيش كبير يكلفها أعباء مالية كبيرة، بانخفاض معدلات الضرائب في مراحل طويلة من تاريخها، وكانت بالتالي قادرة على توجيه مواردها الاقتصادية نحو خلق موارد جديدة. إلى ذلك، اعتمدت إنجلترا على أسلوب الحكم غير المركزي، فتركت تسيير الشؤون المحلية في أيدي السكان المحليين، وكان تدخل الملك محدودا.

كما اتسمت بريطانيا بتركيبتها الاجتماعية الأكثر حراكا بين كل الأمم الأوروبية، وحملت طبقتها الأرستقراطية ميزات خاصة استمدتها من ثروتها ونفوذها، لكن طبقة النبلاء في المجتمع البريطاني لم تكن حكرا على فئة معينة. فعلاقات الزواج بين الأسر البورجوازية الكبيرة وعائلات الإقطاع كانت أكثر شيوعا في بريطانيا من بقية دول القارة الأوروبية، وكانت الطريق فيها بالتالي مفتوحة من دون قيود أمام أصحاب الكفاءات لارتقاء السلم الاجتماعي. لقد قصد نابليون المذمة حين نعت بريطانيا متهكما بأنها أمة «أصحاب المتاجر»، لكن البريطانيين اعتبروا ذلك إطراء لهم.

واعتاد الإنجليز هذا الواقع، وقاوموا بشدة كل محاولات تغييره. فالإنجليز الذين شرعوا في استيطان أمريكا مع مطلع القرن السابع عشر جلبوا معهم هذه الأفكار وطبقوها في البيئة الجديدة التي وجدوا أنفسهم فيها.

هذه الحال الجديدة كانت شبيهة بواقع إنجلترا، من الناحية الجيوسياسية، ولكن على نطاق أوسع. فحتى النصف الثاني من القرن العشرين كانت أمريكا الشمالية بمنأى تماما عن الهجوم الخارجي، مما خفف من ثقل يد المصالح الضريبية عن كواهل سكان البلاد طوال الشطر الأعظم من تلك الحقبة. وبفضل موقع بريطانيا المميز على خريطة العالم، الذي سمح لها بالسيطرة على طرق التجارة في شمال أوروبا، بدأت تلك الرقعة الجغرافية بالهيمنة على شؤون أوروبا والعالم، وكانت الولايات المتحدة مهيأة تماما للإفادة من نشوء اقتصاد معولم كليا. إن الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة التي تطل بسواحلها على المحيط الأطلسي والمحيط الهادي معا، وهي أيضا القوة العظمى الوحيدة التي تمتد أراضيها على مناطق مناخية قطبية ومعتدلة ومدارية. إنها تجمع بين خصائص الجزيرة المنعزلة بذاتها، وما يوفره ذلك من أمن عسكري وسمات القارة بكل الموارد التي تزخر بها تلك القارة.

إلى هذا، فإن معظم الذين وفدوا إلى ما يسمى الآن بالولايات المتحدة – وهم كلهم من الإنجليز – قد جاءوا لتسيير شؤون حياتهم الخاصة من دون قيود، ليمارسوا عباداتهم ويحسنوا ظروفهم الاقتصادية معا في تلك البلاد التي اعتبرت على مر القرون أرض الفرص. إذ ليس من قبيل المصادفة في هذا المقام أن تكون الولايات المتحدة أكثر الأمم تدينا على وجه الأرض وأكثرها علمانية أيضا، أكثرها تمسكا بالعقيدة وأكثرها حبا للتجارة.

وما من شك بأن تميز الولايات المتحدة بشعبها المثابر إنما يأتي من تحدُّره من سلالة أولئك القوم ذوي الهمة العالية الذين تخطوا كل الصعاب وهاجروا إلى أمريكا. إن أولئك الذين تركوا وراءهم كل شيء ووفدوا إلى أرض غريبة قاصية قد فعلوا ذلك بحثا عن تصورهم الخاص عن معنى السعادة. في هذه البلاد وجدت أغلبيتهم الظروف المواتية للوصول إلى ذلك في بيئة تكاد تنعدم فيها القيود والمعوقات، وهذا ما قدم لهم فرصة أفضل لبلوغ تلك السعادة. حتى أولئك الذين جاءوا في عداد الأسرى رغما عن إرادتهم الحرة صمدوا في وجه محنة لا يتصورها العقل في يومنا الحالي، وأورثوا تلك القوة التي اكتسبوها لأولادهم وأحفادهم. ولأن الاقتصاد الوطني هو مجموع الإنجازات الفردية لمواطنيه فقد أضحى الاقتصاد الأمريكي طوال ما يقرب من أربعة عقود على نشأته واحدا من أعظم عجائب العالم الحديث ومرتكزا أساسيا للنهضة التي يشهدها عالم اليوم.

لا نقصد هنا القول بأن تاريخ الاقتصاد الأمريكي كان مجموعة من الانتصارات المتعاقبة. إننا إن ادّعينا ذلك خرجنا على مصداقية هذا الكتاب. ففي كثير من مراحل تاريخ الولايات المتحدة مرّ الاقتصاد بصعاب بالغة كانت ستتفاقم وتخرج على السيطرة، لو أن القيادة السياسية انتهت إلى الفشل كما كان مصير حكومة الأرجنتين طوال تاريخها.

لقد دخل الاقتصاد الأمريكي بعد الثورة في ركود ثقيل، إذ لم تجد منتجات البلد منافذ لها في مناطق نفوذ الإمبراطورية البريطانية، حيث كانت أسواقها التقليدية ذات يوم. وكانت عملتها - إن ارتقت فعلا إلى مستوى العملة - عديمة القيمة؛ وتخلفت الحكومة عن سداد ديونها المتراكمة. وفي العام ١٩٣٢ عمّت آثار الكساد الكبير كل القطاعات، مما جعل مستقبل الاقتصاد ومستقبل الجمهورية نفسها غامضا في نظر الكثيرين.

في كلتا المحنتين استطاع هذا البلد أن يدرأ عن نفسه الخطوب، ويقف ثانية على قدميه أقوى من ذي قبل بفضل قيادته الحكيمة وعلى رأسها جورج واشنطن وأليكساندر هاميلتون، ثم فرانكلين روزفلت. مع ذلك فقد ارتكب القادة السياسيون للبلد أخطاء فادحة أيضا، منها تلك التي أدت إلى الكساد الكبير نفسه. كما أن انهيار البنك الثاني للولايات المتحدة على يدي أندرو جاكسون ترك البلد من دون مصرف مركزي طوال ما يقارب ثمانين عاما. وبالنتيجة تفاقمت نتائج الانهيارات المالية المتعاقبة في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كما كانت فترات الكساد أشد وطأة مما يجب.

تحمل قصة إمبراطورية الثروة، كمعظم قصص الإمبراطوريات، طابعا ملحميا حافلا بالانتصارات والهزائم، بالجرأة والتردد، بالأفكار الجديدة والرواسب القديمة، بالعقلاء والحمقى. لكنها كانت في شطرها الأعظم ملحمة قادتها الملايين التي لم يقف في طريقها شيء في سعيها إلى تحقيق مصالحها الذاتية في ظل حكم القانون؛ وهذا هو أساس الحرية. ومثل كل الملاحم، تعتبر هذه الملحمة بجوهرها نافذة نطل منها إلى كل ما يحقق إنسانيتنا، ذلك أنني لا أرى أفضل من قصة الاقتصاد الأمريكي لدحض فكرة ويليام وودسورث التي عبر عنها في قوله: «إننا نهدر مواردنا في عمليات الكسب والإنفاق».

الجزء الأول

فلاة شاسعة وغنية

فليمضوا إلى فلاة شاسعة وغنية، وليسيروا في مناكبها،
حيث ينالهم النصَب وتقهرهم صعاب لا قبل لهم بها،
قبل أن تؤول إليهم تلك الأرض الطيبة
التي يعمرها الرخاء وتسيل لبنا وعسلا

القس توماس هوكر

(تكفير الخطيئة، ١٦٥٩)

WITHE

الأرض والشعب والقانون

كان إبراهام لنكولن يرى أن أي أمة مهما تجاوزت قدراتها مجموع أجزائها هي نتاج عناصر ثلاثة: شعبها وأرضها وقوانينها.

لم تنفصل هذه العناصر الثلاثة في بلدان العالم القديم على امتداد تاريخها الطويل. لكن الولايات المتحدة لم تعرف لها تاريخا قديما كغيرها من الأمم التي تأسست على أيدي مستوطنين أوروبيين في موجة المد الكبير للثقافة الغربية في أواخر القرن الخامس عشر؛ فمع بداية التاريخ الأمريكي لم يكن هناك إلا الأرض.

كانت الأرض التي ستصبح - في ما بعد - الولايات المتحدة مكانا صالحا للسكنى بخلاف الأرض التي ترعرع فيها المستكشفون والمستوطنون الأوروبيون أول مرة. فقد تمركزت الكثافة السكانية في أوروبا الغربية في المدن والقرى والضياع؛ كانت الأراضي الزراعية تُحرث بانتظام وكانت الحياة البرية محدودة كما كانت الغابات نادرة، فاقتصد أولئك القوم في استغلالها.

«في العام ١٦١٧ احتفلت فيرجينيا بأول أعياد الشكر في أمريكا، لأن محصول تلك السنة من التبغ كان وفيرا وجيدا، مما بشر بالخلاص التجاري للمستعمرة»

المؤلف

تقع أمريكا في المنطقة الحرارية نفسها التي تمتد عليها القارة الأوروبية، وتعيش فيها أصناف من الأشجار والنباتات والحيوانات المعروفة، إضافة إلى أنواع من النباتات والحيوانات الغريبة ومنها الذرة والراكون والظربان والأفعى المجرسة. لكن وراء الساحل الصخري لما يعرف اليوم بولاية ماين Maine والشاطئ الرملي الواسع الممتد تقريبا من دون انقطاع من نيوهامبشاير إلى مكسيكو وما يليها، تمتد البراري البكر التي لم تمسها أيادي سكان المنطقة إلا قليلا.

هذه البراري كانت ذات يوم غابة تفوق بمساحتها أوروبا الغربية مجتمعة، لا يقطع امتدادها أحيانا إلا مروج القندس والمستنقعات والسبخات والجروف الصخرية وقمم الجبال الجرداء وحقول الهنود المحروقة. لقد امتدت هذه الغابة من خط الساحل إلى ما بعد نهر الميسيسبي. من هناك سارت بمحاذاة النهر وضفاف الجداول إلى السهول الواسعة التي غطت وسط القارة.

هذه الغابة العملاقة كانت مكونة من رقع متباينة. ففي الشمال انتصبت جدران عالية من الصنوبر الأبيض - الذي تعتبر أخشابه الأفضل لصناعة صواري وعوارض السفن الشراعية - تتناوب مع غابات الخشب الصلب حيث أشجار القيقب والجميز والدردار التي تفترش الأراضي المنخفضة، والبلوط والجوزيات التي تتسلق المنحدرات الجافة العالية. إلى الجنوب تمتد رقع من فصائل مختلفة من الصنوبر على طول ساحل الأطلسي إلى المناطق الداخلية حيث تلتقي غابات الخشب الصلب عند أطراف النجود.

يتميز الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية بتضاريسه المنبسطة، وقد ساعد السهل الساحلي الواسع على الاستيطان دون بالغ صعوبة. فهناك شبه جزر مثل كيب كود Cape Code وديلمارفا Delmarva وجزر مثل لونغ آيلاند Long Island وهناك الشواطئ المنعزلة التي تمتد إلى أعماق الجنوب التي وفرت مرفأ آمنا لطلائع السفن الوافدة. وبفضل وفرة الأنهار مثل الميريماك وتشارلز والتايمز وكونيكتيكوت والهوساتونيك والهدسون والراريتان والديلاوير وساسكويهانا والبوتوماك والراباهانوك واليورك والجيمس والبيدي والآشلي والكوبر والسافانا وجدت المراكب الصغيرة المبحرة آنذاك في المياه الضحلة شبكة النقل التي تصل إلى المناطق الداخلية البعيدة. في العام ١٦٠٩ أبحر هنري هدسون - وهو رجل إنجليزي عمل لحساب

الهولنديين – بسفينته المتداعية هاف موون Half Moon لمسافة ١٥٠ ميلا إلى أعالي النهر، الذي سمي في ما بعد باسمه، حيث بلغ مكانا قصيا يشارف ما يعرف اليوم بألباني Albany. إن رحلة طويلة مثل هذه عن طريق البر كانت لتستغرق شهرا أو أكثر. لكن هدسون – على الرغم من مسيره الحذر في مجرى مائي ضيق لم يعهده قبلا – قطع المسافة في أسبوع واحد.

لقد تشكلت هذه الأنهار حين كان البحر أدنى من مستواه الحالي، وبالتالي أدى ارتفاع منسوبها إلى غمر مصبات الأنهار، ووفر عددا من المرافئ التي أضحت من بين أفضل المرافئ على المحيط الأطلسي الشمالي. وهكذا فإن عددا من المدن الأُول في البلد – بوسطن ونيوبورت ونيولندن ونيويورك وبالتيمور وتشارلتسون – ازدهر في تلك المرافئ.

أما مناخ أمريكا الشمالية الذي واجهه المستوطنون فكان – كما الأرض – مألوفا وغريبا معا. إن مناخ الجانب الشرقي في هذه القارة الواسعة الذي كان قاريا بطبيعته مقارنة بمناخ أوروبا الغربية البحري الذي تعتدل درجة حرارته بفضل موجة الدفء القادمة مع نسيم الخليج Gulf Stream، يجعل من فصل الشتاء في أمريكا أشد برودة من شتاء أوروبا الغربية، كما أنه يجعل فصل الصيف أشد حرا. إنّ درجتي الحرارة الكبرى والصغرى المسجلتين في لندن التي تقع شمال خط العرض الواحد والخمسين، تصلان إلى ٩٩ درجة ودرجتين (*) على التوالي، وقلما تبلغ درجة الحرارة هذين الحدين. أما درجات الحرارة المسجلة في نيويورك شمال خط العرض الواحد والأربعين، فهي ١٠٦ درجات و – ١٥ درجة على التوالي، وكثيرا ما تصل الحرارة إلى هاتين الدرجتين العظميين. وبالمقارنة مع أوروبا تعتبر فصول الشتاء في نيوإنجلاند وفصول الصيف في الشطر الجنوبي طويلة قاسية.

هذه الأرض الشاسعة لم تكن خالية من السكان. إذ كانت تسمى «إنديانز» Indians (ليز إنديا les indiens بالفرنسية، ولوس إنديوس los indios بالإسبانية)، على الرغم من جهل طلائع المستكشفين الأوروبيين بهذه الحقيقة، ذلك أنهم اعتقدوا أنفسهم حينها على تخوم آسيا. في الحقيقة عاش سكان أمريكا الشمالية الأصليون في كل أنحاء القارة التي كانت تعتبر مقارنة بأوروبا قليلة السكان نسبة إلى مساحة الأرض. ولا يمكن الوصول إلى الأرقام

(*) فهرنهايت [المترجم].

الدقيقة، أما التقديرات فهي متباينة، مع ذلك كان عدد السكان الهنود في الشطر الشرقي من أمريكا الشمالية يتراوح بين مليون ومليوني نسمة زمن كولومبس. وقد تناقص هذا العدد - باطراد أحيانا - حين جلب الاحتكاك المتزايد بالأوروبيين قبل استيطانهم أمراضا لم يكن الهنود محصنين ضدها.

لم يشترك الهنود مطلقا في حضارة واحدة حتى بالمعايير الأوروبية على اختلافها. فقد كان هناك مائتان وخمسون لغة حية في أمريكا الشمالية مع بداية الكشوف الأوروبية (نحو ألفي لغة في النصف الغربي من الكرة الأرضية جميعا). حتى تلك الجماعات من سكان أمريكا الشمالية التي تكلمت لغة واحدة كانت منقسمة إلى قبائل صغيرة متناحرة، وكانت المناوشات لا تنقطع بينها.

وحدهم هنود وادي الميسيسبي الذين انتظموا اجتماعيا في زعامات اتخذوا الزراعة مصدرا رئيسيا لقوتهم ومعاشهم. أما هنود الساحل الشرقي - الذين عاشوا في قبائل - فكانوا أساسا من الصيادين وجامعي الغذاء. إن أقل من ١٪ من الأراضي الصالحة للزراعة في الشطر الشرقي من أمريكا الشمالية استخدمت لزراعة المحاصيل الغذائية. وباعتمادهم أسلوب حرق الأراضي استطاع الهنود زراعة الذرة واليقطين والبقول في رقعة من الأرض بضع سنين والانتقال إلى رقعة أرض جديدة مع تدني خصوبة الرقعة القديمة.

وبلغة التقدم التقني، كان الهنود الشرقيون ينتسبون إلى العصر الحجري الحديث، إذ كانت أدواتهم متطورة، لكنهم لم يعرفوا المعادن. كانوا ذوي حضارة متقدمة، إذ استخدموا مئات من المواد والتقنيات المختلفة بالاستعانة بما أطلق عليه جيمس فينيمور كوبر(*)، الذي عاش بعد قرنين، «فن الغابة الرفيع» (**). وقد ساعدت هذه الفنون التي تطورت على مدى آلاف السنين من العيش على ما تقدمه الأرض - التي نقلها السكان الأصليون إلى المستعمرين - في صمود هؤلاء الهنود غير مرة في وجه الكوارث، بل ومواجهة مخاطر الانقراض مع كفاحهم الدؤوب لإيجاد موطئ قدم لهم في العالم الجديد New World الذي لم يعهدوه قبلا.

(*) جيمس فينيمور كوبر: روائي وناقد اجتماعي أمريكي (١٧٨٩ - ١٨٥١) [المترجم].

(**) The gentle art of the forest.

لكن الحضارة التي جلبها هؤلاء المستعمرون معهم، وأحلوها مكان حضارة الهنود فاقت الأخيرة بتقدمها التقني، وهذا عامل مهم سيفضي إلى تقويض حضارة الهنود. فقد اعتاد الهنود استخدام ما جاء به الأوروبيون من نتاجات أكثر تقدما من قبيل الأدوات المعدنية والملابس والأسلحة النارية، ولم يعد من مكان لمهارات الهنود في استخدام موادهم البدائية. وبعد فترة ليست بالطويلة، لم يكن أمام الهنود مفرٌّ من التبادل التجاري للحصول على احتياجاتهم، وبشروط كانت تزداد إجحافا، وهكذا خسروا سيادتهم الاقتصادية. وجلبت نهاية السيادة الاقتصادية معها بداية انحسار السيادة السياسية، وكل العناصر الباقية التي ميزت حضارتهم.

لقد جلب أهم تقدمين تقنيين في تاريخ البشرية معهما نهاية أوروبا القرون الوسطى مع مطلع القرن السادس عشر وفتحا الباب أمام استيطان العالم الجديد. فابتكار المطبعة ساهم في تقليل تكاليف إنتاج الكتاب، وبالتالي تكاليف المعرفة. إذ مع منتصف القرن الخامس عشر لم يكن هناك إلا نحو خمسين ألف كتاب في كل القارة الأوروبية معظمها خاضعة لرقابة الكنيسة، التي كانت تشرف أيضا على الجامعات. ومع نهاية القرن بلغ عدد الكتب في أوروبا عشرة ملايين كتاب شملت طيفا واسعا من المواضيع أكثرها في المجال التقني والزراعي. وكان القسم الأعظم من هذه الكتب في أيدي فئة التجار الأثرياء والطبقة الأرستقراطية الإقطاعية. من هنا انكسر احتكار الكنيسة للعلوم والمعارف، ومن ثم احتكارها الدين مع انتشار المد البروتستانتي الإصلاحي في معظم الشطر الشمالي من أوروبا، وهذا ما أشعل فتيل حروب دامت أكثر من قرن.

أما الابتكار الكبير الآخر الذي شهدته العصور الوسطى فكان السفينة الشراعية المهيأة للقيام برحلات طويلة عبر المحيط. في نحو العام ١٤٠٠ كانت أكثر السفن الأوروبية صغيرة، وذات صار واحد، مثل تلك التي استخدمها ويليام الفاتح قبل أربعمائة سنة تقريباً، حين عبر القنال إلى إنجلترا. غير أن العام ١٤٥٠ شهد ظهور سفن أكبر حجما ذات صوارٍ وصل عددها أحيانا إلى أربعة، وكانت هذه السفن تبحر خلف حدود العالم المعروف للأوروبيين آنذاك.

وقد ظهرت الحاجة آنذاك إلى الإبحار خلف الحدود المعروفة. فقد استولى الأتراك في العام ١٤٥٣ على القسطنطينية، العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية. وهكذا اعترضت قوة مسلمة الطرق التجارية إلى الشرق وفرضت ضرائب على كل السلع التي كانت تمر عبر الطرق الخاضعة لسيطرتها. كما بدأ الأتراك التوسع باتجاه أوروبا نفسها، وستصل جيوشهم مع منتصف القرن السادس عشر إلى مداخل فيينا. حينها شعرت المسيحية بأنها مستهدفة بشكل غير مسبوق منذ عصور الظلام قبل نحو مائة عام.

لكن، بفضل السفن الشراعية، أتم الأوروبيون الغربيون الدوران حول مناطق نفوذ المسلمين التي امتدت عبرها طرق التجارة. ومع نهاية القرن الخامس عشر دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح عند الحافة الجنوبية للقارة الأفريقية ليصلوا إلى الهند. وبلغوا في العام ١٥١٠ جزر التوابل Spice Islands، وهي مصدر التوابل (كالفلفل)، التي ستدر أرباحا خيالية حين تدخل إلى أوروبا.

إن كولومبوس الذي سار على هدي النظرية التي قامت على فكرة مغلوطة عن حجم العالم، سيجد نفسه من دون أن يدري – في العالم الجديد في العام ١٤٩٢في أثناء محاولة الوصول إلى آسيا بالإبحار غربا.

بعد أن تبين أن كولومبوس وسواه من طلائع المستكشفين قد اكتشفوا حقا العالم الجديد، عملت القوى البحرية الأوروبية الغربية على تمويل الحملات الاستكشافية. وكان الإسبان أول من أصابوا نجاحا وتحققت لهم الثروة مع فتحهم المكسيك، ثم البيرو بعد عشر سنوات. ثم بدأت كميات هائلة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة تتدفق إلى إسبانيا التي تحولت نتيجة ذلك إلى قوة مهيمنة في أوروبا. وبدأت البرتغال بإنتاج السكر في البرازيل مع منتصف القرن السادس عشر، إذ أصبح السكر بسرعة محصولا مربحا حين كانت زراعته تقوم على سواعد العبيد. ومع نهاية القرن بدأ الفرنسيون يسلكون نهر لورنس للإبحار إلى أعماق قارة أمريكا الشمالية وإقامة تجارة كبيرة للفرو مع الهنود الذين سكنوا ضفاف البحيرات العظمى.

مع ذلك، وباستثناء استيطان الإسبان في خليج تشيسابيك وهجمات الهنود التي أجبرتهم على التنازل عنه في ما بعد العام ١٥٧٢، كان الساحل الشرقي لما يسمى الآن بالولايات المتحدة خارج دائرة الاهتمام تماما.

فلقد كان قرب الأراضي من المناطق الشمالية لا يسمح بزراعة المحاصيل المدارية فيها مثل السكر، وكان قربها إلى المناطق الجنوبية يعني استحالة العثور على فراء ذي جودة عالية. ولم تكن هناك دلائل على وجود معادن ثمينة.

وفي أثناء البحث عن ممر بحري من الناحية الشمالية الغربية موَّلت إنجلترا الاكتشافات التي قام بها جيوفاني كابوتي (وهو إيطالي عرف في الأوساط الإنجليزية باسم جون كابوت)، لكن ذلك جاء متأخرا في حملة السباق لاستغلال خيرات العالم الجديد عبر الاستيطان. لقد كانت تلك نقطة البدء. ففي العام ١٥٨٥، ومرة أخرى في العام ١٥٨٧، حاول السير والتر راليه Walter Raleigh أن يؤسس مستوطنة في رونوك آيلاند في ألبيمارلي ساوند Albemarle Sound، فيما يطلق عليه الآن نورث كارولاينا North Carolina. لقد زالت هذه المستوطنة ولم يتخلف من أثرها إلا رسالة غامضة حفرت على جذع شجرة. لكن إنجلترا أعادت الكرة ثانية بعد عشرين عاما وأصابت نجاحا هذه المرة.

إن الفضل في تأسيس المستوطنة التي تقع في جيمس تاون لا يعود إلى الحكومة الإنجليزية، بل إلى شركة تجارية خاصة.

وتلقى الابتكارات المادية كالمطبعة والسفن الشراعية اهتماما كبيرا من قبل المؤرخين، ولكن للابتكارات الفكرية أهمية لا تقل عن هذه الابتكارات. فقد كان لاثنين من الابتكارات الفكرية في عصر النهضة (هما القيد المحاسبي المزدوج والمؤسسة الخاصة) دور حيوي في تطور الحضارة الأوروبية في العالم الجديد، خصوصا في ما يعرف الآن بالولايات المتحدة.

لقد عُرفت المحاسبة منذ فجر الحضارة في بلاد ما بين النهرين. وابتُكرت الكتابة في الحقيقة - وهي تمثل الخاصية المميزة للحضارة - لحفظ المؤلفات. لكن المحاسبة لم تشهد تطورا كبيرا طوال آلاف من السنين

حتى ظهر أسلوب مسك الدفاتر باستخدام القيد المزدوج (*) في إيطاليا في القرن الخامس عشر. فقد سهل القيد المزدوج كثيرا تتبع الأخطاء وتقديم صورة واقعية عن الوضع المالي للمؤسسة بناء على الأرقام الأولية المتاحة. واستطاع عامة الناس، بفضل مسك الدفاتر باستخدام القيد المزدوج، الاستثمار في مشاريع بعيدة جغرافيا ومتابعة أحوال استثماراتهم. وقد وصلت الحال بفيرديناند وإيزابيلا (**) أنهما أرسلا محاسبا بصحبة كولومبوس في رحلته الأولى ليتسنى لهما التأكد من الحصول على حصتهما الكاملة من الأرباح المأمولة.

كما أثبتت الشركة المساهمة دورها أيضا في هذه الظروف. فقد كان اكتشاف الأراضي النائية باستخدام السفن الشراعية عملا محفوفا بالمخاطر - إذ إن كثيرا من السفن ذهبت بغير عودة - وكان ذلك يتطلب توظيف قدر كبير من رؤوس الأموال بأرقام القرن السادس عشر. ففي المقام الأول، كانت أكثر الرحلات عبارة عن حملات مولها التاج في هذه البلدان. لكن إنجلترا كانت بلدا صغيرا قليل السكان يفتقر إلى الموارد المالية التي تتمتع بها إسبانيا وفرنسا. وكانت الجمهورية الهولندية التي نافست إسبانيا في حاجة إلى وسيلة أخرى لتمويل هذه المشاريع المكلفة التي تخفي في طياتها إمكانات ربح وفير، وتتطلب بالمقابل إمكانات مالية تتجاوز إمكانات الأثرياء الأفراد.

ربما كان أسلوب المشاركة (الشراكة) معروفا منذ أقدم العصور. لكن الشراكة تنص على تحميل الشريك مسؤولية كل ديون المشروع. وهذا ما كان يعرض المستثمر صاحب رأس المال المحدود إلى الإفلاس مع فشل المشروع. ولم يكن هناك سوى قلة أبدت استعدادا لتحمل هذه المخاطر، وخصوصا في مشروع لا يمكن وضعه تحت الرقابة المباشرة. ولقد عالجت الشركة المساهمة هذه المشكلة من خلال حصر مسؤولية المستثمر في مقدار أمواله المستثمرة. وبالتالي فقد نقل ذلك بعضا من المخاطر إلى دائني الشركة، لكنه سمح في الوقت نفسه بتأمين مبالغ هائلة من الاستثمارات الصغيرة. وهكذا مثلت الشركات المساهمة التي جاءت في

(*) القيد المزدوج Double entry: تسجيل الواقعة المحاسبية الواحدة مرتين: مرة تحت بند المدين والثانية تحت بند الدائن في الدفاتر المحاسبية [المترجم].

(**) فيرديناند وإيزابيلا: عاهلا إسبانيا آنذاك [المترجم].

المرتبة الثانية بعد «الدولة – الأمة» State-nation أهم التطورات التنظيمية لعصر النهضة وساعدت على غرار «الدولة – الأمة» في تحقيق الإنجازات التي صنعت العالم الحديث.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أُنشئ كثير من الشركات الإنجليزية المساهمة لتسهيل التجارة في عدد من المناطق، من بين هذه الشركات: شركة موسكو Moscow Company (العام ١٥٥٥)، شركة المشرق Levant Company (العام ١٥٨٣) وشركة الهند الشرقية (العام ١٦٠٠). كما أسس الهولنديون بدورهم شركة أطلقوا عليها أيضا شركة الهند الشرقية. وقد ساهمت هذه الشركة في انتزاع الشطر الأعظم من الإمبراطورية البرتغالية في الشرق الأقصى وجعلت من هولندا، ذلك البلد الفقير بموارده الطبيعية، الأمة التجارية الأولى في العالم وأغنى بلدان أوروبا في مطلع القرن السابع عشر.

وفي العام ١٦٠٦ سمح الملك جيمس الأول بترخيص إنشاء شركة فيرجينيا – التي تأسست على أيدي مجموعة من تجار لندن. ونص ميثاق الشركة على أن هدف الشركة كان بناء أسطول تجاري لإنجلترا وزيادة عدد البحارة المتمرسين من خلال زيادة حجم تجارتها واكتشاف المعادن الثمينة وتأسيس مستوطنة بروتستانتية في أرض كانت تحت رحمة التهديدات الإسبانية، ومن جملة ذلك إدخال الوثنيين في المسيحية.

هذا الهدف الأخير لم يحظ، في الواقع، بكثير من الاهتمام. وبالتأكيد فإن إنجلترا لم ترسل مبشرين على الإطلاق. على العكس من ذلك، كانت نيتها واضحة بتنصير الهنود من خلال مجموعة من عمليات التلقين الاقتصادي «بغية توطين رعايانا وتفريق شمل السكان الأصليين في سبيل الله العظيم، ونشر الدين المسيحي، وتطوير عمل وريع المزارع في ذلك البلد عموما، وتحقيق مصلحتنا الخاصة وضمان أرباحنا».

وهكذا كانت رؤية الإنجليز للاستيطان منذ البداية مختلفة جذريا عن نظرة الإسبان والفرنسيين. فقد سعت حكومات إسبانيا وفرنسا إلى السيطرة على كل الشؤون الخاصة بالأراضي الخاضعة لها في العالم الجديد وبذلت جهودا حثيثة لإدخال الهنود في الدين الكاثوليكي شاءوا أو أبوا.

أما باب الهجرة إلى نيو سبين New Spain ونيو فرانس New France فلم يُفتح إلا لمن حمل تصريحا، وذلك كي لا يفسدها المهرطقون والمخربون. لكن حكومة إنجلترا لم يكن لديها مصلحة كبيرة في المشروع واكتفت بإبعاد مصدر الاضطرابات - سواء أكانوا من المتدينين أم أرباب الجريمة - والعاطلين عن العمل، وما أكثرهم فيها.

كان الاقتصاد الإنجليزي يعاني من تغيرات سلبية في الشطر الأعظم من القرن السادس عشر. فقد ازداد عدد السكان بسرعة، من نحو ثلاثة ملايين في العام ١٥٠٠ إلى أربعة ملايين بعد قرن، وخمسة ملايين في العام ١٦٥٠. لكن العمالة لم تزدد بالنسبة نفسها. وكانت صناعة الألبسة - الدعامة الأساسية للصناعة البريطانية منذ استقر الحائكون الفلمينغ فيها في منتصف القرن الرابع عشر - تفقد مكانتها لمصلحة المنافسين من بلدان القارة الأخرى.

في هذه الأثناء كان النظام الإقطاعي القديم الذي قام على ملكية الأرض، يتلاشى سريعا. وكانت الطبقة العليا والارستقراطية - وهم يمثلون ٥٪ من السكان الذين حازوا معظم الأراضي الزراعية في إنجلترا - تقيم أسوارا لعقاراتها وتخلي المستأجرين لكي تعمل بنفسها على الإشراف على قطعان الماشية وبالتالي زيادة الأرباح باستخدام اليد العاملة المأجورة. وفي القرن الممتد ما بين ١٥٣٠ و١٦٣٠ خسر نصف الفلاحين الإنجليز إيجاراتهم وواجه العديد منهم صعوبة بالغة في العثور على عمل آخر.

وبالإضافة إلى ذلك، أدى التدفق الكبير للذهب والفضة إلى الاقتصاد الأوروبي من العالم الجديد، بفضل الفتوحات الإسبانية، إلى إطلاق العنان للتضخم الجامح وارتفعت الأسعار نحو ٤٠٠ في المائة في القرن السادس عشر.

واندفع الفلاحون المحرومون من ملكياتهم وعمال الملابس العاطلين عن العمل - الذين عرفوا بالمتسولين الأصحاء (القادرين على العمل) تمييزا لهم عن المتسولين العاجزين ممن أعاقهم المرض أو الإصابة - يطوفون من أبرشية إلى أخرى بعد أن رفض الموظفون المحليون إيلاءهم أي عناية أو اهتمام. لقد اعتاد هؤلاء التجمهر في أسواق القرى والمرافئ البحرية. وشهدت لندن - أكبر مدن إنجلترا - زيادة في عدد السكان من ١٢٠ ألف نسمة في العام

١٥٥٠ إلى ٢٠٠ ألف نسمة بعد خمسين سنة فقط. وفي العام ١٦٥٠، كانت الأحياء الشعبية بشوارعها الضيقة الملتوية ومساكنها الصغيرة تؤوي ٣٥٠ ألف نسمة أكثرهم من الفقراء المعدمين.

كان المنتمون إلى تلك الفئات الاجتماعية - الهاربة من قبضة المجاعة أو الفارة من عمدات البلد - هم الذين استقطبتهم شركة فيرجينيا Virginia Company إلى جانب المغامرين من الأشراف الذين كانوا في الأغلب أصغر أبناء العائلات الإقطاعية. وفي ديسمبر ١٦٠٦ غادرت إنجلترا ثلاث سفن هي سوزان كونستانت Susan Constant وجادسبيد Godspeed وديسكفري Discovery، وبلغت خليج تشيزابيك في ٢٦ أبريل ١٦٠٧ وعلى متنها مائة وخمسة رجال (مات تسعة وثلاثون منهم في الطريق). وبعد أن أبحرت بضعة من ستين ميلا باتجاه منبع نهر جيمس لإخفاء وجودها عن الإسبان، رست السفن الثلاث في الثالث عشر من مايو في موقع حمل أيضا اسم النهر: جيمس تاون Jamestown نسبة إلى ملك إنجلترا.

وعلى الرغم من أمنه النسبي من هجمات الإسبان، لم يكن لهذا الموقع - على الضفة الشمالية لنهر جيمس James قرب أحد المستنقعات - أي ميزة أخرى. فالمستنقع الذي ساعد في صد هجمات الهنود كان بؤرة خصبة لتكاثر البعوض بأعداد كبيرة في فصلي الربيع والصيف، وهذا ما أدى إلى انتشار الملاريا في أوساط المستوطنين. لا بل إن الماء في الآبار الضحلة التي حفرها المستوطنون لم يكن عذبا، خصوصا مع انخفاض منسوب النهر. وقد أدى ذلك إلى تسمم المستوطنين بالأملاح هم نتيجة التعرق الشديد بفعل حرارة فرجينيا العالية واضطرارهم إلى شرب كثير من هذه المياه. وحين ينخفض منسوب النهر لم تكن النفايات ومياه المجاري التي ترمى فيه تجد طريقها إلى البحر، ولكن كانت تولد الأمراض كالتيفوئيد والزحار وتساعد على نشرها.

نتجت عن ذلك وفاة أعداد كبيرة من الناس. فمن أصل المستوطنين الأصليين، الذين بلغ عددهم مائة وخمسة مستوطنين، لم يبق على قيد الحياة بعد تسعة شهور إلا ثمانية وثلاثون مستوطنا.

لقد كانت المشكلة الأساسية تكمن في دخول شركة فيرجينيا Virginia Company آنذاك في مشاريع جديدة - هي المزارع الأمريكية - التي صارت إقامتها ممكنة بفضل تقنية جديدة تماما، ألا وهي السفن الشراعية. وكما

كانت عليه الحال منذ ذلك الحين - يتبادر إلى الذهن هنا اختراع السكك الحديد في أوائل القرن التاسع عشر، وابتكار الإنترنت في أواخر القرن العشرين - كان التعليم يتطلب كثيرا من الإنفاق قبل أن تشهد الأرباح استقرارا في ظل هذه الظروف. ولم يكن لدى التجار اللندنيين الأثرياء، الذين هيمنوا على شركة فيرجينيا، أي فكرة عن متطلبات إنشاء مستوطنة ناجحة على تخوم البرية الأمريكية على مبعدة ثلاثة آلاف ميل ومسيرة ثلاثة أشهر من الوطن الأم.

بالنتيجة، ارتكب هؤلاء التجار أخطاء متكررة. فهم بتبشيرهم بحلم الذهب حملوا المستوطنين على رفض امتهان الأعمال الشاقة اللازمة للزراعة في التربة البكر. وبالطبع، لم يكن هناك من ذهب للبحث عنه، لأن المستوطنين عثروا على كميات من معدن الميكا (المحلي) وأقنعوا أنفسهم بأنه كان فلز الذهب الثمين. على حد تعبير الكابتن جون سميث John Smith، كما أورد في كتابه الأكثر مبيعا «في وصف فيرجينيا» Description of Virginia، الذي نشر في العام ١٦١٢ فإنه: «لم يكن هناك من حديث أو طموح أو عمل، اللهم إلا التنقيب عن الذهب». وقد تبين أن هذا «الذهب» الذي شحن إلى إنجلترا، عديم القيمة.

لقد حافظت الشركة في البداية على حقها في ملكية الأرض، لأنها توقعت أن يعمل المستوطنون فيها كفلاحين. لكن أيا من المغامرين الأشراف أو المجندين الذين وفدوا على أرصفة الموانئ في لندن وبريستول لم يرغب ببذل جهد شاق في سبيل الشركة. كما أنهم لم يملكوا المهارات اللازمة لذلك: الأشراف لم يكونوا مضطرين ماديا لهذا العمل، «والمتسولون الأصحاء» لم يجدوا الفرصة المواتية.

كانت النتيجة مجاعة في الشتاء، لأن الهنود لم يكن لديهم إلا فائضا ضئيلا للمقايضة أو المتاجرة، كما أنهم رفضوا المقايضة من أصلها في أحيان كثيرة. ومع أن الشركة نقلت مزيدا من المستوطنين سنويا فإن الرقم الإجمالي لم يرتفع إلا بمعدلات بطيئة. في ديسمبر ١٦٠٩ بلغ عدد سكان جيمس تاون مائتين وعشرين نسمة. ومع حلول الربيع لم يكن هناك إلا ستون على قيد الحياة بسبب نقص الطعام. حتى أن أحد المستوطنين عمد إلى قتل زوجته وأكل لحمها (وقد أحرق على الوتد جزاء له).

ومن تبقوا من المستوطنين هجروا جيمس تاون في يونيو ١٦١٠، وأبحروا عائدين إلى وطنهم الأم ليلتقوا بثلاث سفن عند مصب نهر جيمس كانت تحمل على متنها ثلاثمائة مهاجر جديد. وهكذا عادوا ثانية إلى المستعمرة الصغيرة.

لقد بُذلت كثير من المحاولات لإيجاد منتج يمكن تصديره والتعويل عليه لسداد النفقات وتحقيق ربح لأصحاب الحصص الاستثمارية. ولأن الطلب على الزجاج كان في ارتفاع متصاعد في إنجلترا في حين كان وقود الأخشاب اللازم لإنتاجه نادرا، ومع أن الشركة حاولت استغلال الغابات الشاسعة في فيرجينيا ورمالها الوفيرة، فهي لم تكن قادرة على شحنه عبر الأطلسي بطريقة مربحة. ولم تعط تجارة الحديد والقار والقطران وأخشاب الكلابورد وتوابل الساسافراس أيضا عوائد كافية.

ومع حلول العام ١٦١٦ كانت شركة فيرجينيا قد نقلت أكثر من ألف وسبعمائة شخص إلى فيرجينيا واستثمرت أموالا طائلة وصلت إلى ٥٠ ألف جنيه في مشروعها على ضفة تشيزابيك. ولإعطاء فكرة أولية عن قيمة ذلك المبلغ في إنجلترا، أيام اليعاقبة، نذكر أن الدخل السنوي لرجل من الأشراف من ريع الأرض كان يصل إلى خمسين جنيها. أما العوائد التي كان التاج يتقاضاها من متحصلات الضرائب - وكانت مصدرا أساسيا لدخل الملك - فقد بلغ متوسطها خمسة وسبعين ألف جنيه. ومع ذلك وفي مقابل كل هذه الأموال لم تحقق الشركة نتائج تذكر على ضفة نهر جيمس التي نزل بها ثلاثمائة وخمسون شخصا عانى كثير منهم المرض والجوع.

وبعد تسع سنوات، كان موطئ قدم الإنجليز في قارة أمريكا الشمالية لا يزال عُرضة لتهديدات متعددة من بينها هجمات الهنود وغارات الإسبان والمرض والمجاعة. ولم يقل عن هذه التهديدات حدة واقع شركة، فيرجينيا التي كانت تجهل آنذاك السبيل لتحقيق عوائد أكثر من النفقات في هذه المستوطنة.

لقد تبين أن حل المشكلة يكمن في نبات محلي شائع الانتشار في الأمريكتين، يدعى تبغ النيكوتين Nicotiana tabacum. زرع التبغ - الذي اكتشف في ما يعرف الآن بالبيرو والإكوادور - طيلة آلاف السنين

قبل قدوم الأوروبيين. كان تدخين الأوراق المجففة يعطي شعورا بالمتعة في البداية يعقبها إدمان التدخين بعد مدة ليست بالطويلة. وفي الوقت الذي وصل فيه كولومبوس إلى العالم الجديد انتشرت هذه العادة في النواحي المعتدلة من نصف الكرة الأرضية الغربي وما وراءه حيث يمكن زراعة التبغ.

وقد نقل كولومبوس التبغ لدى عودته إلى أوروبا من رحلته الأولى. وفي القرن التالي انتشرت العادة بسرعة في العالم القديم. وبدأت زراعة التبغ بالانتشار في حوض المتوسط. وشرع الإسبان في زراعته في ويست إنديز West Indies أيضا بهدف التصدير. وانتشرت العادة سريعا في بريطانيا التي أبدى ملكها جيمس نفورا من التبغ واعتبره من الشرور، فألف ونشر كتيبا بعنوان «في دحض التبغ»، ولا عجب أن لم تلق مادة الكتاب اهتماما يذكر بوجهة النظر الملكية، إذ استمرت شعبية التدخين في الازدياد. لكن مناخ بريطانيا البارد والماطر لم يلائم زراعة التبغ لغايات تجارية، وكان على البلد أن يستورد معظم حاجته من إسبانيا التي كانت في حرب دائمة معها.

أما الهنود المحليون في فيرجينيا الشرقية فقد كانوا هم أيضا مدمنين على التبغ، لكن الأنواع التي زرعوها لم تكن شائعة بين المستوطنين الإنجليز الذين ظهروا بينهم. فقد فضل المستوطنون التبغ الذي أنتجه الإسبان في ويست إنديز West Indies. ومن ثم، في العام ١٦١٢ جلب رجل يدعى جون رولف حفنة من البذور التي حصل عليها من تلك البلاد - من ترينيداد على الغالب - وزرعها. وقد نمت البذور بسرعة في جو فيرجينيا الحار الرطب، وذلك بفضل جهود الهنود المحليين (تزوج رولف العام ١٦١٤ الأميرة الهندية بوكاهونتاس). وهكذا تعلم جون فن زراعة التبغ.

ونقل معه إلى إنجلترا في العام ١٦١٦ أول محصول تجاري واصطحب معه زوجته أيضا. وقد سبب وصول المحصول وزوجته الهندية إثارة بالغة على الرغم من أن مناخ إنجلترا أدى إلى وفاة بوكاهونتاس (زوجته). عندما عاد رولف إليها في العام ١٦١٧ احتفلت فيرجينيا بأول أعياد الشكر في أمريكا لأن محصول تلك السنة من التبغ كان وفيرا وجيدا مما بشر بالخلاص التجاري للمستعمرة.

كانت أولى فترات الازدهار الاقتصادي الأمريكي في طريقها إلى الظهور. وأفاد الكابتن جون سميث حين عاد إلى إنجلترا بأن الحاكم الجديد وجد لدى وصوله تلك السنة جيمس تاون في حالة مزرية، وكانت «السوق والشوارع وكل رقع الأرض الخلاء مزروعة تبغا».

في العام ١٦١٨ أُنتج عشرون ألف رطل من التبغ في فيرجينيا لتشحن بعدها إلى إنجلترا. وبعد أربع سنوات - وعلى الرغم من هجوم الهنود في ذلك العام ومقتل ثلث المستوطنين بمن فيهم، كما ترجح الروايات، جون رولف نفسه - فقد تضاعف المحصول ثلاث مرات. ومع العام ١٦٢٧ ازداد المحصول إلى ٥٠٠ ألف رطل، ثم بلغ ١,٥ مليون رطل في العام ١٦٢٩. ومع حلول العام ١٦٣٨ كانت فيرجينيا تصدر ثلاثة ملايين رطل من التبغ إلى بريطانيا سنويا، وأضحت مصدّر التبغ الرئيسي لأوروبا الغربية متفوقة بذلك على ويست أنديز.

كان من الأسباب التي أدت، ولا ريب، إلى الزيادة السريعة في إنتاج التبغ، تغيير شركة فيرجينيا سياستها الخاصة بالأراضي في العام ١٦١٦. فبدلا من الطلب إلى المستوطنين العمل في الأرض لحسابها فتحت الشركة الباب حينها أمام المستوطنين لامتلاك أراضيهم الخاصة. بالإضافة إلى هذا، وأملا في جذب المزيد من المهاجرين، قدمت الشركة أراضي مجانية إلى المستوطنين الجدد وفق نظام كان يعرف حينها باسم حقوق الرأس Head Rights. وقد أُعطي كلٌّ رجل تحمل بنفسه مصاريف سفره إلى تلك البلاد خمسين هكتارا، وخمسين أخرى عن كل قريب اصطحبه وأخرى عن كل خادم تكفل هو بمصاريف رحلته إلى هذه البلاد. كما كان للخدم المتعاقدين، الذين قبلوا العمل عددا من السنوات لسداد تكلفة سفرهم، حق الحصول على خمسين هكتارا من الأرض بعد انتهائهم من دفع مستحقات عقودهم. وبالطبع كان ذلك أيضا مرهونا ببقائهم أحياء للحصول على هذه الحقوق، إذ إن ٢٥ في المائة من المهاجرين قضوا نحبهم في عامهم الأول في تشيزابيك في أوائل أعوام الاستيطان الإنجليزي.

لقد كان امتلاك مائة أو مائتين أو أكثر من هكتارات الأرض الصالحة للزراعة من دون مقابل حافزا قويا، على الرغم من كل المخاطر. ففي عصر كانت فيه الزراعة أساس كل الاقتصادات الوطنية، كانت الثروة

لا تقاس بالمال، بل بملكية الأراضي. وفي أوروبا التي افتقرت إلى الأراضي الشاسعة كان امتلاك مائتي «أكر» من الأرض الزراعية الخصبة يجعل المرء غنيا. أما شركة فيرجينيا، التي وهبت الأراضي، فقد أفادت كثيرا من أهم الميزات التنافسية التي تمتعت بها أمريكا: رصيدها الذي لا ينضب من الأراضي الشاسعة.

وقنع المستوطنون من زُراع التبغ بأن يدفعوا تكلفة سفر هؤلاء الخدم المتعاقدين. إذ إن التبغ يعد محصولا يتطلب كثافة في اليد العاملة، وحين بدأت الكميات المخصصة للتصدير في الازدياد سريعا كان لا بدّ أيضا من زيادة سكان فيرجينيا بمعدلات كبيرة. وهنا تتبلور إحدى الخصائص الأخرى التي ستلازم الاقتصاد الأمريكي: نقص اليد العاملة.

لقد ساعد ازدهار صناعة التبغ في إنقاذ فيرجينيا، لكنه لم ينقذ شركة فيرجينيا. فإلى جانب ديونها الكبيرة، تكبدت الشركة - بعد هجوم الهنود الكبير في العام ١٦٢٢ - خسائر فاقت إمكاناتها. وفي العام ١٦٢٤ سحب الملك جيمس رخصة الشركة المفلسة ووضع يديه على فيرجينيا لتصبح إحدى مستعمرات التاج. وقد حمله نفوره من التبغ والتدخين على فرض الضرائب من دون تردد على هذه التجارة. ولقد أنشأ الملك جيمس احتكارا يضطلع بإشراف مباشر على هذه التجارة التي كانت تحقق نموا متصاعدا بعد الارتفاع الكبير في إنتاج فيرجينيا من التبغ واتساع حجم تجارتها باطراد مع إنجلترا وأوروبا. وبعد جيل آخر سيقدم التبغ ربع حصيلة ضرائب التاج.

أما سنة ١٦١٩ - حين كانت تجارة التبغ تغير وجه فيرجينيا واقتصادها - فستكون سنة حاسمة في تاريخ فيرجينيا وتاريخ البلاد، هذه البلاد التي ستصبح فيرجينيا جزءا منها في يوم من الأيام.

فمنذ تأسيس المستعمرة قبل اثنتي عشرة سنة كان الرجال هم أكثرية سكان جيمس تاون. حينها كانت شركة فيرجينيا تسعى إلى تأسيس مستعمرة آهلة في العالم الجديد. ولكن الشركة استقدمت في العام ١٦١٩ أول سفينة محملة بالنساء (تسعين تحديدا) إلى المستعمرة وقبلهن المستوطنون زوجات لقاء ١٢٥ رطل تبغ عن كل امرأة، بعد أن بقوا طويلا من دون زوجات. وعلى الفور بدأ مجتمع فيرجينيا يشهد تحولا حقيقيا. وبدأ

الطابع الذكوري الشبيه بمعسكرات عمال المناجم أو معسكرات الجيش المفتوحة ينحسر، ليحل مكانه تدريجيا مجتمع بشري أشبه بذاك الذي خلفه الفيرجينيون وراءهم في إنجلترا.

في تلك السنة أيضا أُسس أول مجلس نيابي في الشطر الغربي من الكرة الأرضية. وانتخب السير إيدوين سانديز أمينا لصندوق شركة فيرجينيا لذلك العام، مما جعله فعلا مديرها الأعلى. وقد عمل على الفور على إرسال حاكم جديد، هو السير جورج ييردلي، موصيا إياه بتشكيل مجلس نيابي يسمى رسميا مجلس النواب ليقوم الحاكم ومجلسه بمقام المجلس التشريعي الذي سيقر التشريع الجديد. هذا البرلمان المصغر عن ويستمنستر انعقد للمرة الأولى في الثلاثين من يوليو ١٦١٩ في كنيسة جيمس تاون.

وعلى الرغم من أن هذا الإنجاز يعتبر كبيرا بمعايير اليوم، فهو لم يكن كذلك حينها. فلطالما تمتع الإنجليز بحكومة تميزت عن غيرها من حكومات الدول الأوروبية في تدخلها المحدود في شؤون المواطن، كما كانت الحقوق الشخصية للمواطن الإنجليزي تفوق حقوق أقرانه في الدول الأوروبية - هذه الحقوق التي تجسدت في كلمة «الحرية» شهدت تطورا مستمرا منذ عهد الوثيقة العظمى Magna Carta (*). فقد اعتادت الطبقة العليا في المجتمع الإنجليزي تسيير شؤونها المحلية بنفسها، كما اعتادت أيضا المشاركة في برلمان عملت فيه يدا بيد مع الحاكم على سن قوانين وتشريعات البلد.

ولاستحالة إيجاد برلمان مشابه لبرلمان ويستمنستر في هذه البلاد الجديدة فإن إعطاء فيرجينيا تشريعها الخاص بإدارة شؤونها المحلية كان يعني شيئا واحدا فقط: إعطاء سكان فيرجينيا «حقوق المواطن الإنجليزي».

(لم يزر السير إيدوين سانديز فيرجينيا قط، لكن شقيقه جورج، وهو من الشعراء المرموقين، عاش هناك نحو عشر سنوات من ١٦٢١ إلى ١٦٣١، حين عمل أمينا لصندوق المستعمرة. وفي جيمس تاون نفسها كتب ترجمته لكتاب أوفيد (**) «المسوخ» Metamorphoses، أول جنس من الشعر الإنجليزي يكتب في العالم الجديد).

(*) الوثيقة العظمى Magna Carta: هي ميثاق موقع من الملك جون في العام ١٢١٥م، يؤكد على حقوق وواجبات النبلاء الإنجليز، وحدت من سلطات الملك، واعترفت بأن كل الناس بمن فيهم الحكومة والحكام مساءلون أمام القانون [المحرر].

(**) أوفيد: شاعر روماني (٤٣ ق. م - ١٧ ب. م)، يعتبر من أوسع الشعراء الرومان شهرة [المترجم].

وبعد ثلاثة أسابيع من أول اجتماع لمجلس النواب أبحرت سفينة هولندية إلى تشيزابيك، وكان في نية قائدها بيع حمولتها من الرجال إلى أصحاب المزارع التواقين إلى تأمين اليد العاملة اللازمة لحقول التبغ، والتي كانت مساحتها في ازدياد. ولم يكن في وصول السفينة ما يريب سوى أمر واحد: لم يصعد الرجال على ظهرها بمحض إرادتهم في الميناء الإنجليزي، بل اقتيدوا بالإكراه ليشتريهم قبطان السفينة.

وعلى الرغم من ذلك، فهم لم يكونوا عبيدا بالمعنى الدقيق للكلمة. إذ إن المزارعين بمن فيهم الحاكم - الذي وضع يده على معظم هؤلاء الرجال - لم يشتروهم، بل استأجروا جهدهم. وبعد أن ينهي هؤلاء الرجال آجال خدمتهم كانوا يغدون أحرارا مثل الخدم الإنجليز المتعاقدين. وبالفعل، فإن كثيرا من السود الذين نقلوا إلى فيرجينيا في السنوات الأولى من عمر المستعمرة قد نالوا حريتهم، وأصبحوا ملاكا لأراض وعقارات واسعة إلى درجة أن البعض منهم اشترى عبيدا للعمل في تلك الأملاك. وبالنظر إلى قصر العمر المتوقع للمهاجرين إلى فيرجينيا، فإن العبيد - الذين كانوا أعلى تكلفة - لم يمثلوا خيارا اقتصاديا مجديا كأقرانهم من الخدم المتعاقدين.

في العام ١٦٥٠، كان هناك فقط نحو ثلاثمائة من العبيد في فيرجينيا؛ أي أقل من ٢ في المائة من عدد السكان. وسينقضي عقد الستينيات قبل أن تكون هناك إشارة رسمية للرقيق الأسود في قانون فيرجينيا، وسيظل عدد الخدم المتعاقدين إلى ثمانينيات القرن السابع عشر يفوق عدد العبيد بأضعاف كثيرة. إلا أن تحسن الظروف الاقتصادية في إنجلترا التي خففت الضغط على المهاجرين، وارتفاع معدل العمر الوسطي في فيرجينيا مع توسع المستعمرة وتطورها أديا إلى زيادة أعداد العبيد على أعداد الخدم المتعاقدين بصفتهم المصدر الرئيس لليد العاملة. وتضاعف عدد العبيد في ثمانينيات القرن السابع عشر وتضاعف مرة أخرى في العقد التالي.

كانت تكلفة الخادم المتعاقد مع نهاية القرن السابع عشر نحو ١٥ جنيها مقابل أربع سنوات من الخدمة؛ في حين كان العبد الواحد يكلف ما بين ٢٥ و٣٠ جنيها مع التزامه والتزام أولاده من بعده بالعمل مدى الحياة. وبدأت أعداد العبيد السود بالتزايد نسبة إلى عدد السكان حتى أبلغت ١٤ في المائة في العام ١٧١٠.

إن من الصعب علينا، نحن الذين ننظر الآن إلى الحوادث بعد وقوعها، أن نفهم السبب الذي حمل الناس في القرن السابع عشر على عدم النظر إلى العبودية من زاوية أخلاقية. وسيشهد منتصف القرن الثامن عشر نشوء الأفكار التي رأت في العبودية عملا خارجا على الأخلاق في كل مكان وزمان. هذه الأفكار انتشرت سريعا عبر أوروبا وأمريكا، وسادت على الأقل في أوساط الفئات الاجتماعية التي لم تعتمد على عمل الرقيق، ذلك أن المصلحة الذاتية الاقتصادية تعتبر على الدوام عائقا أمام التفكير النزيه الذي يلزم لمعالجة النواحي الأخلاقية والسياسية لشأن من الشؤون.

وفي القرن السابع عشر، حين شعر أكثر الناس بأن الإرادة الإلهية هي التي تحدد المركز الاجتماعي للإنسان، اعتبرت العبودية شقاء مقدرا على فئة من الناس ولم تقابل بالإنكار والكراهية، كما هي حالها اليوم. ولم يكن هناك من يرى في العبودية والعرق صنوان متلازمان، على الأقل في ذلك الزمان. في منتصف القرن السابع عشر كان لدى رجل أسود اسمه أنتوني جونسون مزرعة للتبغ تبلغ مساحتها ٢٥٠ هكتارا على الساحل الشرقي لفيرجينيا وعبد واحد. وقد اعتبر نفسه مساويا لجيرانه الذين كانوا بدورهم لا ينكرون عليه ذلك. ولم يكن يتردد في الطلب إلى المحكمة إثبات حقوقه على العبد الهارب من الخدمة. فلقد كان القانون يكفل تلك الحقوق صراحة.

ومع تزايد أعداد العبيد السود بمعدلات ثابتة، سواء على نحو مطلق أو بالنسبة إلى تعداد السكان، في وقت بدأت تهبط فيه أرباح التبغ عن وحدة العمل الواحدة (العامل) مع بلوغ السوق حد الإشباع انقلب هذا الوضع. فالانتقادات اللاذعة التي وجهت ضد استغلال العبيد وتلك الصرخات التي كان يطلقها السود الأحرار تصاعدت مع تزايد المخاوف من وقوع حوادث التمرد، والحاجة الاقتصادية إلى حمل السود على تقديم مزيد من الجهد لخفض التكاليف. ومع بداية القرن الثامن عشر لم يعد يسمح للسود بالتجمهر في مجموعات تتجاوز أربعة أشخاص، وكان يطلب إليهم الحصول على رخصة خطية إذا ما أرادوا مغادرة المزارع التي أقاموا وعملوا فيها. وساعدت دوريات الشرطة المحلية على فرض القيود الجديدة، وتعزيز النظام والانضباط. حينها كتب أحد المزارعين، ويدعى ويليام بيرد، أن من الآثار

السلبية لامتلاك أعداد كبيرة من العبيد: «الحاجة إلى أن يكون المرء صارما. فالعدد الكبير يجعلهم خالعي العذار insolent، وبالتالي فإن الترهيب يصنع ما يعجز عنه الترغيب».

وقد أدى توسع البون الفاصل بين السود والبيض والقسوة المتزايدة في معاملة العبيد إلى تراجع الدعوات التي انطلقت بالمناداة باحترام وضعهم الاجتماعي وحالتهم الاقتصادية في نوع من العنصرية المستفحلة. وتحولت تلك العنصرية إلى سرطان دبَّ في النسيج السياسي للولايات المتحدة، وكلف استئصاله كثيرا من الأرواح والأموال. ودامت الحال كذلك طوال ثلاثمائة سنة لتبدأ بالانحسار في يومنا الحالي.

لم يكن هناك من مسوغ بالطبع لاستعباد السود، والعنصرية التي تجلى فيها هذا الاستعباد، واستخدام ذلك كأداة لاستئصال مشكلة اقتصادية مزمنة عانت منها أمريكا تجلت في نقص اليد العاملة. لكن ذلك يفسر هذا الواقع إلى حد ما. ويمكن القول إن أشد إساءة ارتكبناها في حق أنفسنا وأكبر فشل أخلاقي أصبناه كشعب قد وقعا عن حسن نية من دون تفكير في العواقب.

لقد ضمنت فيرجينيا إذن مصدر حياتها الاقتصادية بفضل نجاحها في زراعة وتصدير التبغ، وهكذا وجد أولئك القوم الذين يرطنون بالإنجليزية مقاما لهم في العالم الجديد.



2

باسم الله والربح

من حسنات منحنى التعلم الاقتصادي Learning Curve أن أي مجتمع لا يحتاج إلى أن يسلكه إلا مرة واحدة. ولم تعان مستعمرة من المستعمرات التي ستنضوي يوما تحت لواء الولايات المتحدة بقدر ما عانت فيرجينيا في الوصول إلى الانتعاش الاقتصادي.

إن ماريلاند المحاذية لفيرجينيا تأسست في العام ١٦٣٢ عندما منح الملك تشارلز الأول صديقه سيسيليوس كالفرت، لورد بالتيمور الثاني، نحو اثني عشر فدانا من الأرض شمال نهر بوتومان وجنوب خط الطول الرابع عشر. وعرفانا منه، أطلق كالفرت على المستعمرة الجديدة اسم زوجة تشارلز الملكة هينريتا ماريا. وهكذا كانت ماريلاند أول مستعمرة خاصة. ذلك أن مقاليد الحكم فيها كانت بيد شركة يملكها شخص واحد. وقد أمل بالتيمور في تأسيس مستعمرة يتسنى من خلالها لبني طائفته الكاثوليك الهرب من حال الضعف والعجز التي عانوا منها في إنجلترا، وبالطبع لتحقيق دخل

«باسم الرب والربح»
عبارة سجلها البيوريتانيون في مقدمة دفاترهم المحاسبية

جيد من أطيانه الشاسعة التي وصلت مساحتها إلى خمس مساحة إنجلترا. وقد وصلت أولى سفينتين محملتين بالمستعمرين - آرك Arc ودوف Dove - في العام ١٦٣٤.

أرسل بالتيمور أخاه الأصغر ليونارد كالفرت ليضطلع بمنصب الحاكم حيث يرأس حكومة تضاهي حكومة فيرجينيا. ومع أن الكاثوليك لم يمثلوا أغلبية السكان في ماريلاند، فإن قانون التسامح Tolerance Act الذي وضعه مجلس المستعمرة في العام ١٦٤٩ ضمن حقوق جميع المسيحيين (كما أن يهود المستعمرة - على الرغم من قلة عددهم واستثنائهم من قانون التسامح - لم يعاملوا بسوء). كان هذا أول تشريع من نوعه في التاريخ الأمريكي.

وأصابت ماريلاند ازدهارا سريعا. ولم يثر الهنود سكانها الأصليون أي مشاكل، أما أرضها الخصبة ومناخها الدافئ الرطب فكانا مناسبين تماما لزراعة التبغ الذي أصبح بفضل فيرجينيا مصدرا مهما للدخل والأرباح. كما أن إطلالة ماريلاند الواسعة على خليج تشيزابيك بخطوطها الساحلية شديدة التعرج قد وفرت لكثير من أراضيها إمكانات الشحن الرخيص.

وقد أسبغ كالفرت بسخاء حقوق الرأس Head Rights مع المهاجرين لتشجيعهم على الهجرة إلى المستعمرة، على الرغم من فرض أجرة إبراء Quitrent (*) قدرها ٤ شلنات عن كل ١٠٠ فدان. هذه الرسوم، في النظرية القانونية، كانت تعد من جملة المستحقات الإقطاعية. ولكنها في التطبيق العملي كانت ضرائب عقارية. وعلى غرار ما حدث في فيرجينيا، نشأت على الفور طبقة أرستقراطية إقطاعية landed gentry - ملاك عدة ألوف من الأفدنة - كان يقابلها أعداد أكبر من المزارعين العاديين middling planters. أما من لم يملك أرضا والخدم المستأجرون indentured (المكريين) فشكلوا باقي فئات طلائع السكان في وقت بدأ فيه الرق - كما في فيرجينيا - بالانتشار تدريجيا مع التطور الذي شهده الاقتصاد الزراعي (اقتصاد المزارع).

(*) أجرة الإبراء: رسم إذا أداه المستأجر لمالك العقار خلا طرفه من كل أجرة عليه لهذا المالك. وقديما، إذا أدى الحائز هذه الأجرة فإنه يعفى من القيام بأي خدمة تقتضيها الحيازة تجاه المالك [المترجم].

كما استمدت مستعمرة جنوبية أخرى من مستعمرات القرن السابع عشر – وهي كاليفورنيا – اسمها من الملك تشارلز الثاني الذي منحها لمجموعة من ثمانية من ذوي الحظوة لديه أطلق عليهم اللوردات الملاك Lords Proprietor، لكن الرغبة في تأسيس مستعمرة جديدة لم يكن منبعها إنجلترا بل الأنديز الغربية البريطانية، خصوصا باربادوس.

ومع حلول العام ١٦٧٠، كان السُكّر قد هيمن على اقتصادات مجموعة الجزر الصغرى نسبيا، التي تمتد شمال أمريكا الجنوبية قبل أن تنعطف غربا باتجاه جزيرة إسبانية تكبرها كثيرا، هي بورتوريكو. لقد تعرضت هذه الجزر لإهمال كبير من قبل الإسبان الذين لم يروا فيها سوى جزر بالغة الصغر لا تستحق منهم أن يلتفتوا إليها. وهذا ما سمح للقراصنة البريطانيين والفرنسيين والهولنديين بوضع أيديهم عليها واستخدامها قواعد لمهاجمة السفن الإسبانية. ومع ذلك، وفي الثلث الأوسط من القرن السابع عشر، بدأت الجزر تشهد استقرارا وذلك باتخاذ السكان الدائمين الزراعة مهنة لهم، وخصوصا زراعة التبغ، وبدأت الدول المختلفة تولي اهتماما للنفوذ السياسي.

في البداية اجتذبت الأنديز الغربية مستوطنين أكثر مما اجتذبته أمريكا الشمالية، وفي العام ١٦٥٠ فاق عدد المهاجرين الإنجليز الذين استقروا في الأنتيل الصغرى عدد المهاجرين إلى نيوإنغلاند وتشيزبيك مجتمعتين. لكن التشيزبيك تفوقت على الأنديز في إنتاج التبغ وكانت الجزر في حاجة إلى محصول جديد. ووجدت مبتغاها في السكر. ذلك أن شهية أوروبا لهذا المنتج المستخرج من قصب السكر لا تُشبع. والقصب نبات استوائي مصدره بولينيزيا لكنه في القرن السادس عشر كان يزرع على نطاق واسع في مناطق حوض البحر المتوسط. ومع بدء الأوروبيين باكتشاف الأطلسي أدخلت البرتغال وإسبانيا إنتاج السكر إلى جزرها الجديدة مثل ماديرا Madeira والكناري.

ومن ثم أدخل البرتغاليون السكر إلى البرازيل ونقله الإسبان إلى جزر الأنتيل الكبرى. كما جلبوا معهم الرق الأسود إلى الأمريكتين. ذلك أن السكر محصول يتطلب عملا شاقا تحت الشمس الاستوائية، كما أنه يتطلب رأس مال يفوق ما تحتاج إليه معظم محاصيل المزارع، وذلك لشراء المعدات والأبنية اللازمة لمعالجة عصارة القصب وتحويلها إلى سكر.

كان استهلاك أوروبا من السكر يتزايد بمعدل ٥ في المائة تقريبا في العام، مما ضاعف الطلب كل أربع عشرة سنة بالمتوسط. وأصبح السكر - الذي كان يلقى التمويل اللازم ووصل إنتاجه إلى مستوى كاف لتحقيق وفورات الحجم - واحدا من أكثر المحاصيل ربحية في تاريخ العالم، وهذا ما جعل كبار مزارعي السكر يصيبون ثراء فاحشا.

وبالنتيجة، عندما وصل إنتاج السكر إلى باربادوس التي تصل مساحتها إلى ١٦٦ ميلا مربعا فقط والمكتظة أصلا بسكانها من المستوطنين الأوروبيين، اندلع تنافس محموم بين ملاك الأراضي لحيازة أراض تضمن لهم أكبر ربح ممكن من إنتاج السكر. وبين العامين ١٦٤٣ و١٦٧٠ انخفض عدد ملاك الأراضي التي تزيد مساحتها على مائة فدان بنحو الثلثين.

ورغبت مجموعة اللوردات الملاك في كارولينا (لن تنقسم المستعمرة رسميا إلى شطرين شمالي وجنوبي حتى العام ١٧١٢) في جعل مستعمرتها الجديدة في البر الأمريكي مأهولة برجال ما عادوا قادرين على كسب قوتهم في باربادوس. وفي العام ١٦٧٠ نجحوا في اجتذاب مائتين من هؤلاء الرجال بفضل عروضهم السخية من الأراضي، حيث قدموا ١٥٠ فدانا لكل عضو من أعضاء العائلة الواحدة لقاء أجور إبراء بسيطة لن تجبى حتى العام ١٦٨٩، وقدموا ١٥٠ فدانا أخرى عن كل عبد مجلوب إلى البلاد.

كما خرجوا بدستور رسمي كان قد وضعه لكاليفورنيا أحد اللوردات الملاك، وهو لورد أشلي الذي أصبح مباشرة إيرل شافتسبيري. وحصل آشلي - رغبة منه في طمأنة نفسه - على قدر كبير من المساعدة من سكرتيره الخاص الفيلسوف السياسي جون لوك - الذي ستلهم كتاباته الآباء المؤسسين بعد قرن من ذلك التاريخ. ومنح الدستور الجديد الحرية الدينية لكل أصحاب العقائد وأسس مجلسا كانت بيده السلطات الضريبية المحلية. واعترف الدستور أيضا بوجود طبقتين من النبلاء: اللاندغريف Landgraves والكاسيكس Caciques (*) الذين كانوا يوهبون أراضي شاسعة (ثمانية وأربعون ألف فدان وأربعة وعشرون ألف فدان على التوالي).

(*) القادة أو الرؤساء [المترجم].

لا عجب إذن ألا يستمر طويلا في صراعه مع الواقع ذلك «المخطط الاستثنائي بتشكيل حكومة أرستقراطية في مستعمرة من المغامرين وسط الغابات والهمج ووحوش الفلاة» على حد تعبير المؤرخ الكاروليني الجنوبي إدوارد مكراري. لكن كارولينا الجنوبية ستصبح أكثر المستعمرات الأمريكية أرستقراطية. وقد عينت مجموعة اللوردات الملاك المزارع الباربادوسي السير جون يمانز أول حاكم لها، وهو الذي شق طريقه من دون هوادة إلى قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي في باربادوس وذلك بقتل منافسه ثم الزواج من أرملته. وقد قال عنه أحد اللوردات الملاك: «لو كان استحواذ كل شيء في سبيل الربح الشخصي علامة على القدرة والكفاءة، لكان السير جون بلا ريب رجل حكمة كبيرا».

ونشأ تجمع بشري مزدهر في تشارلز تاون (اختصر الاسم في العام ١٧٨٣ إلى تشارلستون) حيث يلتقي نهرا أشلي وكوبر (ينسب الاسم إلى اللورد شافتسبيري الذي كان اسم عائلته أشلي كوبر) في مرفأ تشارلستون. ومع حلول العام ١٧٠٠، بلغ عدد سكان المستعمرة نحو ستة آلاف وستمائة (ثلاثة آلاف وثمانمائة من البيض وألفان وثمانمائة من السود).

في بادئ الأمر، كان اقتصاد المستعمرة - الممتدة شمالا بما لا يسمح بزراعة السكر - يعتمد على التجارة مع هنود المناطق الداخلية. وكانت جبال الأبالاتشيان - وهي حاجز طبيعي هائل في الشمال الأقصى- تنتهي إلى هضاب صغيرة في منطقة تعرف اليوم بجورجيا الشمالية، وكان هذا يتيح للتجار بلوغ أعماق المناطق الداخلية. ونرى حاكم كارولينا العام ١٧٠٧ يفاخر بأن «تجارة تشارلز تاون تمتد بعمق ١٠٠٠ ميل داخل القارة».

وكانت المنطقة تمتد إلى الجنوب الأقصى بما لا يسمح لها بإنتاج فرو عالي الجودة، ولكن الهنود فيها باعوا جلود الرنة - التي كانت تشحن إلى أوروبا لتدخل في صناعة جلود الكتب والأحزمة والقفازات وكل ما تحتاج صناعته إلى جلود ناعمة وطرية - وذلك في مقابل الملاءات والألبسة والعدد المعدنية والأسلحة والذخائر والرم والخرز وغيرها من الصناعات التي اشتهرت بها أوروبا. لم تكن تلك التجارة بالتجارة الصغيرة. فالرنة كانت متوافرة بأعداد كبيرة، وقد تسنى للصيادين الهنود بفضل تلك الأسلحة قتل أعداد أكبر من قبل، وساعدت لحوم الرنة على توفير

الاستقرار الغذائي للسكان. وبين العامين ١٦٩٩ و١٧١٥ صدّرت كاليفورنيا في المتوسط ثلاثة وخمسين ألفا من جلود الرنة سنويا إلى إنجلترا بقيمة ٣٠ ألف جنيه.

كان هناك طلب كبير في الأنديز الغربية على أخشاب الصنوبر المتوافرة بكثرة في المستوطنة، وكانت هذه الأخشاب مصدرا للمشتقات الصمغية naval stores كالقطران. وصدرت كارولينا في العام ١٧١٧ أربعة وأربعين ألف برميل من القطران.

كما أصبحت الماشية سلعة أساسية من سلع التصدير، وخصوصا إلى الأنديز الغربية، حيث كانت كل بوصة من الأرض تستخدم لزراعة محصول قصب السكر الذي يدر أرباحا كبيرة. وانتشرت تربية الماشية والخنازير في الأراضي والغابات الواطئة التي تكثر فيها المراعي والسباخ. وكان العبيد السود الذين تعلموا أصول رعي الحيوانات في أفريقيا يرعون هذه القطعان التي كانت تطلق من دون قيد في الأراضي غير المأهولة من المستعمرة. إن العديد من مهارات رعي الماشية التي التصقت تاريخيا بالغرب مثل وسم الماشية والطراد السنوي وسياقة الماشية إنما ظهرت أولا في كارولينا الجنوبية في أول عهدها. حتى أن الكلمة الأمريكية الشهيرة «كاوبوي» إنما أطلقت بادئ الأمر على العبيد السود الذين رعوا الماشية في كارولينا أيام كانت مستعمرة.

ولكن الفضل في قيام اقتصاد كارولينا يعود إلى الأرز. إذ يعتقد أنه أدخل إليها في العقد الأخير من القرن السابع عشر (١٦٩٠) على يد واحد من اللاندغريف الأوائل، وهو توماس سميث Thomas Smith، لكن أصول زراعته التي تحتاج إلى خبرة كبيرة أخذت عن العبيد الذين اشتغلوا في زراعته في غربي أفريقيا. لقد كانت السبخات، التي تشكلت من حركة المد العالية في أراضي كارولينا المنخفضة، والتي وقفت سدا في وجه المياه الجارية، كانت مناسبة تماما لزراعة الأرز، وبدورها شكلت الأنديز الغربية والمستعمرات الشمالية وإنجلترا سوقا كبيرة. وكانت النتيجة ثروات طائلة bonanza، لقد صدرت كارولينا أربعمائة ألف رطل من الأرز في العام ١٧٠٠ وبعدها بأربعين سنة وصلت صادراتها إلى ثلاثة وأربعين مليون رطل. إن من يطلق عليهم ملوك الأرز Rice Kings، وهم عائلات من قبيل

ميدلتون Middleton وبول Ball، أصبحوا أغنى الأغنياء الإنجليز في أمريكا الشمالية حين أضافت محاصيل الأرز في كارولينا نحو مليون جنيه استرليني سنويا إلى الناتج المحلي الإجمالي للإمبراطورية البريطانية.

وفي ما بعد أصبحت النيلة المحصول الثاني الأكثر ربحية. والنيلة نبات يفرز صبغا أزرق اللون وكان الطلب عليه مرتفعا بفضل صناعة الملابس البريطانية التي شهدت ازدهارا في تلك الأيام. والتي أطلقت الثورة الصناعية في الثلث الأوسط من القرن الثامن عشر. وقد ساعدت النيلة والأرز والخشب والماشية على جعل تشارلز تاون أكثر الموانئ حركة في مستوطنات الجنوب وكبرى مدنها، والتي ازدانت بكثرة بمنازل التجار والمزارعين الأثرياء والكنائس والمؤسسات التي بنوها مثل مكتبة تشارلستون، ثالثة أقدم مكتبة عامة في الولايات المتحدة.

ولأن مستوطنتي كارولينا وتشيزابيك وجدتا المحاصيل التي يرتفع عليها الطلب في أسواق التصدير، فقد تمكنت من إنتاجها بتكاليف أقل من تكاليف إنتاجها في أي مكان آخر، وقد تطورت هاتان المستوطنتان كثيرا كاقتصادات مزارع Plantation Economy، وبفضل وفورات الحجم Economics of Scale، صارت محاصيل التصدير تلك تنتج بكميات أكبر في قطاعات كبيرة من الأراضي التي تعمل بها أعداد هائلة من العبيد السود. وهذا ما أفضى بدوره إلى انقسامات حادة في المجتمع تمثلت في نشوء طبقة غنية قليلة العدد من كبار المزارعين الذين هيمنوا على المزارعين العاديين والأحرار من غير ملاك الأراضي، وهذا ما أدى بالتالي إلى انقسامات سياسية في كل مستعمرة.

لقد عجزت اقتصادات المزارع عموما - التي تعتمد أساسا على محصول أو اثنين مدرين للربح - عن بناء الأركان الأخرى التي يقوم عليها اقتصاد متكامل. وكانت تشارلستون الموقع الوحيد في الجنوب الذي استحق أن يسمى مدينة، حتى إن كان ذلك بمعايير مستعمرات ذلك الزمن. لقد تردى التصنيع المحلي من جراء تخصيص الموارد للمحاصيل المربحة، وبالتالي كانت المستعمرات الجنوبية تعتمد على استيراد السلع والأغذية اللازمة من إنجلترا ونيوإنغلاند التي سلكت طريقا مغايرا تماما بسبب عدم وجود محصول مدر للربح تعتمد عليه.

لم تؤسس نيوإنغلاند من قبل رجال مهتمين بالمغامرة والكسب، بل كان المبرر الأهم للاستقرار في تلك البقعة هو بناء «مدينة على هضبة»، حيث يمكن للقديسين - الذين كتب الله لهم النجاة - العيش بعيدا عن مضايقات الفساد والانحلال، متبعين وصايا الرب.

لكن تلك المدينة - بالتأكيد - مازالت اليوم مشروعا قيد التنفيذ بعد مرور نحو أربعمائة عام. وحتى القديسون أنفسهم كانوا في حاجة - على المدى القصير - إلى الطعام وشراء الحاجيات الأساسية ودفع أجرة عبور المحيط لتأسيس أورشليم الجديدة في ما أطلق عليه أحد التطهيريين (*) (البيوريتان) «الفلاة المقفرة». ولم يكن التطهيريون على الأقل معارضين للازدهار والرخاء في هذا العالم مادامت عبادة الرب تأتي في المقام الأول. لقد اعتبروا ذلك في الحقيقة دليلا على فضل الله، وإشارة على خلاص الفرد - وهكذا سيكتب تجار القرنين السادس عشر والسابع عشر- وكثير منهم تطهيريون - في مقدمة دفاترهم المحاسبية العبارة التالية: «باسم الرب والربح».

لقد زاد هؤلاء فرصهم الخاصة بتحقيق الازدهار أيضا من خلال اعتقاد راسخ بأن البطالة (التعطل) هي مصنع الشيطان. وعملوا وفق هذا المبدأ. فلقد كان البيوريتانيون دائما منكبين على العمل. حتى أن الكاتب المسرحي اليعقوبي بن جونسون Ben Jonson أعطى شخصية بيوريتانية هزلية في مسرحية «معرض بارثولوميو» اسما مناسبا تماما: «الورع المشغول» .Zeal-of-the-land busy

ولم تكن نيوإنغلاند مثل المستعمرات الجنوبية، من نواح عديدة إلى جانب الدافع الأول وراء تأسيسها. فالمناخ كان أبرد (لكنه بالمقابل كان أفضل للصحة)، وكان موسم الزراعة قصيرا. كانت التربة صخرية وسطحية، وقد جردت الأرض من كثير من قشرتها حتى بلغت الصخر الأم بفعل حركة المجلدات في العصر الجليدي. (لقد شكلت التربة التي جرفتها المجلدة من نيوإنغلاند ما يعرف الآن بلونغ آيلاند ومارثا فينيارد ونانتكيت وكيب كود).

(*) التطهيري: عضو في جماعة بروتستانية في إنجلترا ونيو إنغلاند في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تدعو إلى تبسيط طقوس العبادة والتمسك الصارم بالفضيلة [المترجم].

ولم يكن ثمة عوامل مشتركة بين المهاجرين الأوائل باستثناء أنهم إنجليز. وقد جاء المهاجرون إلى فرجينيا وماري لاند أساسا من جنوب إنجلترا وكان معظمهم فقراء مدقعين، بينما كان قلة منهم يتحدرون من عائلات غنية ذات أطيان. وقد تركزت هجرات البيوريتانيين على أيست أنجليا وهي أراض زراعية منبسطة وخصبة تمتد إلى بحر الشمال في شمال شرقي لندن، ومن هوم كاونتي - أكثر بقاع ذلك البلد تطورا من الناحية التجارية. كما أن كثيرا من البيوريتانيين كانوا ممن يطلق عليهم اليوم الطبقة الوسطى: ملاك أرض صغار أو مزارعون مستأجرون أو أصحاب حوانيت أو أرباب حرف يدوية، إلى جانب عدد لا بأس به من المهندسين والأطباء والمحامين وبخاصة رجال الدين.

ولأن كثيرا من المهاجرين إليها كانوا من الطبقة الوسطى وآمنوا كثيرا بتلاوة الإنجيل، فقد كانت معدلات الأمية في نيوإنغلاند أدنى المعدلات في العالم الغربي في القرن السابع عشر. وعندما تأسست مدن جديدة - وبوقع سريع - كان بناء المدارس جاريا على قدم وساق مع بناء الكنائس، وقد أسست مستعمرة خليج ماساتشوستس كلية هارفارد بعد ست سنوات فقط من وصول المستوطنين إلى بوسطن، فسبقت بذلك كلية فيرجينيا «ويليام وماري» بأكثر من نصف قرن. وكانت إحدى دور الطباعة تمارس عملها في بوسطن في العام ١٦٤٠.

لقد استطاع معظم المهاجرين إلى نيوإنغلاند دفع تكاليف الرحلة وإحضار عائلاتهم معهم حين وفدوا إليها. لكنهم لم يجلبوا معهم إلا أعدادا قليلة نسبيا من الخدم المستأجرين واستوردوا أيضا بعض العبيد، على الرغم من أن الرق لم يكن منافيا لعقائدهم الدينية الصارمة. وبينما كانت نسبة الرجال إلى النساء في فيرجينيا في أول الأمر أربعة لواحدة، فقد كانت في نيوإنغلاند ستة إلى أربع. وبفضل هذا التوازن الأقرب إلى المستوى بين الرجال والنساء، لم تمر نيوإنغلاند بمرحلة «الفلاة الغربية» wildwest قبل استقرارها. كما أن الالتزام الديني العميق لدى معظم المستوطنين الأوائل والقيادة الصارمة لدى رجال من مثل جون وينثروب وويليام برادفورد ضمنا احترام المجتمع لحكم القانون على نحو أفضل مما بلغته المستوطنات الجنوبية.

ولأن استقرار العائلات هناك كان سهلا جدا وكان المناخ الصحي يساعد على أن يبقى عدد أكبر من الأطفال على قيد الحياة حتى سن الرشد، فقد تزايد عدد سكان نيوإنغلاند بمعدلات كبيرة. لقد هاجر نحو واحد وعشرين ألف شخص فقط إلى نيوإنغلاند في القرن السابع عشر، لكن عدد السكان بلغ مع نهاية القرن واحدا وتسعين ألف نسمة، كان هذا هو عدد السكان البيض في تشيزبيك التي وصلتها أعداد أكبر من المهاجرين.

ولقد تأسست مستعمرتا بليموث وخليج ماساتشوستس على يد شركات مساهمة. وعرف أعضاء هذه الشركات الذين قدموا إلى نيوإنغلاند كمزارعين. أما أولئك الذين بقوا في إنجلترا واستثمروا أموالهم في المشروع فسموا بالمغامرين. هذه الكلمة لا تزال تتردد اليوم في مصطلح الرأسمالي المغامر venture capital.

هؤلاء المغامرون، مع حرصهم كغيرهم على بناء أورشليم الجديدة، كانوا يأملون في تحقيق عائد على استثماراتهم بأقصر زمن ممكن. وعندما عادت سفينة ماي فلور May Flower إلى إنجلترا في ربيع العام ١٦٢١ بالصابورة in ballast (*) كتب مديرو الشركة إلى الحاكم برادفورد خطابا يحثونه فيه على عدم إرسال شحنة من السلع المخصصة للبيع في طريق العودة. لقد أدت التربة الصخرية في نيوإنغلاند إلى استبعاد التفكير في إيجاد محصول مربح كالتبغ، ولن تنتج الزراعة في نيوإنغلاند أي محاصيل للتصدير بكميات كبيرة، على الرغم من أن نيوإنغلاند كانت تصدر الأغنام إلى الإنديز الغربية. لكن، وإن كانت التربة غير صالحة للزراعة، فإن البحار المحيطة كانت غنية بالإمكانات.

لقد اكتشف القبطان جون سميث سواحل نيوإنغلاند في العام ١٦١٤ وأطلق على المنطقة اسمه. وكان كما الحال دائما يأمل في العثور على الذهب. وعندما أخفق في ذلك، أرسل رجالا لصيد سمك القد.

والقد هو نوع من السمك يمكن أن يصل وزنه إلى مائتي رطل، وكان من المأكولات الأوروبية الشائعة على مر قرون. ويمكن تخزينه أشهرا بعد تجفيفه وتمليحه. وكان من المصادر الأساسية للبروتين الحيواني. وفي أوروبا كثرت مزارع تربيته في بحر الشمال إلى الغرب من أيسلاند. ومن

(*) الصابورة: ما يوضع في بطن السفينة من ثقل، ليمنعها من أن تميد على أحد جانبيها [المترجم].

ثم اكتشف الصيادون الباسكيون مناطق أغنى بهذه الأسماك قبالة الساحل الشرقي للولايات المتحدة. ويفضل القد المياه الضحلة نسبيا، وتوفر الضفاف الواقعة في نيوإنغلاند وعلى ساحل الأطلسي لكندا مناطق واسعة من المياه الضحلة. وبالإضافة إلى ذلك يلتقي تيار أربرادور البارد المتدفق جنوبا وتيار الخليج الدافئ المتدفق شمالا، مما يعكر صفو المياه ويطلق فيها كميات كبيرة من الغذاء. أما النتيجة فهي مرتع خصب للقد يعد أغنى مزارع الأسماك في العالم.

كان يعيش في نيوإنغلاند صيادو سمك إنجليز قبل بدء هجرة البيوريتانيين في العام ١٦٢٠، وذلك في قرى ماين Maine ونيوهامشير وماساتشوستس شمال بوسطن، وتحديدا قرى ماربلهيد Marblehead وغلوشستر التي لاتزال حتى اليوم موانئ تشتهر بصيد الأسماك. معظم هؤلاء الصيادين لم يكونوا من البوريتانيين، بل من السوقة التي هي فئة أقل حظا بالتعليم وأقل تدينا. ولن يكون لماربلهيد - التي كثرت فيها الحانات - كنيستها الخاصة حتى العام ١٦٨٤، وقد صار القد الذي كانوا يصطادونه عماد اقتصاد نيوإنغلاند حقا. وفي العام ١٦٤١، حين مزقت الحرب الأهلية أوصال الاقتصاد البريطاني، أرسلت نيوإنغلاند ستمائة ألف رطل من القد المجفف إلى أوروبا والإنديز الغربية. وبعد ثلاثين عاما وصلت صادرات نيوإنغلاند من القد إلى ستة ملايين رطل.

إن لأي فعل في أي نظام إيكولوجي - كالاقتصاد - آثارا جانبية غير متوقعة تصيب أجزاء أخرى منه. وهذه الآثار إما أن تكون سلبية أو إيجابية. لكنها كانت - والحال كذلك - إيجابية تماما. فالكميات الكبيرة من مخلفات القد - الجلود والعظام والرؤوس والأمعاء المتخلفة عن عملية المعالجة - كانت تنثر في حقول إنجلترا لتسميد الأرض مما زاد إنتاجية التربة كثيرا.

لكن القد لم يكن المنتج المهيمن على اقتصاد نيوإنغلاند، كما هيمن التبغ على اقتصاد فيرجينيا. فلقد كان سلعة التصدير الأساسية لكن ليس الوحيدة لأن اقتصاد نيوإنغلاند أصبح الأكثر تنوعا في أمريكا الشمالية التي حل بها البريطانيون. فإلى جانب القد صدرت نيوإنغلاند الخشب وصواري السفن والصابون والزبدة والجبن وكل ما فاض عن حاجة مزارعيها من إنتاجهم من القمح والبازلاء والشوفان والمحاصيل الأخرى.

وأصبح الخشب أكثر محاصيل نيوإنغلاند ربحية وأول القطاعات الاقتصادية الأساسية فيها. وفي العام ١٦٥٥ كان ثمة أكثر من عشرين منشرة للخشب على نهر بيسكاتاكوا Piscataqua في نيوهامشير. وفي العام ١٧٠٥ وصل عددها إلى سبعين. وكان هناك كثير منها على أنهار نيوهامشير الأخرى. ومع نهاية المرحلة الاستيطانية سيصبح الخشب واحدا من أعظم صادرات أمريكا الشمالية.

وبين العامين ١٧٧١ و١٧٧٣ صدرت نيوإنغلاند فقط إلى الأنديز الغربية التي استوطنها البريطانيون سبعة وسبعين مليون قدم مسطح من الخشب وستين مليون ضلع برميل Barrel stave.

وكان من أهم استخدامات أخشاب نيوإنغلاند بناء السفن اللازمة لشحن المنتجات الأخرى. ومع نهاية القرن السابع عشر، أصبحت نيوإنغلاند واحدة من أكبر مناطق بناء السفن في العالم، مما خلف آثارا عظيمة في الاقتصاد برمته. إن بناء السفن يعتبر عملا بالغ التعقيد، ويتطلب كثيرا من العمال ذوي المهارات العالية في عدد من الصناعات والحرف كالحدادة وصناعة الأشرعة والحبال وتقطيع الخشب وصناعة البراميل. وقد تتطلب سفينة كبيرة بمعايير القرن السابع عشر تضافر جهود مائتي عامل أو أكثر.

وبينما كانت أجور العمل في نيوإنغلاند تفوق تلك التي في إنجلترا بسبب ارتفاع حدة المنافسة على عمل الفلاحين artisan، فقد كانت تكاليف المواد الخام فيها أقل كثيرا، خصوصا تلك التي تتعلق بالمكون الرئيس للسفينة ألا وهو الخشب. وبالنتيجة، كانت تكلفة بناء السفينة في نيوإنغلاند أقل بمقدار النصف مما ينفق على بنائها في إنجلترا. وفي السنوات الأربعين بين العامين ١٦٧٤ و١٧١٤، بلغ متوسط ما أنتجته بوسطن سنويا من السفن أربعين سفينة، أي ما يتجاوز إنتاج باقي مستعمرات أمريكا الشمالية مجتمعة. وفي الحقيقة كانت بوسطن أكبر مركز لبناء السفن في الإمبراطورية البريطانية بعد لندن، إذ وصل عدد المسافن (*) العاملة فيها في العام ١٧٠٠ إلى خمسة عشر مسفنا.

ولم يكن سكان نيوإنغلاند بناة سفن وحسب، بل صاروا بعد مدة وجيزة من كبار أصحاب السفن أيضا. وفي العام ١٧٠٠ لم يتفوق على بوسطن في الشحن البحري سوى ميناء لندن وميناء بريستول في طول الإمبراطورية

(*) المسفن: موضع بناء السفن وترميمها [المترجم].

البريطانية وعرضها. وامتدت تجارة الشحن التي طورتها نيوإنغلاند عبر شمال الأطلسي والمتوسط والكاريبي وماسواها. ولم تتحصر الشحنات في منتجات نيوإنغلاند ووارداتها.

ويمكن القول إن اسم نيوإنغلاند كان مناسبا جدا من الناحية الاقتصادية، لأن اقتصادها كان الأكثر شبها باقتصاد إنجلترا من بين كل المستوطنات البريطانية في أمريكا الشمالية. وبفضل أسطول الصيد الكبير وصناعة السفن فيها لم يكن لدى إنجلترا حاجة كبيرة في المنتجات الأساسية لنيوإنغلاند. لكن حاجة نيوإنغلاند للسلع الصناعية البريطانية كانت في ازدياد مطرد. واستجابة لذلك نشأت عدة تجارات «ثلاثية» triangle trades، فقد صدرت نيوإنغلاند الخشب والسمك واللحوم إلى الأنديز الغربية لقاء الحصول على السكر والملح وصدرت تلك السلع إلى بريطانيا مقابل السلع الصناعية وخصوصا النسيج والمعدات hardware التي كانت تباع من ثم في نيوإنغلاند. وكان دبس السكر الذي ينتج في الهند الغربية يستقطر في نيوإنغلاند لإنتاج الرم ثم يرسل إلى أفريقيا لمقايضته بالعبيد. ثم كان العبيد يباعون في الأنديز الغربية. وكانت نيوإنغلاند تقايض السمك مع إسبانيا والبرتغال مقابل النبيذ والفاكهة، التي كانت تباع في بريطانيا ويشترى بثمنها سلع صناعية. وحملت سفن نيوإنغلاند كثيرا من منتجات كارولينا والتشيزبيك إلى أوروبا والأنديز الغربية. وقد سعى تجار نيوإنغلاند - الذين يمموا وجوههم حيثما سنحت الفرصة، كدأب التجار عموما - إلى الشراء بأثمان منخفضة والبيع بأسعار مرتفعة. وكسبوا بذلك سمعة كانوا أهلا لها. ويمكن تلمس نجاحهم اليوم في البيوت العظيمة التي شيدها التجار الأثرياء في كثير من المرافئ البحرية في نيوإنغلاند.

ومع أن نيوإنغلاند نجحت في تطوير أكثر الاقتصادات تنوعا في أمريكا الشمالية، فإنها كانت لا تزال في حاجة إلى استيراد معظم السلع المصنعة. ولم تكن بريطانيا قد أصبحت بعد «ورشة العالم الصناعية»، لكنها كانت في طريقها إلى ذلك مع بدء أولى بوادر الثورة الصناعية.

ومن جملة أشد احتياجات نيوإنغلاند، المنتجات الحديدية التي كانت مادة أساسية في كل النشاطات الاقتصادية تقريبا. والحديد هو من أكثر العناصر وفرة في العالم، لكن النحاس مع ذلك كان أول معدن

استـخـدم على أسـاس منتظم. وذلك لأن النحـاس أكـثـر لدانـة في الصناعـة، إذ إن درجـة انصهـاره يمكن بلوغـها باسـتخدام النار العـادية، كما أن بعض فلزات النحاس تعطي لدى تسخينها نحاسا خالصا من دون الحاجة إلى مزيد معالجة.

لكن الحـديد لا يوجد في حالة نقيـة إلا نادرا جدا في المذنبات لأنه عنصر شديد الفعالية الكيميائية وهذا سبب صدئه. إن درجة انصهار الحديد مرتفعة جدا مما يتطلب تقنيات خاصة - كالأكيار (مفردها كير) - لبلوغ تلك الدرجة. وعندما ينصهر لا بد لتخليصه من الشوائب، على سبيل المثال الكربون، من استخدام تقنيات هائلة الحجم في عملية الطرق. لذلك فإن الحديد يتطلب وجود منشأة صناعية، في حين أن النحاس الذي يحضره الحرفيartisan-ready يمكن انتاجه بتقنيات بسيطة جدا (يمكن أن تتوافر لكشافة الصبيان Boy Scout).

وفور ظهور التقنية اللازمة، في نحو العام ١٤٠٠ قبل الميلاد أصبح تفوق الحديد على النحاس والبرونز (الأقسى من النحاس) جليا جدا، ذلك أن الحديد أصبح من المستلزمات الأساسية للحضارة البشرية.

لم يكن لدى طلائع المستوطنين في أمريكا الشمالية من خيار سوى استيراد المسامير وحذوات الخيول والقدور والأوعية المعدنية والمحاريث والمئات من العدد والأدوات التي صارت من المتطلبات اليومية في القرن السابع عشر. ولأن أقرب مصادر مسبوكات الحديد كان على بعد إبحار لمدة شهرين، فقد كانت المنتجات الحديدية باهظة الثمن مما أعاق تطور اقتصادات المستعمرات.

لكن، وبعد سبع سنوات فقط من إبحار أسطول بقيادة جون وينثروب John Winthrop إلى خليج ماساتشوستس وتأسيس مستعمرة هناك، كان ابن وينثروب (جون) في طريق عودته إلى إنجلترا للإعداد لإنشاء ورش الحدادة في أرضه الجديدة.

كان آل وينثروب من عوائل النبلاء في سفولك Suffolk، وكان وينثروب محاميا زاول المهنة قبل أن يقبل منصب حاكم المستوطنات المزمع إنشاؤها. وكان هو من صاغ العبارة الأمريكية الباقية على مر السنين: «مدينة فوق

هضبة». وكان ابنه أيضا محاميا وصاحب اهتمامات كثيرة في العلوم والتجارة. وسينتخب في العام ١٦٦٤ زميلا للجمعية الملكية حديثة النشأة، وهو أول أمريكي يمنح هذا الشرف.

أما وينثروب الأصغر - الذي عمل نائبا لحاكم ماساتشوستس وحاكما لكونيكتيكت، فقد أسس متجرا للملح لتزويد المستعمرات الجديدة بإحدى السلع الأساسية التي كان استيرادها مكلفا جدا، لكنه كان يحتاج في تأسيس متجره هذا إلى أحد المستلزمات الاقتصادية التي لم تتوافر لديه في ذلك الحين: رأس المال. وكانت إنجلترا الوجهة الوحيدة التي أمل أن يحصل منها على رأس المال، وستكون إنجلترا مصدر كثير من رؤوس الأموال الأمريكية لفترة تتجاوز القرنين التاليين.

وقد يخيل للمرء أنه من الصعب جدا إقناع أرباب رأس المال بالاستثمار في مشروع صناعي ضخم يقام على بعد ثلاثة آلاف ميل في قلب البرية. لكن استقطاب رأس المال لتوظيفه في فكرة غير مسبوقة لا يتطلب إلا خطة عمل وقليل من الحقائق والمعلومات المقنعة ورجل تسويق لديه القدرة على الإقناع. وألمح وينثروب إلى ميزة نسبية كبيرة تتمتع بها أمريكا وهي الخشب. إن الفحم النباتي - وهو خشب يحرق في معزل عن الهواء حتى يتحول إلى كربون نقي - ضروري لإنتاج الحديد كضرورة فلز الحديد نفسه. وكانت غابات إنجلترا تعاني من أعمال قطع الأشجار وبمعدلات سريعة - وكان الفحم قد بدأ يتحول إلى الاستخدامات الصناعية. أما أمريكا فكانت تتمتع بمصادر غير محدودة من الأخشاب التي كانت في متناول الجميع بالمجان.

وقد رأى وينثروب أنه باستخدام المواد الأولية المتوافرة في أمريكا، يمكن لماساتشوستس أن تصنع المنتجات الحديدية التي يمكن بيعها بربح ليس في نيوإنغلاند وتشيزبيك فقط، بل في إنجلترا نفسها. ولا ريب في أن وينثروب كان مقنعا، إذ إنه نجح في جمع ١٠٠٠ جنيه من عدد من المستثمرين، ومنهم ليونيل توبلي أحد أشهر تجار الحديد في إنجلترا. وسيتسنى له في نهاية المطاف استثمار المبلغ كله، وقدره ١٥ ألف جنيه في المشروع. ولإدراك قيمة هذا المبلغ في ماساتشوستس في العقد الرابع من القرن السابع عشر (١٦٤٠)، يمكن أن نشير إلى أن أعلى مرتب سنوي في المستوطنة في العام

١٦٤٨ كان ٩٠ جنيها، كان يذهب إلى الكاهن زاكاري سيمس من تشارلستون (وهذا يعطينا صورة أكبر طبعا عن ماساتشوستس حيث تدفع أعلى المرتبات في المستعمرة إلى رجل دين).

لقد بحث وينثروب - الذي عاد إلى ماساتشوستس - عن مواقع يقيم فيها ورشات الحدادة تلك، وحصل «لجماعة المتعهدين» Company of Undertakers من الحكومة على احتكار إنتاج الحديد من المستعمرة لمدة إحدى وعشرين سنة اقترن بإعفاء ضريبي. ولسوء الطالع، اختار وينثروب موقعا سيئا لأول أفران الصهر في برينتري Braintree جنوب بوسطن حيث تبين عدم كفاية مصادر فلز الحديد والماء اللازم لإمداد الورشات بالطاقة.

ومع انشغال وينثروب بكثير من المشاريع واهتمامه المتزايد بكونيكتيكيت، حيث سيكون حاكما لها في السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته، فقد قررت الشركة استيراد الخبرات اللازمة، وهي سلعة سيعتمد هذا البلد على بريطانيا في الحصول عليها إلى ما بعد الاستقلال بسنوات طويلة، فقد استأجروا ريتشارد ليدر Richard Leader الذي كان ملما بشؤون إدارة تجارة الحديد ورتبوا أيضا لاستقدام عدد من الحدادين المهرة.

وأنشأ ليدر ورشات حدادة في لين Lynn شمال بوسطن في موقع مدينة سوغوس Saugus اليوم على ضفاف نهر سوغوس وفي العام ١٦٤٦، أي بعد مرور ستة عشر عاما من نزول جون وينثروب في سواحل أمريكا أول أمرة، كان أحد المشاريع الصناعية الكبرى قد دخل مرحلة التشغيل في ماساتشوستس. لكنه واجه بداية متعثرة بسبب الحوادث المتكررة مع سعي العمال المحليين لتعلم أصول مهنة صناعة الحديد الشاقة على الرغم من المخاطر المحدقة، المؤذية والقاتلة. وفي غضون ذلك، كان العمال المستقدمون إلى المستعمرة يثيرون مشكلاتهم الخاصة. ولم يندمج هؤلاء العمال - الذين وقع عليهم الاختيار لمهاراتهم وليس لولائهم للعمل كالصيادين - بسهولة في مجتمع ماساتشوستس. إذ تحفل سجلات محاكم لين في ذلك الحين بقضايا خاصة بالحدادين الذين سيقوا إلى المحاكم بتهم السكر والبغاء والتغيب عن الكنيسة وغيرها من الخطايا الأخرى المنافية لنظام العالم البيوريتاني.

وقد كتب د. روبرت تشايلد Robert Child – أحد المستثمرين الإنجليز الذي كان يزور بوسطن في ذلك الوقت – إلى وينثروب، في العام ١٦٤٧، متذمرا من أن «عمال الحدادة لدينا لم يحققوا لنا بعد أرباحا تذكر». غير أن مستثمرا آخر أشار إلى أن «لكل عمل جديد صعوباته». ومع ذلك، وفي نهاية صيف ١٦٤٨ كانت المطرقة التي تزن خمسمائة رطل – والمستودرة من إنجلترا لتقرن بدولاب المياه (الناعورة) الذي يستمد حركته من نهر سوغوس – تضرب بثبات فاصلة الشوائب عن الحديد المصهور، فكتب جون وينثروب الأب إلى ابنه أن «الفرن يصهر ثمانية أطنان في الأسبوع، وتضاهي بجودتها سبائك الحديد الذي تنتجه إسبانيا».

وكانت الصناعات الثقيلة قد دخلت أمريكا الشمالية. كما كانت ورش الحدادة في سوغوس آنذاك تكشف أيضا جانبا آخر من الازدهار الذي شهده الاقتصاد الأمريكي. ففي العام ١٦٤٦ حصل حداد من هذه الورشات – واسمه جوزيف جينكز – على براءة اختراع عن أداة وصفها بأنها «محركات للطواحين لتعمل بحركة الماء»، وذلك لتصنيع الأدوات المحدبة والمعقوفة كالمناجل. وربما كان هذا أول مثال عن «الفطنة الأمريكية» التي كانت سمة بارزة في الاقتصاد الأمريكي وأدهشت العالم أيضا منذ ذلك الحين.

وعلى الرغم من ذلك، وبينما كانت ورش حدادة Iron Works سوغوس تنتج كميات متزايدة من تماسيح الحديد pig iron والنواتج الأخرى المصنوعة منه، فإنها كانت لاتزال غير قادرة على توليد أرباح تذكر. وبدأ حملة الأسهم بالضغط لإحداث تغيير في الإنتاج والإدارة، آملين الانتقال بالورش إلى تحقيق الأرباح. لكن الوضع المالي استمر بالتدهور، وفي العام ١٦٥٣ تفجرت المشكلات بسيل من الدعاوى القضائية التي بلغت أسماع حاكم إنجلترا حينها أوليفر كرومل، اللورد الحامي Lord Protector.

وبينما كان المحامون منهمكين في جدالهم، تسرب العمال وانتقل كثير منهم إلى أعمال أخرى، منها ورشات الحدادة الجديدة التي أنشأها وينثروب الابن في كونيكتيكت. وفي العام ١٦٧٦ كانت أول ورشة حدادة في أمريكا قد انتهت إلى الزوال. والتمست مدينة لين إزالة السد لتعود أسماك الألويف (*) ثانية إلى أعالي النهر لتضع بيضها.

(*) سمك من فصيلة الرنكة [المترجم].

لكن إذا كـان أول مـشـروع صنـاعي في أمـريكا الشـمـاليـة قـد انتـهى إلى الفـشـل، فـإن الفكرة التي قـام عليـهـا – وهي إمكان تحـقـيق عـائد من إنتـاج الحـديد في المسـتـوطنـات الأمـريكيـة – كـانت سـديدة. ومع نهـاية عـصـر المستوطنات – بعد أربعمائة عام من ذلك التاريخ – كان إنتاج المستعمرات من تماسيح الحديد قد بلغ سُبع الإنتاج العالمي.

3

الإمبراطورية الأطلسية

أُسست نيويورك – مثلها مثل غيرها من مستعمرات نيوإنغلاند وفيرجينيا – على يد شركة تجارية. لكن شركة الهند الغربية الهولندية كانت أكبر حجما من تلك المشاريع الناشئة التي أسست المستوطنات الأخرى. فقد أنشئت في العام ١٦٢١، ومنحت احتكارا للتجارة في المنطقة الممتدة من جنوب أفريقيا إلى نيوفاوندلاند. وتأسست مستعمرة نيوفاوندلاند (هولندا الجديدة) على يد الشركة بتكلفة ٢٠ ألف جيلدر للاستفادة من إمكانات نهر هدسون (ويسميه الهولنديون نهر الشمال) في الحصول على الفرو الذي يرتفع الطلب عليه في أوروبا. وفي السنة الأولى، شحنت الشركة إلى أوروبا فروا بقيمة ٤٥ ألف جيلدر، وهذا ما ساعد كثيرا على استرداد تكلفة إنشاء المستوطنة.

وفي مطلع القرن السابع عشر، صار الاقتصاد الهولندي أكثر اقتصادات أوروبا تقدما وأكثر انفتاحا على آلية السوق. وقد ابتكر الهولنديون أو ارتقوا إلى مستويات جديدة من

«إن عصب الحروب مال لا ينضب»

سسيرو

بورصـات الأسـهم والسلع والتـأمين والحـوكـمـة المؤسـسـيـة corporate governance المتطورة. كـمـا كـانت الحكومـة الـهـولندية أكـثـر حكومـات أوروبا التـزامـا بالـتسـامح الديني. وترسـخت على الفـور روح الرأسـمـاليـة الهـولندية وحريتها الدينية في مستعمرتها الجديدة في شمال أمريكا. وعندما حاول الحاكم بيتر ستويفسانت - أحد أكثر الأعضاء المخلصين لكنيسة الإصلاح الهـولندية الكالفـينيـة - نفي الكويكرز Quakers (الأصـحـاب) واليـهـود من أمستردام الجديدة، رفع هؤلاء احتجاجهم إلى شركة الهند الغربية الهولندية في هولندا في وثيـقـة عـرفت باسم الاحـتـجـاج الصـارخ .Flushing وكـتـبت الشـركة مبـاشـرة إلى بيتـر سـتويفسـانت تدعوه بعبـارات حـازمـة إلى أن يهتم بشأنه ويدع الكويكرز واليهود لشأنهم.

وفي الأربعينيات من القرن السابع عشر، وبينما كان عدد السكان لايزال أقل من ألف نسمة، تميزت المدينة الصغيرة التي تقع على حافة جزيرة مانهاتن عن غيرها من مدن أمريكا الشمالية بروحها الكوزموبوليتانية (العالمية). وقد رصد كاهن فرنسي ما لا يقل عن ثماني عشرة لغة كانت تسمع في شوارع المدينة في ذلك العقد. وكل أولئك المواطنين الذين بلغوا ألفا تقريبا كانوا هناك سعيا وراء الكسب المادي. كما أن الهولنديين لم يسعوا إلى بناء كنيسة لهم لمدة سبع عشرة سنة. في الواقع كانت غاية الهولنديين من النزول في العالم الجديد جلية جدا. فلقـد حـمل شـعـار هولندا الجـديدة صـورة قندس داخل قـلادة من الـومـبم (*) Wampum، وهي العملة التي تعامل بها الهنود الحمر.

وفي أثناء سيطرة الهولنديين على منطقة هدسون أربعين عاما فقط، خلفوا أثرا عـمـيـقـا في المدينة التي أسـسـوها. وهي لاتزال أعظم المدن التـجـارية في العالم - وذلك بعد ٣٥٠ سنة تقريبا من سيطرة الإنجليز عليها في العام ١٦٦٤.

لقـد حل الكويكرز - كـمـا البـوريتـانيين - في أمـريكا الشـمـاليـة هـربا من الاضطهاد الديني. لكنهم - كالبوريتانيين أيضا - اعتبروا الازدهار الاقتصادي دليلا على رضا الله.

كـان ويليـام بين William Penn، ابن الأدمـيـرال ويليـام بين - صـاحب الأمـلاك العـقـارية في إنجلتـرا وإيرلندا - والذي كـان له في ذمـة المدينة دين كبـيـر قدره ١٦ ألف جنيـه. لقد أصبح أحد الكويكـرز في شبـابه لكنه حـافظ

(*) الومبم: عقد من الأصداف كان هنود أمريكا الشمالية يتزينون به أو يتعاملون به كعملة [المترجم].

على علاقة طيبة مع الملك تشارلز الثاني وأخيه جيمس دوق يورك، بفضل علاقاته الواسعة ودخله الكبير. وقد منحه تشارلز في العام ١٦٨١، لقاء التنازل عن الدين، قطعةً واسعة من الأرض شمال نهر ديلوير تزيد مساحتها على أربعة وخمسين ألف ميل مربع. هذه المساحة التي تصل تقريبا إلى ثلاثة ملايين فدان جعلته من أكبر ملاك العقارات في التاريخ.

ومع ذلك فقد كانت تلك الأراضي بالطبع مجرد فلاة خاوية عندما اشتراها. وأراد بين أن يؤسس مجتمع التجربة المقدسة Holy Experiment (*) في أمريكا، وأن يحالفه النجاح في صنيعه هذا. وهو يشرح ذلك بقوله: «مع أنني أرغب في نشر وتعميق الحرية الدينية.. غير أنني أرغب في المقابل في ما يعوضني عن جهدي». وقد حقق الشطر الأول من طموحه، حيث أكسب المستوطنة جوا من التسامح التام من دون تأسيس أي كنيسة، ومن غير وجود أي من الكويكرز هناك. واشترى بعض رفاقه من الكويكرز ٧٥ ألف فدان من أراضيه حصل لقاءها على ٩ آلاف جنيه وظفها في تمويل المستوطنة.

وحققت بنسلفانيا (التي سميت كذلك على اسم والده وليس اسمه) تطورا سريعا جدا. وبعد أن كانت غير مأهولة بالسكان تقريبا في العام ١٦٨٠، وصل عدد سكانها بعد ست سنوات فقط إلى أكثر من ثمانية آلاف. ولقد وصلت في السنتين الأوليين ثلاث وأربعون سفينة حاملةً على متنها ثلاثة آلاف مستوطن. وكما كانت حال نيوإنغلاند، كان هؤلاء المهاجرون في معظمهم عائلات بكامل أفرادها، تضاعف عددها بسرعة بفضل مناخ المستوطنة الجديدة. وفي العام ١٧٠٠ وصل عدد سكان بنسلفانيا إلى أكثر من ثمانية عشر ألفا. وكانت فلادلفيا تتحول سريعا إلى أكبر مدن أمريكا الشمالية التابعة لبريطانيا. وفي العام ١٧٧٦ ستصبح فيلادلفيا كبرى مدن الإمبراطورية البريطانية بعد لندن، إذ بلغ عدد سكانها (بمن فيهم سكان الضواحي) نحو أربعين ألف نسمة.

كانت تربة بنسلفانيا أخصب من تربة نيوإنغلاند، وكان فصل الزراعة فيها أطول. وحقق مزارعوها بأعدادهم المتزايدة دائما فوائض متنامية في الإنتاج أمكن مبادلتها تجاريا. إلا أن المحاصيل الصالحة للزراعة في بنسلفانيا

(*) Holy Experiment: هي محاولة الكويكرز ممثلين بوليم بين تأسيس مجتمعهم الخاص في منطقة ديليدير في الولايات المتحدة الأمريكية ليقدموا للعالم نموذجا عن مدى قدرتهم على النجاح في قيادة حياتهم من دون اضطهاد أو شقاق، وذلك من خلال تشكيل حكومة ليبرالية وجذب كل أنواع البشر ومعاملة السكان الأصليين من الهنود الحمر معاملة عادلة [المترجم].

(ونيـويورك) - كـالقـمح - كـانت تزرع أيضـا فـي إنجلتـرا. لذلك كـانت السـوق مـقـتـصـرة على السـوق الأم للناتج الزراعي للمـسـتـوطنات الـوسطى. وبالتـالي سعت تلك المستوطنات - مثل نيوإنغلاند - إلى فتح أسواق أخرى. وكان القمح الفـائض يحـول إلـى طحين ويبـاع فـي الأنديز الغـربيـة، في شطريهـا الفـرنسـي والبريطاني، لقاء السكر والدبس. وأصبح تصدير القمح عاملا مهمـا لاقتصاد نيـويورك، بحـيث إن شـعـارهـا الذي اعـتـمـده الإنجليـز في العـام ١٦٨٦ يظهـر برميل طحين بين شفرات طاحونة هواء.

ولأن المستوطنات الوسطى- مثل نيـوإنغلاند - لم تكن قـادرة على الاعـتـماد على مـحـصـول مـربح عليـه طلب كبـيـر في البلد الأم، فـإنهـا لم تحـقق تطورا اقتصـاديا كذلك الـذي حققتـه المستوطنات النمـوذجيـة في ذلك الحين. لقد اعـتمـد المزارعون فـي مستـعمـرات، مثل فـيرجينيـا، على تلك العوامل المتوافـرة في إنجلتـرا مثل فـرصة تسـويق تبغهم هناك وتوافـر خدمـات الصيـرفة ووكلاء الشـراء، حين شـحنوا إلى فـيرجينيـا سلعـا لم تكن مـتوافرة فـيهـا. لـقد أوجدت بنسلفانيا ونيويورك - كما نيوإنغلاند - طبقة التـجار الخاصة بها، وكانت هذه الطبـقـة مـتطورة كـتلك التي في البلد الأم تمامـا وتتـمـتع بـروابط وعـلاقـات تجارية في كل بقاع الأرض.

وتوسعت المناطق التـي كان البريطانيـون يقيمون فيها تجارتهم بمعدل كبير في القرن السابع عشر، كما توسعت إمبراطوريتهم الأمريكية أيضا. وفي العام ١٦٠٠ كان القسم الأعظم من التجارة الإنجليزية يتم مع الدول المجـاورة شمال غـربي أوروبا. وبعـد مـائة عـام أصـبـحت بريطانيـا أعظم أمم أوروبا تجـاريا، مـتفـوقـة بذلك على هولنـدا. ووصلت السـفن البـريطانيـة إلى مناطق قـصيـة كـالهند، وانخـرط في تجـارتهـا مـع آسيـا وأمـريكا مـا يقـارب ٤٠٪ من أسطولهـا البحري التجاري.

ولا عجب، إذن، أن الحكومة في لندن رغبت في تنظيم هذه التجـارة وذلك لسـببين. الأول، بـالطبع، هـو تحـسين قـدرتهـا علـى جبـاية الضـرائب منهـا، والثاني، حملها على تطبيق المبادئ التي هيمنت على الفكر الاقتصادي آنذاك. هذه المبـادئ باتت تعـرف اليـوم بالنظام الميـركـانتـيلي (التـجـاري) وهـي عبـارة أطلقها - كمـا هو الحال دائمـا - أحد منتقـدي هذا النظام: آدم سميث (تماما كما وضع كارل ماركس مصطلح الرأسمالية).

كانت الميركانتيلية ترى أن أفضل أشكال الثروة إنما يتمثل في المعادن الثمينة: الذهب والفضة. فإذا كان بلد ما يفتقر إلى مناجم المعادن الثمينة فيجب أن يعظم صادراته ويسعى إلى الحد من الواردات لتحقيق ميزان تجاري رابح وبالتالي تجميع الذهب والفضة. لكن هذه النظرية لم تلق قبولا عاما. فالسير دودلي نورث (Dudley North (1641-1691، على سبيل المثال، بين أن فكرة تحقيق دولة ما للثراء فقط على حساب دولة أخرى هو مغالطة. ورأى أنه كلما زادت التجارة - استيرادا وتصديرا - كانت الدولة في حال أفضل. وسيبني آدم سميث كثيرا من أفكاره في كتابه «ثروة الأمم» على ما قدمه نورث وآخرون.

لكن الميركانتيلية اقترنت بتركيز كبير على المصالح الشخصية الاقتصادية بين التجار والمصنعين الذين سعوا إلى حماية أنفسهم من المنافسة الأجنبية، وعانت من تناقض فكري إلى أن أثبت آدم سميث بطلانها من خلال أكثر الكتب حجة وتأثيرا في التاريخ الغربي.

في العام ١٦٥١ بدأت إنجلترا إصدار سلسلة من قوانين الملاحة لتنظيم التجارة في مستوطناتها الأمريكية. هذه القوانين ألزمت المستوطنات باستخدام السفن بريطانية الصنع والمملوكة لرعايا بريطانيين. أما الهولنديون - الذين تفوقوا على الإنجليز بكفاءتهم كبحارة تجار في منتصف القرن السابع عشر - فكانوا قادرين على شحن التبغ من تشيزابيك إلى أوروبا بتكلفة تقل عن تكلفة السفن الإنجليزية بنحو الثلث. غير أنه مع نمو الأسطول التجاري الإنجليزي وتحول نيوإنغلاند إلى مركز رئيس للشحن بقدراتها الذاتية انخفضت تكاليف الشحن حتى في ظل غياب المنافسة الهولندية.

كما اشترطت قوانين الملاحة أن تشحن أنواع معينة من البضائع التي يصدرها الأمريكيون إلى إنجلترا فقط. كثير من هذه السلع - التبغ والرز والسكر والنيلة والفرو والنحاس ومشتقات الصمغ (القار والزفت والتربنتين (*) - أعيد تصديره إلى أوروبا. وقد ضمن ذلك مرور السلع عبر الجمارك الإنجليزية ونظامها الضريبي، وأن يضطلع التجار الإنجليز بالتجارة مع أوروبا. أما الصادرات الأخرى من المستوطنات كالطحين من المستوطنات الوسطى وتماسيح الحديد، فكان يسمح للمستوطنات بتصديرها مباشرة إلى الأسواق الأخرى أينما وجدت.

(*) التربنتين: زيت طيار يقطر من صمغ الصنوبر ويستخدم مخففا لتركيز الدهان ومذيبا ومرهما [المترجم].

وقد نصت قوانين الملاك على أن السلع المستوردة إلى أمريكا يجب أن تمر أولا عبر إنجلترا وبالطبع عبر الجمارك البريطانية باستثناء عدد من منتجات أوروبا الجنوبية التي لم تكن إنجلترا تنتجها أصلا مثل النبيذ من إسبانيا وماديرا أو الآزور Azores. لقد كان الهدف الأساسي من هذا التنويع حماية السوق الأمريكية لمصلحة المنتجين البريطانيين. لكن تحول بريطانيا سريعا إلى أكثر مصنعي هذه السلع كفاءة في أوروبا جعل المصنعين البريطانيين قادرين على البيع بأسعار تفضيلية دائما.

ومع التطور المستمر للمستوطنات الأمريكية في القرن الثامن عشر، فرضت بريطانيا قيودا متزايدة على المصنعين الأمريكيين لحماية صناعاتها المحلية المزدهرة. لم يكن ثمة حظر تجاري مباشر على أي منتج، لكن حجم الأسواق كان محدودا، مما أدى إلى حظر بناء المصانع والورش الجديدة لإنتاج سلع بعينها.

ولو أن هذه القوانين فرضت على قدم المساواة، لكان أثرها كبيرا في الاقتصادات النامية لمستوطنات أمريكا الشمالية. أما السفن والشحنات التي انتهكت قوانين الملاحة فقد كانت عرضة للحجز والمصادرة. لكن تلك القوانين لم تفرض بصورة عادلة. إذ كانت أحيانا لا تفرض إلا بالكاد، وفي أحيان أخرى كانت الرشا التي عرفت طريقها جيدا إلى المسؤولين تلاقى بتغاض مقصود من جانب أولئك المعنيين بفرض القانون وتطبيقه. لقد كان منصب محصل الضرائب في كثير من الموانئ الأمريكية يعد عملا جالبا للعطايا والرشا، نظرا إلى إمكانات الكسب التي يوفرها. وكان تهريب البضائع طوال الفترة الاستيطانية عملا شائعا على نطاق واسع.

وعلى الرغم من نمو الاقتصاد الأمريكي إلى مستويات أعلى من الإنتاجية والتعقيد بصورة مطردة خلال الحقبة الاستيطانية، غير أنه لم يرق إلى مستوى الاقتصاد المتكامل؛ وظلت المستوطنات تعتمد على البلد الأم في سلع وخدمات معينة لم تتمكن من توفيرها بنفسها. فكانت الصيرفة إحدى هذه الخدمات.

لقد حظر القانون البريطاني - وكان ناجعا في ذلك - تأسيس المصارف في المستعمرات، كما حظر أيضا تصدير النقد المعدني البريطاني من بريطانيا من أجل الحفاظ على كتلته النقدية (عرض النقد في الاقتصاد). وهذا ما دفع المستوطنات إلى إصدار النقد كل وفق إمكاناتها.

ويعد النقد سلعة لا تختلف عن كروش الخنازير pork bellies وخدمات المحاماة أو لوحة مفاتيح الحاسب، إلا من ناحية جوهرية واحدة. فالنقد - بالتعريف - هو كل سلعة مقبولة قبولا عاما كبديل عن كل السلع الأخرى. والنقد هو من أهم ابتكارات الكائن الاقتصادي Homo Economicus. وفي الاقتصادات التي تقوم على المقايضة، لا بد لكل من يرغب - لنقل على سبيل المثال - في بيع البرتقال وشراء التفاح أن يعثر له على شخص آخر لديه التفاح ويرغب في الحصول على البرتقال. ويطلق علماء الاقتصاد على هذه العملية - بموهبتهم المعروفة عنهم في استخدام العبارات الرنانة - «التصادف المزدوج للحاجات» double coincidence of want.

أما في اقتصاد يعتمد النقد وسيطا في التبادل، فبإمكان التاجر الأول بيع ما يملك من برتقال لقاء النقد وشراء التفاح نقدا ممن يتوافر لديه تفاح للبيع. ويزيد هذا كثيرا عدد الصفقات التي يمكن أن تجري في الاقتصاد. وبالتالي فإن الوظيفة الاقتصادية للنقود تماثل كثيرا عمل الحفاز في الكيمياء: يزيد من سرعة التجاوب وردة الفعل ولا يصيبه هو نفسه أي تغيير.

كما تؤدي النقود وظيفتين أخريين إلى جانب وظيفتها كوسيط في التبادل. فهي وحدة حساب، أي أن تقويم كل السلع (أو التعبير عن قيمتها) إنما يتم عبر النقد. كما أن النقد يعد مخزنا للقيمة، أي موضعا لحفظ الثروة ريثما تنتقل بين ضروب الاستثمار المنتج.

لقد أدت كثير من السلع دور النقد في حالات معينة، كما هي الحال في استخدام الماشية في بعض الحالات، والتي لاتزال تستخدم في بعض التجمعات الحضرية. إن الكلمة الإنجليزية pecuniary وتعني (مالي) مشتقة في الحقيقة من الكلمة اللاتينية pecus (وتعني ثور). وعندما بدأ استعمال المعادن، كانت توضع في التداول كأشباه نقود. وكان لها مزايا عدة مقارنة بالماشية. فلوح النحاس يمكن تقسيمه إلى أجزاء ووحدات أصغر. إذ كانت قطع المعدن - المتداولة حسب أوزانها - تصك بقيمة معينة وتتداول وفق عددها، ومن هنا تحولت إلى قطع نقدية. فالقطع النقدية هي نقد حقيقي أو لنقل سلعة وظيفتها الوحيدة أن تكون نقدا.

وكان الذهب والفضة والنحاس - وهي أثمن من الحديد - هي المعادن التي شاع استخدامها في ضرب النقود. ولأنها كانت من العناصرelements فقد كان الحصول عليها يتطلب استخراجها من باطن الأرض (وليس

تصنيعها) بتكاليف باهظة. صحيح أن تصنيعها (أو إيجادها من عناصر أخرى) كان مستحيلا، غير أن خلطها بمعدن خسيس مع الحفاظ على القيمة الاسمية نفسها أو تقليل وزنها كان ممكنا. ولجأ الحكام إلى هذه الوسيلة عندما لم تتوافر لهم الأموال الكافية - وهذه حال الحكام عموما. وكانت النتيجة طويلة الأجل وواحدة لا تتغير. فقد انخفضت قيمة القطع النقدية المشوبة بمعادن أخرى نسبة إلى السلع الأخرى، حيث عمل الأفراد على تعديل القيمة التي ينظرون بها إلى القطعة النقدية آخذين بذلك أثر إضافة المعادن الخسيسة في الاعتبار. ولأن النقد سلعة من نوع خاص فإننا نستخدم مصطلحا اقتصاديا خاصا عند الحديث عن انخفاض سعرها: إنه التضخم.

ولكن التضخم قد ينتج من عوامل أخرى غير سعي الحكومات إلى دفع التزاماتها المالية بسلع رديئة القيمة. وكما رأينا فقد نتج عن التدفق الهائل للذهب والفضة من العالم الجديد إلى إسبانيا في القرن السادس عشر تضخم حاد في الاقتصاد الأوروبي. لقد كان هذا نتيجة حتمية لقانون العرض والطلب. إذ إن ثمن النقد ينخفض عندما يرتفع عرض النقد (الذهب والفضة) مقارنة بأسعار السلع الأخرى.

وفي ظل الحظر الإنجليزي على خروج القطع النقدية كان على المستوطنات الإنجليزية الجديدة في أمريكا مواجهة مشكلة الحصول على النقد عبر اللجوء إلى مصادر أخرى. وفي العام ١٦٥٢ بدأت ماساتشوستس في سك نقدها الخاص على الرغم من القوانين الصارمة التي وضعت صلاحيات سك النقد بيد الحكومة الملكية. كان سك الشلن الذي يحمل صورة شجرة الصنوبر- وهو أول نقد سُك في أمريكا الشمالية - يجري وسط جو مشحون بالشك. إذ وجب على الأفراد إحضار ما بحوزتهم من فضة لتحليلها وفحصها قبل سك النقد الذي يعادل محتواه من الفضة ثلاثة أرباع الشلن الإنجليزي. كان شلن «شجرة الصنوبر» أحد أركان اقتصاد ماساتشوستس مما جعل الحكومة البريطانية لا تفرض قيودا على إنتاجه لأكثر من ثلاثين عاما. غير أن أمرا بوقف ضرب النقد صدر بعد إلغاء العمل بدستور ماتساتشوستس في العام ١٦٨٤ .

وتحول مستوطنون آخرون إلى أقرب معادلات النقد الأوروبي في تلك الأيام: أي الدولار الإسباني. كان الدولار الإسباني يشكل نصف حجم النقد المتداول في مستعمرات أمريكا الشمالية، أما النسب الباقية فكانت خليطا من

النقد البريطاني الذي جلبه المسافرون بالإضافة إلى النقد الفرنسي وما شابه. لكن نزيف النقد الأمريكي بسبب العجز التجاري الدائم للمستوطنات مع بريطانيا جعل هذا النقد يعجز عن الوفاء بالطلب عليه.

وكما هو شأن أي تقنية متطورة، سعى المستوطنون الإنجليز في أمريكا الشمالية – الذين اعتادوا استخدام النقد في مبادلاتهم الاقتصادية – إلى الحفاظ على مزايا الاقتصاد النقدي. لذلك بحثوا عن بدائل للنقود الحقيقية. في نيوزيلاندا ومناطق أخرى استخدم تجار الفرو الهندي الومبم وسيطا في التبادل، كذلك فعل عملاؤهم الناطقون بالهولندية والإنجليزية. والومبم هو عبارة عن خرزات مصنوعة من أصداف بطلينوس (*) الماء العذب الذي يكثر في البحيرات والأنهار في تلك المناطق. وكانت تخاط في شكل أحزمة جلدية متقنة الصنعة. وقد ساعدت المثاقب الفولاذية كثيرا على ثقب الخرز وزادت بالتالي إنتاجية وحدة العمل. وهذا ما أدى إلى هبوط كبير في قيمة الومبم، لكنه ظل يستخدم كنقد حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وفي العام ١٧٦٠ افتتح جي سي كامبل من سكان نيوجيرسي مصنعا للومبم المقلد، مما أفقد الومبم الأصلي قيمته.

أما ماريلاند وفيرجينيا فلجأتا إلى ما يسميه علماء الاقتصاد «النقد السلعي» (أو السلعة النقد Commodity money)، مستخدمين بذلك التبغ. لكن ما يؤخذ على النقد السلعي – سواء أكان تبغا أم ماشية – هو صعوبة نقله وارتفاع تكاليفه، وتفاوته في الجودة وتقلب قيمته الفعلية. فعندما انهار سعر التبغ في العقد التاسع من القرن السابع عشر– 1680 – حين قابل إنتاجه في تشيزابيك الطلب العالمي وفاقه أحيانا، حل الخراب باقتصادات المستوطنات: ويشكو أحد سكان ماريلاند من هذه الحال بقوله: «لم يعد التبغ – وهو النقد الذي نتعامل به – ذا قيمة تذكر».. «لم يعد للتبغ أي قيمة هذا العام في كل أنحاء بلدنا».

وكان من شأن التشريعات التي حددت معايير مواصفات الحد الأدنى، أنها أنعشت أسعار التبغ، وعاد ليستخدم كنقد في مناطق زراعته. وفي العام ١٦٩٦، كان رجال الكهنوت في فيرجينيا يقبضون رواتب تعادل ١٦ ألف جنيه من التبغ. ومع مطلع القرن الثامن عشر، أحال القانونيون التبغ إلى مناقصة قانونية لدفع الضرائب والديون العامة.

(*) من الرخويات [المترجم].

كما أسست فيرجينيا في العام ١٧٣٠ نظام مراقبة يفرض على المزارعين تسليم محاصيلهم من التبغ إلى المخازن العامة لفحصها وإصدار إيصالات بقيمتها. وقد أدت هذه الإيصالات دور البنكنوت (النقد الورقي المصرفي) على الرغم من تقلب قوتها الشرائية كثيرا، وذلك بسبب ربطها بسلعة متقلبة السعر: التبغ بدلا من الذهب والفضة. وسرعان ما لحقت ماريلاند بفيرجينيا في هذا المسار.

وقد بدأ إصدار النقد الورقي المصرفي على يد المصارف الإنجليزية منذ بداية القرن الثامن عشر. وكانت قابلة للتداول - بفضل إمكان استرداد قيمتها ذهبا من الإيداعات لدى المصارف - حيث كان الذهب الذي تمثله هذه الفئات النقدية ملكا مطلقا لحاملها. وكان للنقد الورقي المصرفي عدة مزايا على ضروب النقد الأخرى. إذ كانت تكلفته منخفضة (كانت الأوراق في الأساس تصدر بخط اليد) وأخف من الذهب والفضة اللذين يدعمان قيمتها في خزائن المصارف المصدرة لها.

ومن دون المصارف لم تكن المستوطنات الأمريكية قادرة على التعامل بالنقد الورقي. لكن ذلك لم يمنعها من إصدارنقدها الورقي. ففي العام ١٦٩٠ حشدت ماساتشوستس قواتها لقتال الفرنسيين في حرب الملك ويليام (سميت حرب السنوات التسع في أوروبا). ولكي تدفع للجنود أجورهم أصدرت المستوطنة صكوك ائتمان - وهي وعود دفع مستقبلية. وقد كتب على تلك الأوراق (الصكوك) التي صدرت في فئات ٥ و١٠ و٢٠ شلنا ما يلي: «صك المديونية هذا المستحق على مستوطنة ماساتشوستس للمالك يحمل قيمة معادلة لقيمة النقد، وعليه فإنه مقبول لدى أمين الخزينة والقابض في جميع المدفوعات العامة ومهما كان رصيد الخزينة في أي وقت - نيوإنغلاند، الثالث من فبراير ١٦٩٠، بأمر المحكمة العامة».

ولأنها كانت نقودا قانونية استخدمت في سداد الضرائب والمستحقات الحكومية الأخرى، فقد جرى تداولها كالنقود (مع أن ذلك تم غالبا بحسم على قيمتها الاسمية). هذه الأدوات النقدية لم تكن فقط أول نقود ورقية تصدر في أمريكا الشمالية، بل كانت أول نقد ورقي يصدر في العالم الغربي أيضا.

وحققت الفكرة نتائج باهرة، فانتشرت في نيوإنغلاند وبنسلفانيا، اللتين أصدرتا أولى عملاتهما الورقية في العام ١٧٢٣، وقد نشر بنجامين فرانكلين في العام ١٧٢٩ - وكان له من العمر حينها ٢٣ عاما فقط - كتابا بعنوان: «تحقيق مبسط عن طبيعة العملة الورقية والحاجة إليها». ومنح على الفور عقدا لطباعة الإصدارات المستقبلية لبنسلفانيا من صكوك الائتمان، وابتكر عددا من وسائل الكشف عن العملات المزورة، التي لايزال بعضها مستخدما حتى يومنا هذا.

لكن فرانكلين، على الرغم من ذلك، عمل على الحد من الانتشار الخطير لما يطلق عليه علماء الاقتصاد «النقد القانوني» Fiat Money (أو النقد الاعتباري) أي النقد الذي يكتسب صفة النقد لأن الحكومة أرادت له ذلك، وليس لأنه مصنوع من سلعة تحمل قيمة ذاتية أو مدعوم بها. ومنذ فجر الحضارة الإنسانية، واجه السياسيون خيارات صعبة بين رفع الضرائب الذي لا يحبذه الشعب أو ضبط الإنفاق الذي يؤيده الشعب. وعندما تيسرت لهم القدرة على دفع التزامات الحكومة المالية بنقد أرخص - كما هي الحال عند تخفيض المحتوى القيمي للنقد المعدني أو تقليل وزنه - فإنهم لم يترددوا في ذلك.

لكن القطع النقدية المعدنية لا بد أن تصنع من معدن ما. كما أن إنتاجها يعتبر باهظ التكلفة. أما إنتاج النقد الورقي فليس ذا تكلفة تذكر. ولم يتوان السياسيون عن الانسياق وراء استخدام النقد الورقي كحل قصير الأجل لمشكلات الحكومة المالية. ولا يستثنى من ذلك سياسيو أمريكا الشمالية التابعة لبريطانيا. وعمدت حكومة ماساتشوستس - التي انكبت على إصدار المزيد والمزيد من النقد الورقي- إلى سحب القطع النقدية الذهبية والفضية من التداول، تأكيدا لقانون جريشام (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول). وهكذا كان الناس يتعاملون بالنقد الورقي ويحفظون النقد المعدني تحت وسائدهم، لأنهم اعتبروه مخزن قيمة، وهذا ما كان عليه فعلا.

وقد أدى التضخم على الفور إلى تقلص قيمة النقد الورقي. وهكذا أبطلت ماساتشوستس في العام ١٧١٦ العملة الورقية واستوردت الدولار الإسباني، ثم عادت إثر ذلك مباشرة إلى طباعة صكوك الائتمان مرة أخرى. وأخيرا أصدر كل إقليم باستثناء فيرجينيا أشكالا مختلفة من العملة

الورقــيــة، لكنهــا لم تكن إطلاقــا بديلا عن أشكال النقــد الأخــرى، وفي فيـرجينيا فـي العام ١٧٣٠، كـان هناك مـا لا يقل عـن سبعـة عشـر شكلا من أشكال المناقصات القانونية Legal tender.

وكان العامل المشترك الوحيد يتمثل في استخدام الجنيه الاسترليني كوحدة حساب عامة، حتى عندما لم تعد النقود المعدنية البريطانية تشكل إلا جزءا صغيرا فقط من مجموع النقد المعدني المتداول، ولم يتم تداول النقد الورقي البريطاني إلا نادرا. إن تكاليف تقويم الأشكال المختلفة للنقد وتحويلها كلما دعت الحاجة، كانت مرتفعة جدا في الاقتصاد الأمريكي حديث النشأة.

وعلى الرغم من الفوضى النقدية التي عمت اقتصادها كانت أمريكا الشمالية البريطانية في منتصف القرن الثامن عشر تشهد ازدهارا لم تحققه إلا قلة من المناطق الأخرى في العالم. فإلى جانب مركزها كمصدر رئيسي، ومهيمن أحيانا، للمنتجات الزراعية والمواد الخام وتميزها في صناعة السفن والتجارة كانت أيضا تلبي حاجاتها الخاصة من السلع المصنعة.

لقد كان في كل بلدة تقريبا حداد ونحاس وصانع عجلات وإسكاف ونجار ودباغ وما شابه من الحرفيين القادرين على تلبية الطلب المحلي. وارتفعت أعداد مطاحن الدقيق والمناشر وازداد حجم عملها. وفي المدن الكبرى كان كثير من الحرفيين يوسع أعماله إلى مشاريع صناعية ناشئة proto-industrial (ورشات). وقد ولد ويليام جونسون (١٧١٤- ١٨٠٨) في مدينة نيويورك لكنه انتقل إلى تشارلستون في كارولينا الجنوبية في شبابه، وأسس لنفسه ورشة حدادة. لكنه حقق الكثير في فترة قصيرة جدا، حيث إنه أدار مشروعا كبيرا يعمل فيه عمال ومتدربون (صناع) وعبيد في إنتاج سلع حديدية كثيرة جدا. كان جونسون ناجحا بما يكفي لأن يصبح من كبار ملاك الأراضي، وأن يلتحق بنخبة المجتمع في تشارلستون بصفته عضوا قديما في المجلس التشريعي وعضوا في مجلس كنيسة القديس فيليب. وسيعمل ابنه ويليام جونسون أيضا في المحكمة الأمريكية العليا لمدة ثلاثين عاما.

كانت مدن بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا وغيرها تشهد زيادة في نماذج مثل ويليام جونسون. وحينها كانت معاصر الرم rum توفر ٦٠ في المائة من حاجة السوق الأمريكية. وكانت أعداد متزايدة من مصانع تكرير السكر تحول السكر البني الذي يُنتج في الهند الغربية إلى سكر أبيض غزا بسرعة قلوب

المستهلكين الأمريكيين. وازدهرت تجارة الرم والسكر المكرر والمواد الغذائية والسلع الصناعية بين المستوطنات. وفي العام ١٧٧٠ كان نحو ٢٠ في المائة من الحمولة التي غادرت ميناء نيويورك تتجه إلى موانئ المستوطنات الأخرى وليس إلى أوروبا أو الإنديز الغربية.

وبدأ اقتصاد أمريكا الشمالية التابعة لبريطانيا بالتحول عن طابعه الاستيطاني (الكولينيالي) إلى اقتصاد مماثل لاقتصاد البلد الأم، اقتصاد متنوع ومتطور. كان في فيلادلفيا في العام ١٧٧٤ أكثر من ثلاثمائة عامل يزاولون صناعة العربات. كما كان النجارون من أمثال توماس الف في تشارلستون وتوماس أفليك في فيلادلفيا وجون تاون سيند وجون جودارد في نيوبورت وجون كوغويل في بوسطن يصنعون تحفا من تصاميم الأثاث، التي كانت تضاهي في تفاصيلها ما تنتجه بريطانيا آنذاك. وكان رسامون من أمثال جون ترمبل يحققون مكاسب كبيرة من رسم اللوحات الفنية (البورتريهات الشخصية).

لم يكن هذا الاقتصاد فقط يتطور بوقع سريع، بل كان يحقق نموا سريعا أيضا. وتضاعف عدد المستوطنات الثلاث عشرة تقريبا بين العامين ١٧٥٠ و١٧٧٠ من ١١٧٦٠٠٠ إلى ٢١٣١٠٠٠ نسمة بفضل الهجرة والعائلات الكبيرة التي ناهز أبناؤها سن البلوغ. كما كانت المساحات المأهولة في المستوطنات تزداد سريعا، وفي عشية الثورة كان ثمة نحو ١٨٠ ألف ميل مربع - أي نصف مساحة بريطانيا وما يقارب مساحة فرنسا أكبر دول أوروبا الغربية.

هذه الأملاك اقتسمت بين السكان على نطاق كبير. وعلى الرغم من أن ٢٠ في المائة من السكان كانوا يضعون أيديهم على ثلثي الثروة في سبعينيات القرن الثامن عشر، في حين أن ٢٠ في المائة من السكان القابعين أدنى هرم الثروة لا يملكون أكثر من ١ في المائة، فإن هذه البيانات الأولية تقدم صورة مشوهة، لأنها لا تأخذ عامل الزمن بعين الاعتبار. (الإحصاءات المعاصرة تؤدي الغاية نفسها ولكن لأهداف سياسية مشبوهة). كان سكان أمريكا الشمالية التابعة لبريطانيا من الشباب اليافعين، ومعلوم أن صغار السن لا يملكون على العموم ثروة تذكر إلا أنهم مع التقدم في العمر يميلون إلى اكتساب الثروة وهذا ما كان عليه واقع الحال في المستوطنات الثلاث عشرة. ولقد توصل أحد المؤرخين الاقتصاديين إلى أن من أصل سكان المستوطنات

ممن هم في الأربعينيات من العمر، فإن ٨ في المائة فقط كانت تعتبر في عداد الفقراء بمعايير اليوم، وتقل هذه النسبة في صفوف من هم في الخمسينيات من العمر.

كان سبب ذلك، ببساطة يتجلى في أن أمريكا في عهد المستوطنات قبل الثورة كانت أرض فرص لم يعرف العالم لها نظيراً من قبل. فقد كان اقتصاد العالم الغربي في منتصف القرن الثامن عشر في طور التغير مع ظهور النتائج الأولى للثورة الصناعية، التي كانت تجري على قدم وساق في الأراضي الوسطى في إنجلترا. لكن الزراعة كانت لاتزال القطاع المهيمن على الاقتصاد وبقيت الأرض أساس الثروة. ولم يكن في أوروبا أو الإنديز الغربية أراض غير مأهولة صالحة للزراعة، وإن وجدت كانت ذات مساحات محدودة. أما كندا الغنية بعنصر الأرض فكان فصل الزراعة والنماء فيها قصيرا جدا، مما حد من المحاصيل الصالحة للزراعة والعائد المتولد منها.

لكن المستوطنات الثلاث عشرة كانت تزخر بملايين الأفدنة من الأراضي الخصبة المشاع. وعندما لم تتوافر لمزرعة العائلة أراض كافية لاستيعاب أبنائها فإن التخوم - حيث تكثر الأراضي - كانت على مسير يوم أو اثنين على ظهور الخيول. وهكذا أصبح الترحال والانتقال سمة أمريكية، ولاتزال أمريكا إلى اليوم أكثر المجتمعات تنقلا وترحالا على وجه البسيطة.

ولم يكن الأطفال الذين ولدوا هناك هم وحدهم من وقعت على آذانهم معزوفة الاستقلال المالي التي كانت تتردد في أمريكا. فقد كان هناك سيل لا ينقطع من المهاجرين يختلف عددا من عام إلى آخر، لكن هذه الأعداد ارتفعت باطراد بعد العام ١٧٥٠ مع وصول أخبار الازدهار الأمريكي والفرص المتاحة هناك. ولتأمين تكلفة سفرهم كان أولئك المهاجرون يقبلون بالاستعباد قصير الأجل من خلال العمل خدما مأجورين فترة محدودة.

وفي العام ١٧٦٧ ذكر السيد هنري مور، الحاكم الملكي لنيويورك أنه : «فور انقضاء الأجل المضروب في عقود إجارتهم، كان هؤلاء العبيد يهجرون أسيادهم ويشترون قطع أرض صغيرة يمضون أول ثلاث أو أربع سنوات في حياة ملؤها الشقاء والمعاناة وفي أحط ظروف الفقر في سبيل إعمارها والاستقرار فيها. لكنهم كانوا يتحملون هذا بصبر وأسلموا أنفسهم إلى هذه المهمة بملء إرادتهم، فالرضا الذي تسبغه ملكية الأرض تهون كل الصعاب،

وتجعلهم يحبذون أسلوب العيش هذا على أسلوب الدعة والراحة التي يمكن أن يحققوها لأنفسهم وعائلاتهم بالعمل في المهن التي نشأوا عليها وترعرعوا فيها».

هذا الإقبال على حياة الضنك والمخاطرة أملا في الغنى مستقبلا، الذي كان عليه حال أولئك المهاجرين وملايين المهاجرين الآخرين الذين سيسلكون طريقهم في القرنين المقبلين، قد خلف أثرا بالغا - إن لم نقل لا يقاس - في تاريخ الاقتصاد الأمريكي. إذ إنهم على غرار أولئك الذين لم يجدوا تعارضا بين عبادة الله والسعي وراء النجاح الدنيوي في القرن السابع عشر، فإن أولئك الذين سعوا وراء الاستقلال الاقتصادي في القرن الثامن عشر خلفوا أثرا كبيرا في الثقافة الأمريكية الوليدة آنذاك.

وفي وقت كانت فيها النخبة تزداد عددا، كانت نسبة سكان المستوطنات البريطانية ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى (هذا الوصف لم يكن معروفا في القرن الثامن عشر، وإنما كان يطلق عليهم اسم «الفئة الوسطى» Middling Sort تفوق نظيراتها في أي منطقة من العالم الغربي. وقد اقتسمت ثمرات الازدهار على نطاق واسع. وقد تجاوزت أطوال قامات الجنود الأمريكيين المولودين لآباء مهاجرين من السكان الأصليين في عهد الثورة - على سبيل المثال - بوصتين كاملتين بالمتوسط أطوال أقرانهم البريطانيين، الذي كانوا في غالبيتهم المطلقة يحملون مجموعة المورثات نفسها، وكانت صلات القربى بينهم وثيقة. ويمكن أن نعزو ذلك إلى ارتفاع القيمة الغذائية في طعامهم في مرحلة الطفولة.

وبالطبع، لم يصب هذا الازدهار طبقة العبيد الذين هم - بالتعريف - أولئك الذين لا ثروة لهم ولا مصدر دخل ولا فرص يفيدون منها، وما لهم إلا الكدح غير المأجور لمصلحة الآخرين. إلا أنه، وعلى الرغم من عدم امتلاك العبيد حريتهم، فقد بدأت محنتهم تلقى آذانا صاغية وإدانة علنية. فقد ظهرت أولى بوادر الحركة المناوئة للعبودية في أواخر القرن السابع عشر في إنجلترا. إذ استنكر جورج فوكس (١٦٢٤ -١٦٩١) - مؤسس جمعية الأصدقاء - الرق (في وقت كان فيه لدى ويليام بين كثير من العبيد). وسيأتي الكويكرز في طليعة حركة إلغاء العبودية عندما ستؤسس تلك الحركة بعد قرن من ذلك الزمان. ولقد دان كثيرون من غير الكويكرز، فظائع تجارة الرقيق ومعاملة

العبيد في المزارع التي تقع في الإنديز الغربية من دون أن يقصدوا بذلك نظام الرق نفسه. إلا أن النظام نفسه وقع تحت وطأة الهجوم والإدانة في منتصف القرن الثامن عشر.

إن تغير مواقف بنجامين فرانكلين، الذي امتدت حياته إلى القرن الثامن عشر، يعكس تطور موقف المجتمع كله. فقد دأب فرانكلين في شبابه على الإعلان، في مجلة بنسلفانيا، عن العبيد الذين كان يعرضهم للبيع. وفي العام ١٧٥٠ اعتبر الرق ظاهرة تسيء إلى رفاهية الدولة لأنه يولد استخفافا بالعمل (باليد العاملة)، وكان يرى أن الرق في أفضل حالاته يحد من الكفاءة الاقتصادية. وفي العقود الأخيرة من حياته - مع ذلك - صار من المطالبين بإلغاء العبودية. ولقد أُسست أول جمعية لإلغاء العبودية في فيلادلفيا في العام ١٧٧٥ وترأسها بنجامين فرانكلين في العام ١٧٨٧. وفي ذلك الوقت كان كبار ملاك العبيد أنفسهم، كجورج واشنطن وتوماس جيفرسون، يرون أن الرق مناف للقيم والأخلاق. لكن أحدا منهم لم يكن يعلم كيف يخلص البلاد - أو حتى مزارعهم - منه.

وفي العام ١٧٧٢ أصدر اللورد مانسفيلد - كبير القضاة - حكما يقضي بأن الرق مخالف للقانون العام، مطالبا بتحرير العبيد لحظة يطأون أراضي المملكة المتحدة. لكن ذلك لم يترجم لمصلحة العبيد في المستوطنات طبعا. فقد استمرت عبوديتهم على الرغم من تنامي حس الازدراء تجاه الرق في أوساط المجتمع.

وبدأ الأمريكيون، في الشطر الثاني من القرن الثامن عشر، بالإقلاع عن التفكير في بلادهم على أنها مستوطنات تابعة للبلد الأم. فكلمة «أمريكي» نفسها تقيم دليلا على ذلك. لقد استخدمت هذه الكلمة للمرة الأولى لتحقير المتحدرين من أصول أوروبية الذين عاشوا في مستعمرات بريطانية في أمريكا الشمالية في العام ١٧٦٥، لكنها بعد ذلك التاريخ بدأت تلقى قبولا عاما. إذ بدأ الأمريكيون يميلون سريعا إلى اعتبار أنفسهم رعايا للتاج البريطاني، وبالقدر نفسه مساوين للرعايا البريطانيين الذين يقطنون أنحاء أخرى من الإمبراطورية الأطلسية العظيمة والمتنامية، ومنها البلد الأم.

وقد عدوا أنفسهم، كغيرهم من الرعايا البريطانيين، ورثة صراع من أجل التحرر عمره أكثر من خمسمائة عام. فلقد تجاهلت الحكومة في لندن المستوطنات الأمريكية خلال فترات طويلة من القرنين السابع عشر والثامن

عشر. وكانت تستخدمها منفى للمحكوم عليهم وغير المرغوب فيهم (المبعدين) ولحماية المصالح الاقتصادية للتاج البريطاني ولأولئك المتنفذين في البرلمان كأصحاب مزارع السكر في ويست إنديان والتجار البريطانيين.

لكن الموقع الجغرافي لبريطانيا العظمى كان قد شهد تغيرات سريعة خلال تلك الفترة. ففي عهد تشارلز الثاني كانت بريطانيا - على أكثر تقدير – تعد قوة أوروبية متوسطة. وقد قبل تشارلز الثاني معونة سرية من لويس الرابع عشر لقاء الإذعان للمطامح الفرنسية. لكن عندما أطاحت الثورة المجيدة Glorious في العام ١٦٨٨بجيمس الثاني – أخي تشارلز الذي أعلن انتماءه الكاثوليكي على الملأ – واستبدلت به ويليام الثالث البروتستانتي المناوئ لفرنسا، وانخرطت بريطانيا في سلسلة لا تنتهي من الحروب مع فرنسا كان لها أثر واضح في تحول بريطانيا إلى قوة عظمى.

كان سلاح بريطانيا السري في هذه الحروب نظامها الضريبي المتطور وقدرتها على تمويل جيشها من خلال الاقتراض لحساب دينها الوطني الجديد. وفي وقت كانت فيه القوى العظمى الأخرى في أوروبا لاتزال تعتمد على متعهدي الجباية tax farmers وهم أشخاص يتعهدون بتقديم عائدات معينة إلى الحكومة مقابل حصولهم على حق جباية الضرائب في منطقة ما، بحيث يحتفظون لأنفسهم بالزيادة)، فقد حولت بريطانيا جباة الضرائب فيها إلى طبقة بيروقراطية. وبالنتيجة، تحولت نسبة أكبر من الضرائب المجبَّوة إلى الخزينة البريطانية.

وقبل القرن الثامن عشر كانت الديون الحكومية عادة ديونا شخصية على الحاكم يتم ترتيبها شخصيا مع المقرضين. ولكن في العام ١٦٩٤ منحت الحكومة البريطانية رخصة تأسيس مصرف إنجلترا الذي تحول في العقود القليلة التالية إلى مصرف إنجلترا المركزي. وبدأ في إنجلترا حالا الترتيب للقروض الحكومية وإصدار السندات القابلة للتداول بيعا وشراء في السوق. وأفضى ذلك إلى استنزاف كبير لثروات الأمة. وبدلا من إبقاء فائض رأس المال على شكل ذهب وفضة، كان المستثمرون قادرين على توظيفه في السندات القابلة للبيع والشراء مباشرة في السوق، والتي عادت عليهم بدخل ثابت. وهذه القروض أدت بدورها عمل الضمانة على القروض الشخصية لتوفير رأس المال العامل للمشاريع

الجديدة. وبالنتيجة، حقق الاقتصاد البريطاني نموا سريعا في القرن الثامن عشر مع توافر إمكانات توظيف المزيد من رؤوس أموالها (في الاستثمارات المختلفة).

وبفضل ديونها القومية الفعلية استطاعت بريطانيا شن حروب ناجحة على بلدان تفوقها في عدد السكان والموارد الطبيعية. وعلى حد تعبير رجل الدولة الروماني سيسيرو Cicero قبل ألفي عام: «إن عصب الحروب مال لا ينضب». وبفضل ديونها القومية أيضا صارت بريطانيا محور سياسة القوة الأوروبية.

لكن مركز بريطانيا الجديد كقوة عظمى لم يأت دون ثمن. فقد بلغ دينها القومي ١٦,٣ مليون جنيه في العام ١٧٠٠، أي في نهاية حرب الأعوام التسعة. وفي العام ١٧٤٨، مع نهاية حرب خلافة عرش النمسا Austrian Succession، بلغ هذا الدين ٧٦ مليون جنيه. وبعد خمس عشرة سنة، في أعقاب حرب السنوات السبع (سميت في أمريكا الشمالية بالحرب الفرنسية الهندية)، بلغ هذا الدين ١٣١ مليون جنيه. وهو مبلغ هائل بالنسبة إلى مجتمع كانت العائلة الواحدة فيه تعيش حياة كريمة بمائة جنيه سنويا، وحيث كان دخل سنوي قدره ١٠٠٠ جنيه يكفي لجعل المرء فاحش الثراء.

وانتهت لمصلحة البريطانيين الحرب الفرنسية الهندية، التي اندلعت في طول العالم وعرضه من فورت دوكيسن في غربي بنسلفانيا إلى الهند. وقد أجبرت فرنسا على تسليم إمبراطوريتها في أمريكا الشمالية إلى البريطانيين لتنهي بذلك الوجود الفرنسي، والتهديد الذي كان يمثله في «الباب الخلفي» للمستعمرات البريطانية. وهكذا وبسيطرة البحرية الملكية على الأطلسي وحشد عشرة آلاف جندي بريطاني على الجبهة لحفظ السلام مع الهنود، أمنت المستوطنات للمرة الأولى في تاريخها القصير من الهجوم الأجنبي.

وسعت الحكومة البريطانية إلى موارد جديدة للدخل وقد أرهقت كاهلها خدمة الدين القومي الكبير - ٦٠ في المائة من ميزانية الحكومة في تلك السنوات ذهبت إلى سداد فوائد الدين - في وقت استمرت فيه بريطانيا في تمويل جيش عرمرم. ومع تحول الإمبراطورية البريطانية في أمريكا الشمالية إلى قوة اقتصادية كبرى مستقلة بذاتها، فلا عجب أن البريطانيين ركزوا أعينهم عليها. واستفاد المستوطنون أيضا بصورة كبيرة من نتائج الحرب الفرنسية الهندية، ولم تعد الضرائب تثقل كواهلهم كما كان شأن الرعايا

البريطانيين في البلد الأم. فقد كان المواطن البريطاني العادي يدفع ٢٦ شلنا في العام كضرائب، أما الأمريكي فلم تزد ضرائبه على شلن واحد. وكانت الحكومة في لندن تعتقد أن من الحكمة والعدل أن تقدم المستوطنات مساهمة أكبر في تحمل نفقات الإمبراطورية.

كما بينت الأضواء التي سلطتها الحرب الفرنسية الهندية على المستوطنات أمورا لم ترق للحكومة في لندن إطلاقا. إذ كان موظفو الجمارك في المستوطنات البريطانية على أعلى درجات الفساد ونقص الكفاءة، وذلك لأن ما كانوا يجبونه من إيرادات ضريبية وتعرفات جمركية لم تكن تعادل سوى ربع نفقات الجباية. وقد تجاهل تجار المستوطنات كل ما كان يخالف مصالحهم من قوانين الملاحة. وفي العام ١٧٣٣ اشترط البرلمان أن يكون بلد المنشأ لكل دبس السكر المستورد إلى مستوطنات أمريكا الشمالية من الجزر البريطانية المنتجة للسكر. لكن دبس السكر كان رخيصا جدا في الأنديز الغربية التابعة لفرنسا، واستمر التجار الأمريكيون في شرائه من هناك، حتى في الفترات التي كانت فيها بريطانيا في حالة حرب مع فرنسا.

لقد جرت العادة أن صاحب الميزة الاقتصادية - مهما كانت مجحفة - يكافح سياسيا بكل قوته للحفاظ عليها، سواء أكانت تلك الميزة حق الانتفاع من عمل الغير أم حماية جمركية لا مبرر لها أم إعفاء ضريبيا. فالأمر سيان في كل هذه الحالات. ولأن المزايا التي تحققها القلة معروفة وليست بالقليلة، في حين أن التكلفة التي تقع على كاهل الكثرة المحرومة من هذه المزايا غالبا ما تكون خفية وبسيطة فإن القلة تدحض الكثرة في مثل هذه السجالات السياسية.

ولقد قاوم المستوطنون حقا - وبضراوة - الضرائب البسيطة التي حاول الإنجليز فرضها وتشديد القيود التجارية. واعتبروا أن الرعايا البريطانيين لا يمكن أن يقبلوا الضرائب ما لم يصدر قرار فرضها عن نوابهم في البرلمان، ذلك أن الأمريكيين كانوا ممثلين في مجالس المستوطنات وليس في برلمان ويستمنستر. فليس لبرلمان إيرغو Ergo سلطة بفرض الضرائب عليهم. وعلى اعتبار أن الرعايا البريطانيين كانوا متساوين في الحريات، فبأي وجه حق يسن البرلمان قوانين تصب في مصلحة التجار البريطانيين على حساب تجار المستوطنات؟

وكما يحدث غالبا في الخلافات العائلية – ومع ارتفاع حدة الجدال – لم يبذل أي طرف جهدا في محاولة فهم وجهة نظر الطرف الآخر، بينما تصاعد صوت المظالم. وأعلنت المستوطنات مرارا أن الخضوع لمطالب البريطانيين سيحولهم من أحرار إلى عبيد، وهم أدرى الناس بمعنى العبودية تلك. وعندما أدركوا إمكان استغنائهم عن حماية الجيش البريطاني للدفاع عنهم لم يروا من ضرورة لهذه الإمبراطورية من أصلها.

أما تعليقات البريطانيين على هذه الأزمة – من الجانب الآخر – فكانت لا تكف عن استخدام كلمات مثل «المزارع» و«الأطفال» خلال الإشارة إلى المستوطنات وسكانها. فقد كانوا تابعين (رعايا) وكان لا بد من معاملتهم على هذا الأساس. كما أن معظم النظام السياسي البريطاني لم يشك إطلاقا في أن جيشه المتفوق سيتصدى من دون عناء لأي أزمة تخلقها المقاومة التي قد تبديها المستوطنات.

لكن ذلك جانب الصواب. إن ويليام بيت – إيرل تشاثام Chatham – الذي يعود إليه الفضل، كرئيس للوزراء، في كسب الحرب الفرنسية الهندية – كان ذا رأي أقرب إلى الصواب. فقد خاطب البرلمان البريطاني قائلا: «ليس في مقدوركم غزو أمريكا». لكن أعضاء البرلمان لم يرغبوا في الإصغاء إليه.

الجزء الثاني

بلد يستطيع أن يصنع من نفسه ما يريد

يصنع الرجال تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه كما يشتهون؛ لا يصنعونه في ظروف يختارونها بأنفسهم، بل في ظروف تنشأ مباشرة عن الماضي وتنبثق منه.

كارل ماركس

١٨ برومير ١٨٥٢ لويس بونابرت

WITHE

مقدمة

«كسبت بألا تخسر»

المؤلف

مرحلة تحول الثورة الأمريكية

كان البلد الذي أعلن استقلاله في ٤ يوليو ١٧٧٦ يتمتع بكثير من نقاط القوة في صراعه العسكري مع بريطانيا - الذي لم يكن وليد اللحظة. لكن الوضع المالي، على الرغم من ذلك، لم يكن من بين نقاط القوة هذه. لقد كانت الولايات المتحدة تخوض حربها على ترابها الوطني، مما أتاح لها شن هجمات مضادة سريعة، أما بريطانيا فكان عليها أن تحارب من مسافة ثلاثة آلاف ميل حيث كانت عملية الاتصال مع ميدان المعركة تستغرق ثلاثة أشهر على الأقل، وغالبا أربعة أشهر. وكان قادة الجيش والسياسيون الأمريكيون على معرفة وثيقة بتلك الأرض؛ أما نظراؤهم البريطانيون فكانوا في جهل مطبق. إذ ما كان على الولايات - قبل كل شيء - إلا تجنب خسارة الحرب إلى أن تشعر الحكومة البريطانية - ومعها شعبها - بالإعياء من هذا الصراع وتكاليفه المتصاعدة. أما بريطانيا فكان عليها أن تهزم بلدا كبير المساحة وأن تستأصل بؤر التمرد الكثيرة فيه.

لكن بريطانيا كانت تتمتع بموارد مالية غير محدودة - إذا جاز القول - ولم يكن لدى الأمريكيين موارد مالية تذكر، وبفضل مواردها تلك استطاعت بريطانيا تجييش أكبر أساطيل العالم وأفضلها (على الرغم من أن الأسطول انتهى إلى التقهقر والتراجع بصورة كبيرة منذ نهاية حرب السنوات السبع). ولم يكن ثمة جيش يضاهي الجيش البريطاني في الخبرة والعتاد، ولم يمثل رفده بالجنود الأجانب المرتزقة أي عناء. أما الأمريكيون فكان عليهم أن يحشدوا كل ما تيسر لهم من قوات سواء كانت ميليشيات الولايات أم مراكب القرصنة (*) privateers التي يقارب عددها مجتمعة - إن لم يكن يتجاوز - عدد قوات الجيش والبحرية القاريين continental.

كما كان عليهم حشد الموارد اللازمة لسداد تكلفة الحرب. ولم يكن ذلك بالأمر السهل خصوصا في ظل غياب حكومة وطنية بمعناها الحقيقي. ورفضت الولايات الثلاث عشرة - التي خرجت على السيطرة البريطانية - أن تتنازل عن جزء كبير من سيادتها التي اكتسبتها أخيرا، ولم يكن للكونغرس القاري الثاني Second Continental Congress أي سلطة في فرض الضرائب وجبايتها. إذا كان مضطرا إلى تقدير متطلباته المالية، وأن يسأل الولايات توفير المال اللازم. ولم تستجب سوى قلة من الولايات - التي كانت مهتمة بتمويل المجهود الحربي - وبالتالي لم تصل نسبة الضرائب من الإيرادات الكلية إلا إلى نحو ٦ في المائة.

وكان لا بد من توفير الأموال الباقية من خلال الاقتراض، تارة من أمريكيين أثرياء التزموا بالقضية، وفي أحوال كثيرة من فرنسا وهولندا اللتين كانتا بالطبع أكثر حرصا على كسر شوكة البريطانيين من مجرد مساعدة الأمريكيين. كما وفر هذان البلدان إلى جانب المال نحو ٦٠ في المائة من بارود المدافع التي استخدمتها القوات الأمريكية ومعظم اللباس العسكري والأسلحة النارية. بل إن البريطانيين أنفسهم - ومن دون قصد منهم - وفروا كثيرا من العتاد العسكري للقوات الأمريكية. وفي أثناء الحرب استولت مراكب القرصنة الأمريكية (**) على نحو مائتي سفينة بريطانية تقدر قيمة حمولتها بنحو ١٨ مليون جنيه.

(*) مراكب تفوض إليها الحكومة مهاجمة سفن العدو واغتصابها [المترجم].

(**) الحاشية السابقة [المترجم].

وباستثناء القروض، كان مصدر التمويل الوحيد ضرب النقد. وقد أصدر الكونغرس القاري في العام ١٧٧٥ أذونات (صكوك) ائتمان قابلة للتداول، أطلق عليها اسم كونتيننتال. ومع نهاية العام ١٧٧٩وصلت القيمة الاسمية لتلك الأذونات المصدر إلى ٢٢٥ مليون دولار على الأقل، وهو مبلغ جد كبير بالنسبة إلى حجم الاقتصاد الأمريكي في ذلك الحين. هذا الارتفاع الحاد في الكتلة النقدية (الذي تفاقم بفعل لجوء الولايات والأقاليم إلى الوسيلة نفسها) كانت نتيجته الحتمية زيادة هائلة في مستويات التضخم. وتضاعفت الأسعار في العام ١٧٧٦ ثم تضاعفت مرة أخرى في العامين التاليين. وفي الفترة بين مطلع العام ١٧٧٩ وبداية العام ١٧٨١ ارتفعت مستويات الأسعار بنحو عشرة أضعاف. وحاول الكونغرس استئصال المشكلة عبر إعادة تقويم الكونتيننتال الذي تدهورت قيمته إلى ٢,٥ في المائة من قيمته الاسمية. وستجد عبارة «لا يساوي كونتيننتالا واحدا» طريقها إلى القاموس الأمريكي أكثر من مائة عام.

ولم يكن أمام كثير من المزارعين من خيار إلا قبول شهادات أمناء الإمدادات وضباط التموين - التي كانت تتداول كنقد - بأي قيمة كان هؤلاء الضباط يصدرونها بها عند شراء المؤن قسرا من بائعيها. ولحسن الحظ كان البريطانيون يسلكون طريقا خلافيا، وذلك بمصادرة الماشية والحبوب كغنائم حرب.

ولأن الكونغرس القاري كان يفتقر إلى الخبرة اللازمة في إدارة طبقة بيروقراطية كبيرة (كان في قسم أمناء الإمدادات التابع للكونغرس القاري ما يزيد على ثلاثة آلاف موظف ذات مرة). فقد عمت مظاهر الفوضى والفساد ونقص الكفاءة. ولم تشهد المشتريات والمالية الحكومية أي شكل من أشكال النظام، إلا في العام ١٧٨١ عندما تبوأ إدارتها موريس روبرت، التاجر الفيلادلفي الذي اشتهر بنجاحه الكبير.

الأهم من ذلك، هو أن موريس استطاع تأمين التمويل اللازم لنقل الجيش القاري من ولاية نيويورك إلى يورك تاون في فيرجينيا. وهناك - ولأن الأسطول الفرنسي كان يعترض الطريق إلى مدخل خليج تشيزابيك قاطعا مساعدات الإغاثة - اضطر اللورد كورنواليس إلى إعلان استسلام القوات الأساسية في الجيش البريطاني المرابط في أمريكا الشمالية.

ولو قدر للمجهود الحربي البريطاني أن يستمر، لكان على لندن تشكيل جيش جديد وتجهيزه ونقله. ولم يكن ثمة سوى قليل من الدعم السياسي لذلك، خصوصا مع الارتفاع المتسارع في مستويات الدين القومي (فقد تجاوز حينها ٢٠٠ مليون جنيه). وبدأ البريطانيون في مفاوضات معاهدة السلام، التي انتهت باعتراف بريطانيا العظمى رسميا باستقلال أمريكا في العام ١٧٨٣. وهكذا، فإن الولايات المتحدة كسبت بألا تخسر.

لكن الولايات المتحدة دفعت ثمنا باهظا بعدأن دمرت القوات البريطانية أجزاء كثيرة من كارولينا وفيرجينيا، وذلك حين عملت تلك القوات على تخريب المزارع والإقطاعات. كما استولى البريطانيون على كثير من العبيد. وهكذا أدى الحصار البريطاني إلى شلل كبير في حركة التجارة على غرار ما ساقه الاحتلال البريطاني إلى بعض الموانئ الرئيسة.

ورزحت نيويورك تحت نير الاحتلال البريطاني بين خريف ١٧٧٦ و٢٥ نوفمبر ١٧٨٣ (وهو التاريخ الذي احتفلت به نيويورك طوال مائة عام تحت اسم «يوم الجلاء»). وهذه أطول مدة تخضع فيها مدينة في العالم الغربي لهيمنة قوة محتلة في العصر الحديث. وفي فترة الاحتلال اندلع حريقان أتيا على نصف مباني مانهاتن. وانخفض عدد سكان المدينة بمقدار النصف في تلك الأعوام. وانجلت عن المدينة، مع القوات البريطانية، طبقة التجار الذين كسدت تجارتهم التي قامت على علاقتهم مع البريطانيين.

وجلب حلول السلام ردة فعل انتقامية من البريطانيين أخذت شكلا تجاريا. فقد أغلقت الأنديز الغربية التابعة لبريطانيا في وجه السفن الأمريكية - والتي كانت في ما مضى سوقا كبيرا للصادرات الأمريكية من المواد الغذائية والخشب. وأوقفت المعاملة التفضيلية في مجال التعريفات الجمركية على سلع كالنيلة مثلا.

لكن البريطانيين ظلوا المستورد الرئيس للسلع الأمريكية وأكبر المصدرين إلى الولايات المتحدة. فقد قدم التجار البريطانيون عروضا تجارية سخية سعيا منهم إلى إعادة إرساء موطئ قدم لهم في السوق الأمريكية حيث فرص الربح الوفير. وفور انتهاء الحرب بدأ الاقتصاد الأمريكي يتعافى، وإن كان ذلك في مناطق دون أخرى. إذ ظلت كارولينا الجنوبية غارقة في أزمة الكساد، بينما استعادت الاقتصادات التجارية

في الولايات الأطلسية الوسطى عافيتها. وعلى الرغم من خسارة أسواق مثل الأنديز الغربية التابعة لبريطانيا (هذه الخسارة كانت مؤقتة كما أثبتت الوقائع)، فإن أسواقا جديدة ظهرت إلى الوجود. فقد رحبت أوروبا الشمالية - التي عزلتها قوانين الملاحة البريطانية عن بقية العالم - بالبضائع الأمريكية. وصارت البضائع الأجنبية التي ألزمت في الماضي بالمرور عبر بريطانيا - ترد مباشرة وبتكاليف أقل من قبل. وانفتح الشرق الأقصى - الذي كان ذات يوم احتكارا نافحت عنه شركة الهند الشرقية البريطانية بشراسة في وجه التجار الأمريكيين. وفي العام ١٧٨٤ حلت السفينة (إمبراطورة الصين) Empress of China في مرفأ نيويورك في طريقها إلى الشرق، وكانت أول سفينة في سلسلة أساطيل ستزداد عددا. وحملت السفينة شحنة من الفرو وجذور الجنسنغ - التي كان الصينيون يولونها منزلة عظيمة كدواء لكل الأمراض - والتي كانت تقايض بالشاي والحرير والخزف الصيني والبورسلان والنباتات والطيور الغريبة وغيرها من السلع الكمالية. وعندما قفلت السفينة راجعة بعد خمسة عشر شهرا وأفرغت حمولتها، أصابت أرباحا تراوحت بين ٣٠ ألف دولار و٤٠ ألفا.

وتعافت مدينة نيويورك نفسها من الدمار الذي لحق بها على أيدي البريطانيين سريعا. ومع نهاية العقد، لم تعوض فقط خسائرها البشرية، بل وصل عدد سكانها إلى مستويات غير مسبوقة، فقد رصدت إحصاءات العام ١٧٩٠ نحو ٣٣ ألف نسمة.

وعلى الرغم من التحسن البطيء في اقتصاد البلاد، فإن هذا لم يقترن بتحسن مواردها المالية. فلقد أقرت الولايات المتحدة أخيرا إطارا أساسيا للحكومة (الأحكام الفدرالية) في العام ١٧٨١، ليحل محل الحكومة الاعتباطية ad hoc التابعة للكونغرس القاري الثاني. لكن ذلك لم يف إطلاقا بالغرض المنشود. إذ بقي الكونغرس ممسكا بمعظم الصلاحيات، وكان أعضاؤه يعينون من قبل حكومات الولايات ويبذلون جهدهم لخدمتها وإرضائها. كما أنها لم تتمتع بصلاحيات جباية الضرائب، فعملت بدلا من ذلك على طلب المال من ولايات أخرى تخلف كثير منها عن سداد ما عليها وقت استحقاقه، وأقنع بعضها

الآخر عن الدفع. لقد كانت حكومة الولايات المتحدة - في ظل الأحكام الفدرالية - أقرب كثيرا إلى وضع الأمم المتحدة اليوم منه إلى أي حكومة فعلية.

ولم تفلح محاولة توفير مصدر دخل دائم للحكومة الوطنية عبر فرض نسبة ٥ في المائة على الواردات، وذلك بعد أن فرضت نيويورك كثيرا من الشروط التي رفضها الكونغرس. ومن دون إجماع الولايات فشلت الإجراءات الجديدة. وهذا أدى إلى عجز الحكومة الوطنية عن الوفاء بالتزاماتها. وحُلت البحرية وخفض عدد القوات إلى مستوى متدن جدا لم يتعد ثمانين من القوات الخاصة. وفي العام ١٧٨٥ توقفت الحكومة عن دفع فوائد ديونها إلى فرنسا. وبعد سنتين توقفت عن سداد أصل الدين أيضا.

وعاملت القوى الأجنبية الولايات المتحدة بأسلوب يعوزه الاحترام، بعد أن أدركت أن الولايات المتحدة تملك القوة. وشجعت بريطانيا الحركات الانفصالية في الشمال الغربي وفيرمونت، ورفضت الجلاء عن حصونها التي تقع الآن في ما بات من أراضي الولايات المتحدة. ورفضت إسبانيا الاعتراف بسيادة الولايات المتحدة غربي المناطق الجبلية وجنوب نهر أوهايو، وأغلقت نهر الميسيسبي الذي كانت تسيطر على مصبه أمام حركة التجارة الأمريكية. ومع تدفق سيول المستوطنين عبر الجبال التماسا للأراضي الخصبة - التي صارت تسمى كنتاكي وتينيسي فقد خلق ذلك مشكلة كبرى. إذ كان أولئك القوم في حاجة إلى تصدير محاصيلهم الزراعية المتزايدة لكي يضمنوا بقاءهم، وكان الميسيسبي المنفذ الوحيد إلى البحر. وأملت إسبانيا في كسب ولائهم. وأوشكت أن تفعل. ووصف جورج واشنطن في العام ١٧٨٤ أولئك القوم بأنهم يقفون في مهب الريح: «إن مستهم ريشة فستجرفهم إلى أي اتجاه».

وعجز الدائنون المحليون والأجانب عن تحصيل القروض وفوائدها. وظلت كتلة هائلة من صكوك الائتمان وشهادات التموين قيد التداول بمعدلات لم تكن إلا جزءا يسيرا من قيمتها الاسمية. ولم تكن أكبر مشكلات الأحكام الفيدرالية خافية عن العيان: إذ كانت الحكومة الوطنية عاجزة عن تمويل عملياتها عن طريق الضرائب وغير قادرة على تنظيم التجارة بين الولايات.

لكن، في المقابل، لم تكن وسائل حل المشكلات جلية ظاهرة، وبخاصة في ضوء رفض الولايات التنازل عن مظاهر السيادة. لكن المجلس التشريعي في فيرجينيا، مدفوعا من جيمس ماديسون، دعا الولايات الأخرى إلى الاجتماع في مؤتمر تبحث فيه «توحيد ضوابطها التجارية في منظومة واحدة لما فيه المصلحة العامة وتحقيق التناغم الدائم بينها».

وأفضى ذلك إلى انعقاد مؤتمر أنابوليس في سبتمبر ١٧٨٦. ولم تحضره سوى خمس ولايات، واقتصرت نتائجه على الدعوة إلى اجتماع آخر في مايو ١٧٨٧ «لأخذ حالة الولايات المتحدة بعين الاعتبار، ووضع أحكام إضافية وفق ما تراه الولايات لازما لجعل دستور الحكومة الفدرالية قادرا على تلبية متطلبات الاتحاد».

وحالف الحظ الوطنيين - كما كان يطلق على مؤيدي إقامة حكومة مركزية قوية. إذ اندلع عصيان شايز Shays في ماساتشوستس بالتزامن مع انعقاد مؤتمر أنابوليس. وفي الشطر الغربي من الولايات كان كثير من المزارعين مثقلين بالديون، ولا يملكون لسدادها معينا. لكن المجلس التشريعي في ماساتشوستس - وكان خاضعا لطبقة التجار في بوسطن - انفض من دون الاستجابة للعرائض المطالبة بإصدار العملة الورقية وإعفاء الديون التي حبست رهونها. وفي نوفمبر كان دانييل شايز - الذي كان عقيدا في الجيش زمن الثورة ومزارعا معدما آنذاك - يقود قوة من ألف ومائتي رجل. وأرسلت حكومة ماساتشوستس - وقد راعها ذلك - الجنرال وليام شيفارد على رأس قوة من ستمائة رجل لحماية مخازن الأسلحة في سبرينغ فيلد، وفوضت إلى الجنرال بنجامين لنكولين تشكيل قوة من أربعة آلاف وأربعمائة رجل. ولم يستغرق ذلك الكثير من شيفارد - الذي كانت تدعمه المدفعية في مواجهة البنادق والمذاري - ليقضي على متمردي سبرينغ فيلد في ٢٤ يناير ١٧٨٧، بينما سحق لنكولين التمرد بالهجوم على قواته في بترشام في ٤ فبراير من ذلك العام، وفر شايز إلى فيرمونت.

وأصدرت ماساتشوستس عفوا عن كل المتورطين (بمن فيهم دانييل شايز نفسه في السنة التالية). وكسب الانتخابات التشريعية متعاطفون مع تمرد شايز في ربيع ذلك العام، وأصدروا تشريعا يعفي موجودات بعينها من حبس الرهن كالأدوات المنزلية والملابس ومعدات العمل.

وعلى الرغم من أن تمرد شايز انتهى سريعا لكنه خلف أثرا كبيرا في إدراك الناس للخلل الخطير في أسلوب إدارة البلاد والحاجة إلى تغيير جذري. وهذا ما مهد الطريق أمام انعقاد المؤتمر الدستوري في فيلادلفيا، في أواخر ذلك الربيع، وقرر على الفور إنهاء العمل بالأحكام الفدرالية والبدء من نقطة الصفر من جديد. وفي مايو ١٧٨٧ نشرت إحدى صحف بوسطن - بتهكم - تعليقا على التغيرات التي طرأت على قانون المديونية التي أفضى إليها عصيان تشايز إلى أن «العصيان نفسه قد يأتي بالقوانين أحيانا». وبالفعل ساعد عصيان شايز على صياغة «الدستور».

ومن المعلوم أن المنجزات الحقيقية التي يمكن أن تحققها أي لجنة هي محدودة العدد، لكن دستور الولايات المتحدة بالتأكيد هو واحد من هذه الإنجازات الفارقة. لقد وضع هذا الدستور - الذي لم يعدل إلا سبعا وعشرين مرة في ٢١٥ عاما - عندما كان العالم مقبلا على أشد فترات التحول الاقتصادي عمقا وديمومة في تاريخ الجنس البشري. لقد تحول مركز القوة في الاقتصاد الأمريكي من قطاع إلى آخر مع التطور الذي كان الاقتصاد يشهده. فقد مرت مناطق برمتها بفترات مد وانحسار في وضعها الاقتصادي. وخرجت إلى حيز الوجود طرائق جديدة في مزاولة العمل التجاري، ومؤسسات اقتصادية لم تجل بخاطر الآباء المؤسسين، في ذلك الحين، واندثرت أخرى في المقابل. وخلقت - وبددت أيضا - ثروات لا يمكن أن يتخيلها من عاصر عالم ما قبل الثورة الصناعية. ومع هذا بقي الدستور قائما وحافظ البلد على ازدهاره في ظل هذا الدستور.

إن نشوء الولايات المتحدة وإرساء قوانينها الأساسية لم يكن، بأي حال، من الأحوال، أقل التحولات الثورية حظا في التاريخ الأمريكي. ومن إحدى مصادفات التاريخ الكبرى إصدار آدم سميث كتابه الشهير «ثروة الأمم» في العام ١٧٧٦. فلقد قوض هذا الكتاب القواعد الفكرية للمركانتيلية التي قامت عليها السياسات الاقتصادية للأمم الغربية على امتداد مائتي عام.

وقد عرض، هذا الكتاب، بمثال إثر آخر - وكل منها أشد حجة من سابقه - أن التجارة الحرة داخل حدود الدولة ومع الخارج، وعدم تدخل الدولة في المنافسة الفردية في الأسواق قد أفضت إلى ازدهار عظيم

انعكس على الجميع وساهم في زيادة قدرات الدولة بصورة عامة. لقد قرأ كثير من الآباء المؤسسين مؤلفات سميث وأدركوا أيضا قوة الحجج التي ساقها.

ولأن الولايات المتحدة كانت بلدا حديث النشأة فإنها لم تعرف احتكارات وأنظمة امتياز متجذرة لكي تحاربها وتسعى إلى تفكيكها. ولم تعرف مثيلا لشركة الهند الشرقية البريطانية ذات القدرات المالية الهائلة، أو للطبقة الارستقراطية المتنفذة والمهيمنة على شؤون البلد السياسية. كما لم تعرف منحا ملكية قديمة، مثل حقوق جباية التعرفات المحلية التي شاعت في فرنسا ما قبل الثورة. وبالتالي كان من السهل جدا على الولايات المتحدة ترسيخ أفكار آدم سميث في نظامها الاقتصادي والسياسي على العكس من غيرها من الأمم الغربية الكبرى. وقد منحها ذلك أفضليات ومزايا كبيرة في العالم الاقتصادي الجديد الذي ظهر إلى حيز الوجود بعد اجتماع الآباء المؤسسين في فيلادلفيا.

وكتب كارل ماركس في مؤلفه «الثامن عشر من بروميير لويس بونابرت» إن: «الرجال يصنعون تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه كما يشتهون، لا يصنعونه في ظروف يختارونها بأنفسهم؛ بل في ظروف تنشأ مباشرة من الماضي وتنبثق عنه». وهذا صحيح تماما، ومن نافلة القول إذا صح التعبير، لكن ماركس لم يزر الولايات المتحدة قط. (ولذلك فإنه لم يزر مصنعا قط - وكل ما كان يعرفه ماركس عن البروليتاريا التي آمن بانتصارها كان من خلال مطالعاته لكتب أقرانه من المفكرين). ولو قدر لماركس أن يسلك طريقه إلى العالم الجديد لرأى بلدا قد صنع تاريخه بفضل ظروفه الخاصة كما يشتهي، أكثر من أي قوة من القوى العظمى.

وتأكيدا لذلك نقول إن الولايات المتحدة لم تأخذ ما جاء به آدم سميث بحذافيره لبناء اقتصادها. فالمسؤولون الحكوميون سيمدون دائما يد العون لأصحاب النفوذ على حساب أولئك الذين قد يصبحون أصحاب نفوذ في المستقبل. إذ إن «ما هو واقع» (الواقع الراهن) هو دائما مصدر للنفوذ وليس «ما قد يكون» (الاحتمال المستقبلي)، بغض النظر عن قوانين تمويل الحملات السياسية المعمول بها. لقد جعلت قوة «الواقع الراهن» تحرير

العبيد – الذي كان في مطلع العقد التاسع من القرن الثامن عشر يعد منافيا للأخلاق وبعيدا عن الكفاءة الاقتصادية – ممكنا من الناحية السياسية. وبالفعل، فإن الواقع الراهن فرض فقرة في الدستور الجديد جعلت العبيد المهمشين، الذين لا حول لهم ولا قوة، ممثلين بثلاثة أخماس عددهم الفعلي عند توزيع مقاعد الكونغرس، مما زاد كثيرا القوة السياسية للولايات التي ارتفعت فيها أعداد العبيد.

لكن الولايات المتحدة كانت، على الدوام، الأقرب إلى أفكار سميث – ولفترات زمنية أطول – من أي أمة أخرى. ويمكن تلمس النتائج كلما نظرنا إلى حال الولايات المتحدة، وبالطبع إلى أحوال الأمم الأخرى.

4

صنيعة هاملتون

يمكن للأرقام أن تبين الأهمية التي أولتها حكومة واشنطن - التي تسلمت السلطة في ٣٠ أبريل ١٧٨٩ - للتعامل مع الوضع المالي الذي واجهته الحكومة في ظل الدستور الجديد. فقد كان عدد موظفي وزارة الخارجية لا يتجاوز الخمسة في مقابل أربعين موظفا عملوا في وزارة الخزانة.

كانت المهمات الواقعة على عاتق الخزانة شاقة وعسيرة. إذ كانت ثمة حاجة إلى إيجاد نظام ضريبي موحد ووضعه حيز التطبيق. وكانت أيضا ثمة حاجة إلى ترشيد الديون المتبقية من عهد الثورة وتمويل سدادها. وكان يلزم أيضا تنظيم الجمارك لجباية الرسوم الجمركية، التي ستستمد منها الحكومة مصدر دخلها الأساسي طوال ما يزيد على قرن من الزمان. كما كان لا بد من إيجاد مؤسسات الائتمان العام التي ستتيح للحكومة الاقتراض عند اللزوم. وكان ينبغي أيضا تطبيق نظام نقدي جديد.

«لا دافع أقوى، في العلاقات الإنسانية، من المصلحة الذاتية»

المؤلف

هذا المطلب الأخير كان متوافرا من الناحية النظرية على الأقل، بعد أن وضع الكونغرس أسسه من خلال الأحكام الفدرالية. لقد جاء توماس جيفرسون بهذا النظام فكان إسهامه الفعلي الوحيد في بناء النظام المالي للولايات المتحدة.

وكما رأينا، فإن الدفاتر المحاسبية لتجار المستعمرات قبل الثورة كانت تعتمد الجنيه والشلنغ والبنس وحدة نقدية، لكن الجنيه والشلنغ والبنس لم تكن العملات المطروحة في التداول الفعلي على الإطلاق. وكان إيجاد وحدة حساب جديدة يمكن تبنيها مسألة بالغة التعقيد لأن سكان المستعمرات كانوا يجرون مبادلاتهم بكثير من وحدات الحساب المختلفة من حيث القيمة.

وحاول موريس روبرت موريس، الذي بذل كثيرا لتمويل الثورة، استئصال الخلافات التي حالت دون الوصول إلى قاسم مشترك أصغر للوحدة النقدية الأكثر تداولا في كل ولاية. وقد توصل إلى تحديد قيمة وحدة الحساب عند ١,٤٤٠ جزء من الدولار الإسباني. ورأى جيفرسون أن هذه القيمة الكسرية فائقة الصغر وتفتقر إلى العملية، ووافقه موريس في ذلك. واقترح أن تضرب هذه الوحدة بألف وتحدد بقيمة ٢٥,٣٦ جزءا من الدولار. ودافع جيفرسون، في المقابل، عن استخدام الدولار وحسب الذي كان عملة معروفة في كل أنحاء الولايات المتحدة ليكون الوحدة النقدية الجديدة.

إن أصل كلمة «دولار» مشتق من الكلمة الألمانية «وادي» (تال Thal). ففي القرن الخامس عشر اكتشفت طبقات كبيرة من الفضة في بوهيميا التي تعرف اليوم بجمهورية التشيك. وفي العام ١٥١٩ بدأ مالك تلك المناجم التي تقع قرب مدينة يواكيمستال، واسمه جراف زو باساون أند فيسكيرشن، بضرب قطع الفضة التي وزنت أونصة ساكسونية واحدة وأطلق عليها اسم «تالرز» Thalers. ومعناها الحرفي «من الوادي» (أو نتاج الوادي). هذه القطع النقدية الجديدة الصرفة في نقائها قوبلت بترحيب كبير من التجار وشرع حكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة بتقليدها في عملاتهم.

وتبنى هابسبرغ تشارلز الخامس، الإمبراطور الروماني المقدس، التالر كوحدة نقدية أساسية لعملات إمبراطوريته في أراضي النمسا وإسبانيا وفي مستعمراته الجديدة في العالم الجديد. وأصبح التالر الوحدة النقدية الموحدة في التجارة الدولية على مدى قرون بفضل الكميات الهائلة من الذهب والفضة التي اكتشفت في مناجم أمريكا الاسبانية في القرنين السادس عشر

والسابع عشر (بين العامين ١٥٨٠ و١٦٢٦) وتحولت لفظة تالر إلى «دولار» في اللغة الإنجليزية تماما كما حرفت لفظة «تال» (وادي) قبل قرون إلى ديل ودل (وادي) Dale وDell. كما أصبح العملة الأساسية الأكثر تداولا في مستعمرات بريطانيا في أمريكا الشمالية.

ولم يدافع جيفرسون عن استخدام الدولار في مذكراته عن اعتماد وحدة نقدية وعن عملة الولايات المتحدة فقط، بل أيد وضع فئات أصغر ككسور عشرية من الدولار. ويبدو هذا في يومنا أمرا بديهيا. ففي عالم اليوم تعتمد كل الدول النظام النقدي العشري. لكن، وعلى حد تعبير جيفرسون: «في كل الحالات التي يجب علينا فيها الاختيار بين الأعمال البسيطة والمعقدة، فإن من البديهي جدا أن نختار تلك البسيطة». لكن توماس جيفرسون كان أول من دافع عن هذا النظام وكانت الولايات المتحدة في العام ١٧٨٦ أول بلد يتبناه.

كان الدولار الإسباني مقسما إلى أنصاف وأرباع وأثمان أطلق عليها اسم «أجزاء» bits كنوع من التغيير (ومن هنا تأتي تسميتها «قطع الثمانية pieces of eight). لكن جيفرسون اقترح إصدار نصف دولار وخُمس دولار وعُشر دولار (وأطلق عليها لفظة جديدة هي العشر Dime) وجزء من عشرين من الدولار وجزء من مائة من الدولار (اقتبس لها اسم سنت Cent الذي استخدمه روبرت موريس في خطته). وفي العام ١٧٨٥ أعلن الكونجرس أن «الوحدة النقدية للولايات المتحدة الأمريكية هي دولار واحد» لكن الكونجرس في السنة التالية قرر - لدى تبنيه السنت وخمسة السنتات والعشرة (عشرة سنتات) والخمسون سنتا التي اقترحها جيفرسون - السماح بإصدار فئة قطعة ربع دولار معدني بدلا عن فئة العشرين سنتا.

ومازالت قطعة ربع الدولار تتداول إلى اليوم، لكنها آخر بقايا النظام النقدي الثماني الذي ساد في عصر المستعمرات. لكن ثمة أيضا بقايا أخرى ظلت مستخدمة طوال عقود. إذ ظلت بورصة نيويورك تقوم أسعارها بثمن الدولار حتى أواخر العام ١٩٩٩. وبقيت عبارة شيلنغ تحمل - في ذاكرة العامة - معنى ١٢,٥ سنتا أو ثمن دولار، على الرغم من أن هذه الفئة النقدية المعدنية لم تستخدم في الولايات المتحدة في يوم من الأيام. وبقي الطرف الشرقي من برودواي في نيويورك - حيث كانت المتاجر الشعبية - يسمى «ركن الشلنغ» حتى أواخر عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر، بينما كان الجانب الغربي من المدينة يسمى «ركن الدولار».

إن من أسباب بقاء كلمة: «شلنغ» في التداول طويلا حقيقة أن النقد المعدني الأمريكي لم يكن كافيا لتلبية الطلب المتصاعد باطراد عليه، وبالمثل ظل في التداول خليط غريب من النقد المعدني الأجنبي. أما أول نقد معدني في الولايات المتحدة - السنت النحاسي الذي يحمل شعارا ينبض حيوية: «التفت إلى عملك Mind your business» فكان يضرب على نطاق ضيق. وقد تأسست دار سك العملات في فيلادلفيا في العام ١٧٩٢ ولم يصدر عنها سوى قليل من النقد المعدني في السنوات الأولى وذلك لعدم توافر كميات المعدن اللازمة لذلك.

وانكب روبرت موريس على إصدار النقد، ورفض عرض واشنطن تعيينه وزيرا للخزانة في الحكومة الجديدة (كان ذلك قرارا خاطئا - فقد انتهى أمره إلى سجون المدينين). وبذلك فقد تحول الرئيس بعرضه هذا إلى أحد مساعديه في أثناء الثورة، وهو ألكساندر هاملتون الذي كان في مطلع الثلاثينيات من العمر.

كان هاملتون الوحيد من بين الآباء المؤسسين الذي لم يولد في حدود ما بات يعرف بالولايات المتحدة. فقد ولد في نيفيس Nevis، وهي من الأملاك البريطانية في جزيرة ليوارد Leeward التي لم تكن ذات شأن بين الأراضي التابعة لبريطانيا. كما كان الوحيد أيضا - إلى جانب بنجامين فرانكلين - الذي لم يتحدر من عائلة غنية. بل ترعرع فقيرا بعد أن تخلى والده - الذي لم يتزوج أمه - عن العائلة عندما كان هاملتون طفلا.

وعكف هاملتون - الذي عاش في سانت كروا St. Croix، وهي اليوم جزء من فيرجين آيلاند في الولايات المتحدة، وكانت حينها من أعمال الدنمارك - على العمل لدى أحد البيوتات التجارية التي يملكها تجار من نيويورك: نيوكولاس كروجر ودافيد بيكمان، عندما كان له من العمر إحدى عشرة سنة. وصار هاملتون بفضل كفاءته الاستثنائية وطموحه الكبير، مديرا لتلك المتاجر حينما كان في الخامسة عشرة، وكان يترعرع في «مكتب محاسبة» بكل معنى الكلمة. وبالتالي فإن فرانكلين - من بين كل الآباء المؤسسين - كان الوحيد الذي نشأ في أسرة حضرية وبيئة تجارية. لا بل إن جون آدامز وهو محام بحكم مهنته اعتبر مزرعة عائلته في برينتري (هي كوينزي Quincy اليوم)، في ماساتشوستس موطنه، وليس بوسطن.

وقد ساعده كروجر - الذي أدرك مواهب هاملتون - على الذهاب إلى نيويورك في العام ١٧٧٢ والانتساب إلى كينغ كوليج King's College، وهي الآن جامعة كولومبيا. وبعد الثورة درس القانون وبدأ مزاولة المحاماة في مدينة

نيويورك، حيث تزوج إليزابيث شويلر وهي سليلة إحدى أشهر عائلات نيويورك. وبعد الثورة كتب سلسلة من المقالات الصحافية والكتيبات، التي عرض فيها آراءه عن مقومات تشكيل حكومة فدرالية «ناجعة». وأسس في العام ١٧٨٤ مصرف نيويورك، وهو أول مصرف في المدينة والثاني في الولايات المتحدة.

وحضر هاملتون المؤتمر الدستوري في فيلادلفيا، وعمل بدأب على إقرار الوثيقة، حيث صاغ بنفسه ثلثي أوراق الفدرالية. وعندما استبعد روبرت موريس نفسه، كان هاملتون - الذي وصفه موريس بالمتقد الذكاء - سعيدا جدا بقبوله منصب وزير الخزانة.

وكان من بين القلة المؤهلة لهذا المنصب. ومع أن الأمريكيين تميزوا في عدد من حقول الاختصاص، فإنهم لم «يكونوا على دراية بأكثر علوم الأرض إبهاما وغموضا (المالية العامة)، التي لم يجدوا في أنفسهم الدافع لدراستها. واستوعب هاملتون - وكان دارسا مجدا لعلم الاقتصاد - علم المالية العامة على نحو كامل. وهذا ما سوف يثبته بجدارة في السنوات القليلة اللاحقة. ولكنه، وعلى غرار كثير من الآباء المؤسسين، كان دارسا مثابرا للطبيعة البشرية وأدرك ألا دافع أقوى في العلاقات الإنسانية من المصلحة الذاتية. وسعى إلى بناء نظام يوجه به سعي الفرد وراء مصلحته الشخصية نحو تطوير الاقتصاد الأمريكي وحماية الاقتصاد من الحماقات التي تنتهي إليها المصلحة الشخصية مطلقة العنان.

وحتى قبيل إنشاء وزارة الخزانة في الثاني من سبتمبر ١٧٨٩ وتأكيد تعيين مجلس الشيوخ هاملتون وزيرا في ١١ سبتمبر، وأقر الكونغرس تشريعا ضريبيا يوفر للحكومة الجديدة الأموال اللازمة للوفاء بنفقاتها. وكان مصدر الدخل الأساسي - بلا ريب - هو التعريفات الجمركية، لكن جدالا طويلا ثار حول تحديد الواردات التي ستخضع للتعريفة الجمركية ومعدلها. وطبقت بنسلفانيا تعريفة جمركية مرتفعة بموجب قوانينها القديمة لحماية صناعة الحديد الناشئة فيها وسعت للإبقاء عليها. أما الولايات الجنوبية المستوردة لمنتجات الحديد، مثل المسامير والمزالج، فقد سعت إلى تخفيض التعريفة على منتجات الحديد أو رفعها كليا. كما سعى مقطرو الرم Rum في نيوإنغلاند إلى خفض التعريفات على وارداتها من دبس السكر. أما مصنعو الخمر في بنسلفانيا وما سواها فقد سعوا إلى رفع التعرفة على دبس السكر لكبح جماح الشركات الكبرى المنافسة لها.

وقد أصدر الكونغرس، في آخر المطاف، قوانين التعريفة والحمولة (حيث فرض قانون الحمولة رسما جمركيا قدره ٦ سنتات على الطن الواحد عن السفن الأمريكية الراسية في الموانئ الأمريكية، و٥٠ سنتا للطن على السفن الأجنبية) في صيف العام ١٧٨٩. لكن موضوع التعريفة الجمركية سيظل أكثر المسائل الخلافية في الكونغرس - بعد موضوع الرقيق - في السنوات المائة المقبلة. وأطلق بيرس بتلر من كارولينا الجنوبية أول تهديد بالانسحاب من الاتحاد قبل أن يقر الكونغرس قانون التعريفة الجمركية في العام ١٧٨٩.

ومع توافر التمويل اللازم، صارت المشكلة الأكثر إلحاحا والتي اعترضت طريق هاملتون - تتمثل في إيجاد حل لمسألة الديون الفيدرالية. فلقد نص الدستور على أن تأخذ الحكومة الفيدرالية على عاتقها ديون الحكومة السابقة أما آلية ذلك فظلت مسألة مثار اختلاف. وانتقل قدر كبير من الديون إلى أيدي المضاربين الذين اشتروها لقاء ١٠٪ من قيمتها الاسمية.

وفي ١٤ يناير تقدم هاملتون إلى الكونغرس بأول تقرير له عن الائتمان العام الذي طالب فيه باسترداد الدين القديم بشروط أكثر تساهلا، وإصدار سندات جديدة لسداده تُدعم بالإيرادات المتحصلة من التعريفات الجمركية. وتناهى التقرير إلى علم الناس في مدينة نيويورك - العاصمة الانتقالية - على الفور، لكن أخباره لم تبلغ سريعا أنحاء البلاد الأخرى واستطاع المضاربون في نيويورك اقتناص جزء كبير من الدين القديم بأسعار تقل كثيرا عن الأسعار التي اقترح هاملتون استرداده بها.

وثارت حفيظة البعض من أن أرباح المضاربين كانت مؤكدة بينما لم يكن أولئك الذين اشتروا الدين بأسعار مرتفعة في زمن الثورة ليستردوا المبالغ التي أنفقوها عليها. وأقر جيمس ماديسون أن من حق حملة الدين الأصلي فقط استرداد سنداتهم بقيمتها الكاملة. ولا يحصل المضاربون إلا على القيمة التي أدوها فعلا. لكن ذلك لم يكن مجديا من الناحية العملية. إذ كان من المستحيل - من جانب - تحديد حملة السندات الأصليين.

والأهم من هذا أن هذه الخطوة كانت تقوض قدرة الحكومة على الاقتراض في المستقبل. ولو كانت الحكومة تقرر دائنها الأصلي من بين حملة السندات المتعاقبين لكان الناس سيحجمون عن الاكتتاب على ديونها في المستقبل، ولكان السعر بلغة معدل الفائدة المطلوب أكثر ارتفاعا. وكان اهتمام

هاملتون منصبا على إقامة الدين القومي على أسس أكثر أمانا وقدرة على توفير التمويل اللازم سيرا على نموذج الدين القومي المعتمد في بريطانيا العظمى، وللأغراض نفسها تقريبا التي وظفت فيها بريطانيا ديونها.

ولم يدرك كثير من أعضاء الحكومة الجديدة - غير العارفين بأصول المالية العامة - مدى نجاعة وسيلة الدين العام، إن أحسن تمويله وسداده، في المساهمة في ازدهار البلاد. لكن هاملتون كان يدرك ذلك تماما. وكان من المشكلات الكبرى التي اعترضت الاقتصاد الأمريكي في مطلع العقد الأخير من القرن السادس عشر نقص رؤوس الأموال السائلة الجاهزة لدخول مجال الاستثمار. وأراد هاملتون استخدام الدين القومي في زيادة عرض النقد وتعزيز مرونة هذا العرض. لقد أمكن للمصارف التي كان بحوزتها سندات حكومية إصدار أوراق مالية مدعومة بهذه السندات. وأدت السندات الحكومية دور الضمان للقروض المصرفية مما ضاعف من رؤوس الأموال المتاحة. كما أدرك هاملتون أن هذه السندات ستساعد على جذب مزيد من رؤوس الأموال من أوروبا.

وأخيرا، أقر الكونغرس برنامج هاملتون بعد أخذ ورد. وكان حمو هاملتون، وهو عضو في مجلس الشيوخ من نيويورك، عضوا في الكونغرس الجديد، وكانت بحوزته أوراق مالية حكومية بقيمة ٦٠ ألف دولار. وقد أمل أن يستردها من خلال برنامج هاملتون. وقد ذكر أن معارضة البرنامج أوقفت شعر رأسه «كما لو أن الهنود أطلقوا عليه حرابهم».

كما أراد هاملتون، أيضا، أن تتحمل الحكومة الفدرالية الديون التي أثقلت كاهل عدد من الولايات في القتال الذي شب زمن الثورة. وكان السبب الأساسي الذي حمله على ذلك هو المساعدة في تقوية الاتحاد. وقد كانت معظم سندات ديون الولايات بحوزة مواطنين أثرياء من هذه الولايات. ولو أن هؤلاء وظفوا كثيرا من ثرواتهم في السندات الفدرالية بدلا من السندات الصادرة عن الولاية، لكانوا أكثر حرصا على أن يروا الاتحاد - برمته - يصيب ازدهارا. وقد أيدت اقتراح هاملتون كل الولايات التي كانت لاتزال آنذاك ترزح تحت الدين، وهي في الغالب ولايات شمالية. أما الولايات التي سددت ديونها فعارضت هذا الاقتراح بطبيعة الحال. وعارض جيفرسون وماديسون - وهما من فيرجينيا التي سددت ديونها - هذا الاقتراح بشدة وحشدا أصواتا كانت كفيلة بتعطيل المبادرة. وهكذا تقدم هاملتون بعرض بديل.

ولو توافر عدد كاف من الأصوات لإقرار مشروعه هذا لكان رأى العاصمة الجديدة تقام في الجنوب. فلضمان تعاون بنسلفانيا يجب نقل العاصمة من نيويورك إلى فيلادلفيا مدة عشر سنوات ريثما تبنى العاصمة الجديدة. ووافق جيفرسون وماديسون على ذلك. وأجيز برنامج هاملتون وصدر على شكل قانون بتوقيع الرئيس واشنطن، الذي كان متحمسا لفكرة بناء العاصمة الجديدة على ضفاف نهر بوتوماك الأثير إلى قلبه.

وأصاب البرنامج نجاحا سريعا، وبيعت السندات الجديدة في بضعة أسابيع. كما لاقت السندات إقبالا في أوروبا بعدما تبينت كفاية عوائد التعرفات الجمركية لخدمة الدين الجديد. وفي العام ١٧٨٩ كانت الولايات المتحدة بلدا معسرا ماليا غير قادر على تسويق ديونه والتزاماته المالية، فانعدمت قدرته على الاستدانة. أما في العام ١٧٩٤ فكان تصنيفه الائتماني هو الأعلى في أوروبا، فبيعت بعض السندات الأمريكية بعلاوة ١٠٪ على قيمتها الاسمية.

ويشرح ذلك تاليراند Talleyrand، الذي هرب إلى الولايات المتحدة من الاضطهاد الديني، والذي سيشغل في ما بعد منصب وزير الخارجية الفرنسية. إذ رأى أن السندات كانت «مضمونة ولا تعاني من مخاطر الإعسار. فقد جرى تمويلها على نحو سليم، وكان البلد يحقق ازدهارا سريعا بدد الشكوك في ملاءته المالية».

كان يمكن لتاليران أن يشير أيضا إلى أن رغبة الحكومة الفدرالية الجديدة في تحمل الديون القديمة - بدلا من رفض الاعتراف بذلك لعوامل مالية أو لمكاسب سياسية قصيرة الأجل - قد ساعدت كثيرا على كسب ثقة المستثمرين. إن قدرة الحكومة الفدرالية على الحصول على قروض كبيرة عند معدلات فائدة ميسرة في أوقات الطوارئ - في حالات الحرب الأهلية والكساد الكبير - كانت من الأدوات الاقتصادية الناجعة على المستوى القومي. إننا، إذا جاز القول، مدينون بذلك لسياسات ألكساندر هاملتون التي وضعت موضع التطبيق عند فجر الجمهورية. إنه إرث كبير.

وبالتأكيد، كان لهاملتون - ومعه الولايات المتحدة - حسن الطالع عندما اندلعت إحدى الحروب الأوروبية الكبرى في عام ١٧٩٣ بعد إعدام لويس السادس عشر على المقصلة، إذ عاد ذلك برواج كبير على التجارة الخارجية الأمريكية وعلى صناعة الخشب في الولايات المتحدة - التي ساعد انتهاجها

سياسة الدولة المحايدة على حمايتها من القراصنة. وتعاظم طلب أوروبا على المواد الغذائية والمواد الخام من الولايات المتحدة فارتفعت عوائد التعرفات الجمركية للحكومة الفدرالية بمعدلات مماثلة. وفي العام ١٧٩٠ صدرت الولايات المتحدة بضائع بقيمة ١٩,٦٦٦,٠٠٠ دولار، بينما بلغت قيمة الواردات غير المعدة لإعادة التصدير ٢٢,٤٦١,٠٠٠ دولار. وفي العام ١٨٠٧ بلغت قيمة الصادرات ٤٨,٧٠٠,٠٠٠ دولار والواردات ٧٨,٨٥٦,٠٠٠ دولار. كما تجاوزت قيمة الإيرادات الحكومية خمسة أضعاف قيمتها قبل سبع عشرة سنة.

أما الركن الأساسي الآخر في سياسة هاملتون الضريبية فكان تأسيس مصرف مركزي يطلق عليه اسم مصرف الولايات المتحدة، على غرار مصرف إنجلترا. كان هاملتون ينتظر من المصرف المركزي الاضطلاع بثلاث وظائف. أولا، أن يكون خازنا للأموال الحكومية ويعمل على تسهيل انتقالها بين أرجاء البلاد. وهذه الوظيفة كانت من الاعتبارات الأساسية في الشروط الأولية التي قامت عليها الولايات المتحدة عند نشوئها. ثانيا، أن يكون مقرضا للحكومة الفدرالية والمصارف الأخرى. ثالثا، أن يضطلع بتنظيم عرض النقد (الكتلة النقدية) من خلال الرقابة على المصارف المرخصة على مستوى الولايات.

كان التمويل مشكلة بالغة الحساسية في ذلك الحين. إذ كانت كمية المصكوكات النقدية – العملات الذهبية والفضية – قاصرة كثيرا عن مستوى الطلب. وفي العام ١٧٩٠ لم يكن هناك سوى ثلاثة مصارف مرخصة حكوميا ومخولة بإصدار النقد الورقي، بما فيها مصرف نيويورك الذي أسسه هاملتون. لكن هذه النقود الورقية اقتصرت على التداول المحلي. وقد رأى هاملتون أن قبول مصرف الولايات المتحدة لهذه النقود الورقية المحلية بقيمتها الاسمية، يعني قبول المصارف الأخرى بها، مما سيوسع نطاق التداول. أما إذا رفض مصرف الولايات المتحدة النقد الصادر عن مصرف بعينه – بسبب حالات اختلال آلية خلق النقد أو وجود فائض في النقد المتداول – فسترفض المصارف الخاصة تلك النقود الورقية أيضا، مما سيحد من حركة المصارف المرخصة على مستوى الولايات.

لقد تعلم هاملتون ألا يركن إلى فكرة تولي الحكومة بنفسها إصدار النقد الورقي، على اعتبار أن الحكومة ستعجز في أوقات الحاجة عن مقاومة إغراء حل مشكلاتها النقدية باللجوء إلى إصدار النقد وحسب. ولم يبد الكونغرس القاري أي قيود زمن الثورة، لكنه – على الأقل – تذرع بأنه لا خيار أمامه. وقد

أثبت تاريخ النقد الورقي منذ أيام هاملتون أنه كان على صواب. إذ كان السياسون - من دون استثناء - يسيئون استخدام سلطة إصدار النقد كلما أتيح لهم استخدامها. حيث انعكس ذلك بثمن باهظ على الحالة الاقتصادية للبلد.

واقترح هاملتون تأسيس مصرف برأسمال ١٠ ملايين دولار. ولم يكن هذا بالمبلغ العادي، خصوصا إذا أخذنا في عين الاعتبار أن مجمل رأسمال المصارف الثلاثة المرخصة على مستوى الولايات آنذاك كان لا يتجاوز مليوني دولار. وستملك الحكومة ٢٠ في المائة من رأسمال المصرف و٢٠ في المائة من مقاعد مجلس إدارته. وسيكون لوزير الخزينة الحق في الاطلاع على دفاتر المصرف متى شاء. أما باقي رأسمال المصرف فسيذهب إلى ملكية خاصة.

وكتب هاملتون في تقريره «حول مصرف وطني» الذي رفعه إلى الكونغرس في ١٤ ديسمبر ١٧٩٠: «لإيلاء ثقة كاملة لمؤسسة من هذا النوع، من الضروري جدا أن يخضع بهيكله التنظيمي لإدارة خاصة لا عامة - وسيرا على المصلحة الفردية لا السياسة العامة؛ التي يفترض أن تكون في حال الطوارئ - بيد إدارة متعسفة - عرضة للتأثر الشديد ***بالأولويات العامة***».

وأقر الكونغرس مشروع القانون من دون معوقات تذكر، حيث انقسم كلا مجلسيه تبعا للمصالح المحلية الضيقة. ولم يصوت ضد المشروع إلا أحد أعضاء الكونغرس عن الولايات التي تقع إلى شمال ماريلاند، بينما صوت ثلاثة أعضاء عن الولايات التي تقع إلى جنوبها لمصلحة المشروع. واعتقد هاملتون أن المشروع صار ناجزا.

لكنه لم يعول على توماس جيفرسون - وكان حينها وزيرا للخارجية - وجيمس ماديسون الذي كان عضوا في مجلس النواب. ومع أن جيفرسون انغمس بما أوتي له في مباهج باريس التي لا تنتهي حينما كان سفيرا لدى الملك لويس السادس عشر بموجب الأحكام الاتحادية، فقد اعتمل في داخله نفور سياسي عميق من المدن والتجارة التي كانت رائجة فيها.

كانت المصارف تجسد في نظره أبشع صور الاستغلال المالي التي كان يمقتها بشدة. وكتب إلى جون آدام في سابق عهده: «لطالما كنت عدوا للمصارف.. ومتحمسا جدا في محاربة هذه المؤسسات كما كنت صريحا جدا في معارضة تأسيس مصرف الولايات المتحدة، مما جعلني عرضة للاتهام بالجنون من قبل عصبة من أرباب الصيرفة المتشدقين bank mongers الذين كانوا يسعون لابتزاز الأرباح من العامة بطرق الخداع ومن دون وجه حق».

وقد ورث جيفرسون - وهو سليل أسرة بالغة الثراء في المستعمرات الأمريكية - عند وفاة والده أكثر من خمسة آلاف فدان من الأرض وثلاثمائة من العبيد، وأنفق المال طيلة حياته بازدراء من لا يخشى الفقر. ولذلك توفي غارقا في الدين وقد أفلس من كل شيء إلا اسمه. وعلى النقيض من أسلوب حياته الأرستقراطي، فإنه كان يرى في أمريكا المستقبل أرضا يعمرها مزارعون مكتفون ذاتيا أو شكلا من الطوباوية «الريفية» التي لم يكن لها وجود على أرض الواقع، والتي ستنافي حالة الاقتصاد الأمريكي الذي حقق نموه الحقيقي في عصر الصناعة وكانت هذه ولادته الحقيقية.

لقد عارض جيفرسون وحلفاؤه - ماديسون وإدموند راندولف، المدعي العام، قيام المصرف الذي اقترحه هاملتون بكل ما أوتوا من قوة. وقدموا آراء للرئيس واشنطن تشكك في دستورية المصرف. ودارت حججهم حول ما سمي «بفقرة الدستور الضرورية واللازمة» التي تعطي للكونغرس صلاحية سن القوانين «الضرورية واللازمة» للعمل على تفعيل الصلاحيات السابقة.

وقد قامت حجتهم على أن الدستور لا يمنح الكونغرس صلاحيات تأسيس المصارف، إلا إذا دعت الضرورة. وقد صارت هذه «القراءة المتشددة» للدستور كانت جزءا من الأساس الذي قامت عليه شؤون السياسة في الولايات المتحدة منذ ذلك الحين، مع أن جيفرسون نفسه اعترف بأنها راقت أساسا لأولئك الذين كانوا خارج صفوف السلطة. لكن جيفرسون - بصفته رئيسا - لم تمنعه حقيقة أن الدستور لا يسمح بحيازة أرض من دولة أجنبية من شراء لويزيانا عندما سنحت الفرصة.

ولوح هاملتون معترضا بمبدأ «الصلاحيات الضمنية». فرأى أن الحكومة الفدرالية لو أرادت إنجاز وظائفها الكثيرة بصورة ناجعة، فإن عليها أن تسمو بنفسها عند وضع آلية الإنجاز. وكتب إلى واشنطن قائلا: «إن عدم وجود فقرة تحريمية في نص الدستور يمكن أن يقوض المسلمات التي هي وليدة المفهوم العام للحكومة. ولا شيء يتجاهل فكرة وجود السلطة سوى التظاهرات». وأكد أيضا أن للكونجرس الحق في تقرير الوسائل اللازمة والضرورية. فكتب «إن الحكومة الوطنية، مثلها مثل أي حكومة أخرى، يجب أن تحدد في المقام الأول الاستخدام الأنسب لصلاحياتها». وهكذا وقع واشنطن مشروع القانون بعد أن تبددت مخاوفه.

وأصابت مبيعات أسهم المصرف نجاحا مدويا، حيث توقع المستثمرون أن يحقق المصرف أرباحا عالية، وهذا ما كان. كما عمل المصرف بالآلية التي توقعها له هاملتون. وارتفع عدد مصارف الولايات من ثلاثة في العام ١٧٩٠ إلى ٢٩ مع مطلع القرن الجديد وأصبح عرض النقد في الولايات المتحدة أكثر استقرارا وتكاملا مما كان عليه في أكثر الدول الأوروبية.

ومع النجاح الذي حققته مبيعات أسهم مصرف الولايات المتحدة شهدت أسواق الأوراق المالية الناشئة حديثا في نيويورك وفيلادلفيا أول موجاتها الصعودية في أسهم المصارف. وأسست فيلادلفيا - وهي السوق المالية الرائدة في البلاد آنذاك، بفضل اتخاذ مصرف الولايات المتحدة مقره فيها - بورصة للأوراق المالية في العام ١٧٩٢. وفي نيويورك وقعت مجموعة من واحد وعشرين سمسارا مستقلين وثلاث شركات اتفاقية سميت «اتفاقية باتون وودز (*) Baton Woods - وذلك لأنها أبرمت - وفق العرف السائد على الأقل - تحت شجرة الدلب (اسمها الشائع اليوم شجرة الدلب الغربي (الجميز) خارج بناء ٦٨ في وول ستريت. وتعهد أولئك المجتمعون بموجب هذه الاتفاقية بعضهم لبعض «بدءا من اليوم بعدم بيع أي شكل من الأسهم المطروحة للتداول العام أو شرائه من أي كان بسعر أقل من عمولة ربع سنت على قيمته الاسمية، وبأن يعطي كل منا الآخر الأولوية في مفاوضاتنا السعرية». لقد مثلت هذه المجموعة الجديدة التي شكلها السماسرة اتحادا الغرض منه تقييد التداول، ومخططا لتثبيت الأسعار أكثر منها تنظيما رسميا. لكنها كانت نواة لما يعرف اليوم ببورصة نيويورك.

وارتفعت فقاعة كبيرة من التساؤلات في نيويورك تركزت على أسهم مصرف نيويورك. وانتشرت شائعات بأن مصرف الولايات المتحدة الجديد سيشتري مصرف نيويورك ويحوله إلى فرع له في نيويورك. وأعلن تأسيس عدد من المصارف الأخرى، وتلقف الجمهور أسهمها أو ما كان يعرف عموما بحقوق شراء أسهمها عند طرحها. وأعلن مصرف تاماني Tammany عرض ٤ آلاف سهم للبيع، وتلقى طلبات اكتتاب لشراء ما لا يقل عن ٢١,٧٤٠ سهما.

هذا «السعار» في تداول أسهم المصارف إنما سببه أساسا مضارب افتقد النزاهة والشرف، هو ويليام دوير William Duer. فقد عمل لمدة وجيزة لدى الخزانة ومن ثم استقال خروجا على الشرط الذي وضعه هاملتون، الذي يمنع

(*) باتون وود: تعني بالعربية شجر الدلب [المترجم].

موظفي الخزانة من المضاربة في الأوراق المالية الصادرة عن الخزانة. وراع هاملتون ما كان يجري في وول ستريت. فكتب في مارس ١٧٩٢ قائلا: «حان الوقت لتمييز الشريف عن المحتال، وحملة الأسهم والمتعاملين النزيهين عن المقامرين الذين تعوزهم مبادئ الشرف».

ولم يمض وقت طويل قبل أن تنهار مخططات دوير «المحكمة»، وأودع في سجن المدينين الذي لن يخرج منه قبل وفاته. ودب الرعب في وول ستريت أول الأمر، وأعلن في اليوم التالي ٢٥ انهيارا في مؤسسات نيويورك التي كانت آنذاك لاتزال تجمعا ماليا بسيطا، وأصاب أحد هذه الانهيارات جماعة ليفنغستون المتنفذة.

كان جيفرسون سعيدا بتعاقب الأحداث على هذه الشاكلة. فكتب إلى صديق له: «أخيرا انفجرت فقاعتنا الورقية. لقد عصف إفلاس دوير في نيويورك سريعا بآخرين أمثاله، كان ذلك شبيها بتساقط القناني الخشبية التي يرطم بعضها بعضا». وقدر جيفرسون - الذي كان ميالا إلى الإحصاء - أن الخسائر الكلية بلغت خمسة ملايين دولار، وهذا برأيه ما كان يعادل القيمة الكلية لعقارات نيويورك في ذلك الحين. وهكذا كتب جيفرسون - يغمره السرور - أن الرعب كان مثل كارثة طبيعية سحقت المدينة».

لكن الوضع لم يكن، في الحقيقة، على هذه الدرجة من السوء، خصوصا مع تحرك هاملتون السريع لإعادة الاستقرار إلى السوق والحيلولة دون أن تقوض موجة الهلع مؤسسات تمتلك أساسا موجبات الاستقرار والسلامة. وأصدر أوامره للخزانة بشراء أوراقها المالية (المطروحة في التداول) لتعزيز استقرار السوق وأن تطرح في التداول مزيدا من السيولة - بعد أن أجاز تسديد التعريفات الجمركية التي كانت تدفع فقط بالعملة المعدنية أو بالأوراق النقدية المصرفية الصادرة عن مصرف الولايات المتحدة - وذلك بكمبيالات تستحق السداد بعد ٤٥ يوما.

إن النظام الذي تصوره هاملتون ووضعه في التطبيق في ضوء المعارضة المتزايدة من توماس جيفرسون وحلفائه السياسيين قد سار كما خطط له هاملتون. فأفلس عدد من المضاربين على الرغم من انخراطهم في اللعبة وهم واعون لمخاطرها، ولذلك ما كانوا ليلوموا إلا أنفسهم. أما المؤسسات المالية حديثة النشأة فقد تجاوزت المحنة، وكتب هاملتون «لن تقع أي كارثة عامة

مادامت هذه المؤسسات تحافظ على استقرارها وسلامتها». وانتهت موجة الهلع سريعا، وتسنى لأكثر السماسرة الوقوف ثانية على أرجلهم بفضل الإجراءات السريعة التي اتخذها هاملتون.

لكن، ولسوء الطالع، كان توماس جيفرسون سياسيا محنكا أكثر من هاملتون وكان أيضا أكثر ميلا لحمل الضغائن والأحقاد. ولم يحمله نجاح مصرف الولايات المتحدة ودوره الدستوري الجلي لمصلحة الاقتصاد والإدارة السلسة لدفة الحكومة على تغيير نظرته إلى المصارف، فقد كرهها كلها. وسيتولى الحزب الذي تشكل حول توماس جيفرسون مقاليد السلطة في انتخابات العام ١٨٠٠ ولن يخسرها لأكثر من جيل كامل. في ذلك الحين سيعمل هذا الحزب على تقويض نظام الرقابة المالية الذي وضعه هاملتون ولن يأتوا ببديل له.

وبالنتيجة، سيكون الاقتصاد الأمريكي - على الرغم من نموه الهائل - أكثر الاقتصادات تقلبا في العالم الغربي وذلك بفعل دورة لا تنتهي من الازدهار والانحدار، التي فاقت بحجمها كثيرا مراحل النمو والتراجع الطبيعية في الدورة التجارية. وفي السنوات المائة والخمس والتسعين التالية لن تتدخل السلطات النقدية الأمريكية - ولن تكون قادرة على التدخل - بصورة ناجعة لاستئصال حالة الهلع التي ضربت الأسواق قبل انفلاتها من السيطرة.

لقد كان توماس جيفرسون - وهو من أحذق الرجال - عاجزا نفسيا عن دمج الحاجة إلى آلية تنظم عمل النظام المصرفي الناشئ أو عمل المصارف مجتمعة في فلسفته السياسية. لقد سار معجبوه - وأكثرهم ممن يقلون عنه ذكاء - على هدي سياسته طوال أجيال شهد فيها البلد والعالم تغيرات تجاوزت حدود الإدراك. وكنتيجة مباشرة ستحيق الكوارث الاقتصادية بالولايات المتحدة كل عشرين عاما تقريبا لأكثر من قرن من الزمان.

5

تآزرات رهيبة

لا شيء يؤكد مقولة جون دون Donne إننا كلنا جزء من القارة، أكثر منا جزءا من عالم الاقتصاد. فهذا الاقتصاد يقوم - بالتعريف - على تبادل لا نهائي للسلع بين الأفراد والصناعات والأمم، وهذا يمثل أكثر الشبكات تعقيدا في دنيا البشر. فعندما يطرأ تغيير ما على ركن ما من ذلك الاقتصاد فإنه يصيب كل أركانه الأخرى. وعندما يحدث أن يتفاعل تطوران منفصلان - بصورة جوهرية - فيمكن أن ينجم عنهما تآزر اقتصادي عظيم ورهيب.

وخير مثال على ذلك هو ما حدث عندما اعتملت فكرة بسيطة وعبقرية في ذهن شاب من نيوإنغلاند للنهوض بالزراعة الكاسدة في المناطق الجنوبية، وتفاعلت (الفكرة) مع بوادر الثورة الصناعية في ميدلاندز بإنجلترا. فإلى جانب الوصول إلى أكثر المحاصيل ربحية في التاريخ الأمريكي فقد ساعدت الفكرة على إعادة إحياء المنظومة المتداعية لعمل الرقيق، التي أوشكت أن تقضي على الولايات المتحدة.

«لن تجرؤ قوة فوق الأرض على أن تشن حربا لأجله، فالقطن ملك»

جيمس هنري هاموند

كانت تجارة صبغ النيلة في كارولينا الجنوبية وجورجيا من بين الكوارث الاقتصادية الكبرى التي جاءت بها الثورة الأمريكية. ذلك أن الإنديغوفيرا تينكتوريا Indigofera Tinctoria وهو نبات أصله آسيا الوسطى وشمال إفريقيا، يعطي صبغا أزرق اللون كان عليه طلب كبير في صناعة الملابس في بريطانيا. أما أجود أصناف النيلة فكانت تأتي من إسبانيا وفرنسا. ولكن، وبحكم العلاقات الإمبريالية، فقد فتح السوق البريطاني - وكان أكبر أسواق العالم - أمام الواردات من جورجيا وكارولينا الجنوبية. وفي نهاية العصر الاستيطاني كانت صناعة النيلة توظف ١٠ في المائة من الرقيق في المستعمرات الأمريكية.

وتحولت بريطانيا بعد استقلال أمريكا إلى الهند لتأمين وارداتها من النيلة. ومن دون السوق البريطانية انهارت صناعة النيلة في كارولينا الجنوبية وجورجيا سريعا. وظل الأرز، وهو عماد مزارع كارولينا، محصولا رابحا. لكن نموه بات يعتمد الآن على السوق الأمريكية صغيرة الحجم. وهكذا أصبح ازدهار أقاصي الجنوب Deep South في اقتصاد ما بعد الحقبة الاستعمارية يتطلب محصولا رابحا جديدا.

كان القطن أحد الخيارات المتاحة، إذ كان يزرع أساسا في سي آيلاندز Sea Islandsالتي تمتد على طول ذلك الجزء من الساحل المطل على المحيط الأطلسي. لكن هذا القطن طويل التيلة - أو ما يسمى اليوم بالقطن المصري - لم تكن زراعته ممكنة في المناطق الداخلية - مهما كانت موغلة في العمق - لأنه يتطلب فصل إنبات طويلا جدا وتربة رملية. وبالفعل فلم تزرع مساحات واسعة منه عندما صدرت أول إبالة (رزمة) منه إلى إنجلترا في العام ١٧٨٤، وهي أولى شحنات الصادرات الأمريكية، ولم تكن تلبي قوانين الملاحة البريطانية. هذه القوانين كانت تشترط أن ترد المنتجات الخام إلى الموانئ البريطانية في سفن بريطانية أو في سفن بلد المنشأ. وقد رفض موظفو الجمارك الاقتناع بوجود ما يسمى بالقطن الأمريكي. وتركت شحنة القطن تتلف على أرصفة موانئ ليفربول.

أما القطن قصير التيلة أو ما يعرف بقطن النجود فلا يحتاج إلا إلى فصل إنبات من مائتي يوم، كما أن أحوال التربة اللازمة لزراعته ليست عاملا مؤثرا، مع أن أصلح أنواع التربة لزراعته هي التربة الطفالية (*)، وكانت زراعته ميسرة في مرتفعات كارولينا الجنوبية وجورجيا. لكن مشكلة كبيرة كانت تعترض ذلك. إذ على خلاف قطن سي لاند، كانت بذور هذا القطن

(*) التربة الطفالية: تربة مكونة من طين ومواد عضوية ورمل [المترجم].

(قطن المرتفعات) دبقة وتعلق بشدة بالخيوط المحيطة بها. وكان فصل البذور عن النسيل - كما تسمى خيوط القطن - عملا يستنزف كثيرا من الوقت. إذ بينما كان يتطلب من العامل قطف نحو خمسين رطلا من أزهار القطن في اليوم الواحد، فقد تطلب فصل البذور يدويا عن تلك القطفة خمسة وعشرين يوما من العامل الواحد بعملية عرفت منذ ذلك الحين بالحلج Ginning.

وكما كانت الحال في كثير من مفاصل تاريخ الاقتصاد الأمريكي، ساعدت فطنة اليانكي على حل المشكلة. لقد ولد إيلي ويتني Eli Whitney في ويستبورو بماساتشوستس في العام ١٧٦٥، لمزارع كان صاحب مشروع صناعي صغير ينتج سلعا لمصلحة المزارعين الآخرين الذين لم تتوافر لديهم الخبرة الكافية لإنتاجها بأنفسهم. وأثبت إيلي سريعا أنه صاحب مهارة مميزة في حقل الميكانيك وإدراك ثاقب لمتطلبات السوق. وبينما كان لايزال طفلا زمن الثورة، عندما كان العرض المتاح من المسامير لا يفي بالطلب عليها، اقترح على والده تأسيس ورشة حدادة لتصنيع المسامير. وحقق المشروع نجاحا جعله يفكر في استئجار مساعد له.

بعد التخرج في جامعة ييل Yale في العام ١٧٩٣، قبل ويتني بوظيفة معلم في كارولينا الجنوبية. في طريقه إلى هناك عرج على صديق له اسمه فينياس ميلر، الذي كان يدير مزرعة في جورجيا تملكها أرملة الجنرال ناثانيل جرين. وهناك شاهد ويتني بأم عينيه زراعة القطن لأول مرة. وعلى الفور كتب إلى والده قائلا: «لقد سمعت كثيرا مما يقال عن الصعوبات البالغة التي تكتنف حلج الأقطان، ثمة مجموعة من السادة الأفاضل في مزرعة السيدة غرين قبلوا كلهم فكرة أن تصنيع آلة لتنظيف القطن بسرعة سيكون شيئا عظيما لمصلحة البلد والمخترع. لقد حدث من دون نية مسبقة مني أن فكرت في الموضوع، وتصورت مخطط الآلة في خيالي».

لقد كانت الآلة غاية في البساطة. فقد ثبت ويتني مدحاة (أسطوانة) بالشفرات مباعدا بينها بمقدار نصف بوصة. وعندما أديرت المدحاة كانت الشفرات تمر عبر شبكة معدنية فتسحب نسيل القطن من الأسفل من خلال هذه الشبكة مخلفة وراءها البذور. وكانت ثمة فرشاة دوارة تزيل النسيل عن الشفرات إلى الحاوية، أما البذور فكانت تفرز إلى حاوية أخرى. بهذا المحلج الذي ابتكره ويتني أمكن للعامل أن ينجز في يوم واحد ما كان يتطلب جهد

خمسة وعشرين عاملا في يوم واحد. وما كان هناك بالتالي أي لبس في المنفعة الاقتصادية لهذه الآلة. وقد سرق من ويتني أول نموذج وضعه، لكنه حصل على براءة اختراع على نموذج جديد مطور في العام التالي، وبالمشاركة مع فينياس ميلر أقام مصنعا لإنتاج آلات حلج القطن قرب نيوهافن New Haven في كونيكتيكت.

ولسوء طالع ويتني ميلر، كانت فكرة محلج القطن بسيطة جدا فلم يصعب على أي نجار متمرس صناعة محلج في شطر النهار، وتبينت استحالة إنفاذ براءة الاختراع مع انتشار زراعة القطن والارتفاع الكبير في الإنتاج. وأنفق ويتني سنوات في إقامة الدعاوى القضائية المكلفة على منتهكي حقوق براءة الاختراع، ولم ينل حقوقه حتى العام ١٨٠٧ حين لم يتبق وقت طويل على نهاية مدة براءة الاختراع.

ومع أن ويتني لن يحصل إلا على ١٠٠ ألف دولار فقط، فإن هذا المبلغ كان يعد «ثروة لا بأس بها» بمعايير مطلع القرن التاسع عشر من ابتكار غير وجه العالم بكل معنى الكلمة. وعلى الرغم من هذا، فإن المبلغ لم يأت من جعالات براءة الاختراع، بل من حكومات الولايات التي شعرت بالامتنان لقاء هذا الصنيع. وأقرت كارولينا الجنوبية لويتني مبلغ ٥٠ ألف دولار، من خزينة الولاية للتعويض عن انتهاكات حقوق البراءة. وفرضت كارولينا الجنوبية ضريبة على القطن لمدة خمس سنوات تعويضا له وهذا ما عاد عليه بمبلغ ٣٠ ألف دولار تقريبا. وقدمت تينيسي ١٠ آلاف دولار.

كان أثر محلج القطن في اقتصاد الجنوب وفي اقتصاد الولايات المتحدة إجمالا أثرا كبيرا. فقد أنتجت الولايات المتحدة في العام ١٧٩٣ نحو خمسة ملايين رطل من القطن، معظمها من إنتاج سي آيلاندز. هذه الكمية كانت دون ١ في المائة من إجمالي محصول العالم من القطن، الذي كان معظمه يزرع في الهند. ومع حلول العقد الأول من القرن التاسع عشر وبفضل محلج القطن ارتفع إنتاج الولايات المتحدة ثمانية أضعاف ليصل إلى أربعين مليون رطل. وازدادت صادرات أمريكا السنوية من القطن إلى أوروبا إلى نحو خمسين ألف إبالة.

ومنذ ذلك الحين تضاعف إنتاج أمريكا من القطن كل عقد وسطيا ليصل إلى ملياري رطل في العام ١٨٦٠ وكانت الولايات المتحدة تنتج في العام ١٨٣٠ نصف إنتاج العالم من القطن وبعد عقدين ارتفعت النسبة إلى ٧٠ في المائة تقريبا، ثلاثة أرباعها كانت تصدر إلى الخارج.

وتحولت أقاصي الجنوب إلى أفضل بقاع زراعة القطن في العالم. ولما صارت زراعة القطن ممكنة بشروط عالية الربحية في منطقة بيدمونت بكارولينا الجنوبية وجورجيا - وهي مسرح رواية ذهب مع الريح Gone with the Wind) - فقد حققت زراعة القطن أقصى مردودها في التربة الخصبة للحزام الأسود في ألاباما والتربة الطموية العميقة في دلتا نهر الميسيسبي، حيث ازدهرت زراعة القطن أكثر من أي بقعة على وجه الأرض.

وشهدت كل هذه المناطق الجديدة انفتاحا، وتحول مركز إنتاج القطن الأمريكي غربا. كانت كارولينا الجنوبية الولاية هي الرائدة في إنتاج القطن حتى العقد الثالث من القرن التاسع عشر عندما احتلت جورجيا مركز الريادة لتحل محلها بعد عقد من الزمن ولايتا ميسيسبي وألاباما. وأصبحت لويزيانا مباشرة منتجا رئيسا للقطن، وكانت هذه الولايات الخمس تنتج ثلاثة أرباع القطن الأمريكي زمن الحرب الأهلية. وليس من قبيل المصادفة أن هذه الولايات - إضافة إلى الولايات الأخرى المنتجة للقطن مثل فلوريدا وتكساس - كانت أولى الولايات التي انسحبت من الاتحاد بعد انتخابات العام ١٨٦٠.

وعلى الرغم من أن سعر القطن انخفض إلى مستوى جعله في متناول السوق الجماهيرية - بفضل محلج القطن - فإن القطن ظل محصولا يحتاج إلى كثافة في عنصر العمل. فقد كان الفدان الواحد من القطن يتطلب أيديا عاملة تزيد بنسبة ٧٠ في المائة على الأيدي العاملة اللازمة لفدان الذرة. ومن أسباب ذلك أن القطن عرضة لهجمات الأعشاب الضارة ويتطلب تعشيبا منتظما. كما أن قطاف القطن أيضا عمل مجهد في درجة الحرارة الشديدة التي اتسمت بها فصول الصيف في المناطق الجنوبية. ومع ذلك فقد كانت ثمة أعداد كبيرة من العاملين المستعدين للقيام بهذا العمل: إنهم العبيد. وكما رأينا كانت ظاهرة الرقيق قد بدأت في الانحسار في أواخر القرن الثامن عشر، مع تحول الرأي العالمي نحو إدانتها بشدة.

وبدأت حملة إلغاء الرق فورا بعد اندلاع الثورة. ولا عجب أن المناطق التي لم تعتمد اقتصاداتها كثيرا على عمل الرقيق كانت المبادرة في هذه الحملة. وألغت فيرمونت، مع إعلانها استقلالها عن بريطانيا في العام ١٧٧٧، الرق أيضا، وكانت بذلك أول منطقة في نصف الكرة الغربي تعلن بطلان ممارسة الرق. وسارت على خطاها الولايات الشمالية الأخرى من دون تردد. وحتى نيويورك، التي كان يعمل فيها نحو ١٩ ألفا من الرقيق في العام ١٧٩٠ (أو ما

يعادل ٥,٥ في المائة من عدد السكان)، بدأت تحرير العبيد تدريجيا منذ العام ١٧٩٩، ولم يحل العام ١٨٢٧ إلا وكانت قد حررت كل عبيدها. وقد حظر قانون الشمال الشرقي Northwest Ordinance في العام ١٧٨٧ الرقيق شمال نهر أوهايو.

وفي الجنوب صار تحرير العبيد أمرا دارجا، وحرر الكثير من أصحاب المزارع - ومن بينهم جورج واشنطن - عبيدهم عند وفاتهم. وفي العام ١٧٨٧، ارتأى المؤتمر الدستوري ليس فقط أن من اللازم بغية الوصول إلى اتفاق، ألا تحظر تجارة الرقيق قبل العام ١٨٠٨، إنما أيضا جعل تلك الفقرة غير قابلة التعديل. لكن الرأي العام انقلب في العام ١٨٠٨ - حتى في المناطق الجنوبية ضد تجارة الرقيق إلى حد دفع الكونغرس إلى إبطالها بحكم القانون فور أن تسنى له ذلك في الأول من يناير في ذلك العام. (كان إلغاء تجارة الرقيق ومحاربتها أيضا مسألتين مختلفتين في واقع الحال. وستنشغل قوات البحرية في مكافحة هذه التجارة في معظم السنوات الخمسين اللاحقة). وبدأت أسعار العبيد بالتراجع في معظم فترة أواخر القرن الثامن عشر.

لكن القطن قلب كل الموازين، فبعد العام ١٧٩٣ ارتفعت أسعار العبيد. إذ بيع العبد الذي كان ثمنه ٣٠٠ دولار قبل ظهور محالج القطن بمبلغ ٢٠٠٠ دولار وأكثر مع حلول العام ١٨٦٠، وتراجعت رغبة ملاك العبيد - الذي وجدوا في أيديهم سلعة تزداد قيمة - في أن يبيعوا ما أصبح في العقود الأولى من القرن التاسع عشر استثمارا رأسماليا ذا قيمة عالية. كما أن أجزاء من الجنوب لم تعرف بزراعة القطن انخرطت في معاملاتها الاقتصادية في الدفاع عن مفهوم ما صار يعرف باسم «المنظومة المميزة للجنوب»، ومع تراجع مكانة التبغ في اقتصاد الولايات مثل فيرجينيا وماريلاند بدأت ببيع ما فاض على حاجتها من العبيد إلى الولايات التي بدأت لتوها في زراعة القطن. وبين العامين ١٧٩٠ و١٨٦٠ بيع نحو ٨٣٥ ألف عبد في ولايات الجنوب.

وفي وقت بدت فيه مظاهر الرق في كل أنحاء الجنوب، فإنه لم ينتشر كثيرا بين السكان، وفي العام ١٨٦٠ - حينما تجاوز عدد السكان البيض ثمانية ملايين نسمة، كان بينهم ٣٨٣,٦٣٧ مالك عبيد، ومن هؤلاء كان هناك ٢,٢٩٢ ممن كان لهم أكثر من مائة عبد. لكن العبودية التصقت بواقع الجنوب وأسلوب الحياة فيه. وظل الجنوب مصدرا أساسيا للمواد الخام بينما ارتفعت درجات التنوع في

اقتصاد الشمال. حتى أن القطن المنتج في الجنوب كانت تجارته تجري في نيويورك. وبسبب الرق استقطب الشمال المهاجرين المهرة حيث توافرت كثير من الفرص، بينما اكتسب رأس المال البشري في الشمال - المنحدر من السكان الأصليين من غير العبيد - المهارات اللازمة في العالم الصناعي الجديد الذي كان يتخلق في البلدان المتطورة. وظل الجنوب اقتصادا يغلب عليه الطابع الزراعي ومصدرا للمواد الخام للاقتصادات الأكثر تقدما في المناطق الأخرى.

وسيرتفع إنتاج القطن في أقاصي الجنوب بمعدلات كبيرة بفضل الارتفاع الكبير في الطلب على القطن على جانبي المحيط الأطلسي. وأصبحت حياكة الملابس، وهي عمل منزلي منذ أقدم العصور، في أواخر القرن الثامن عشر أول صناعة كبرى في زمن الثورة الصناعية. وفي مطلع القرن الثامن عشر كان القطن يعد من الأقمشة الترفية لأن إنتاجه كان عملا يتطلب كثافة في الأيدي العاملة، وذلك لأن نسيل القطن يميل بطبيعته إلى الالتفاف مما يجعل غزله يدويا أصعب كثيرا من غزل الصوف أو الكتان أو حتى الحرير. وقد تطلبت ما قدره عشرون يوما للعاملة الواحدة (ذلك أن العاملين في غزل الخيوط كانوا دائما من النساء، وهذا هو أصل كلمة الغزالة باللغة الإنجليزية Spinster) لغزل رطل من القطن في خيوط.

كانت أعمال الغزل تتم في المنازل وفق نظام المشاغل putting out، وكان رب العمل يوفر للعمال المواد اللازمة، ومن ثم يدفع لهم بالقطعة عن العمل المنجز. وقد تطلب الأمر أربعة غزالين - بالمتوسط - لتوفير حاجة النول الواحد. لكن اختراع جون كي John Kay للمكوك الطائر Flying Shuttle في العام ١٧٣٣ أحدث اختلالا في الوضع الراهن لأنه سهل أعمال الحياكة كثيرا. فقد كانت الحاجة تستدعي إما زيادة في عدد عمال الغزل وإما تطبيق طريقة أسرع في الغزل.

وفي العام ١٧٦٤ ابتكر جيمس هارغريفز James Hargreaves مكوك الغزل spinning jenny الذي أتاح إمكان غزل ثمانية خيوط في الوقت نفسه، وبعد خمس سنوات أضاف إليها جيمس أركرايت James Arkwright تحسينا تجلى في الإطار المائي water frame الذي اشتق اسمه من تشغيله بالدولاب المائي. هذه الآلية ساهمت في ارتفاع إنتاج الخيوط وتسريع عمل الحياكة آنذاك، وطور المبجل إدموند كارترايت النول الآلي في العام ١٧٨٥، وتطلبت الآلة الجديدة التحول من الإنتاج المنزلي بطريقة المشاغل إلى الإنتاج المصنعي الذي يقوم على العمل المأجور بالساعة.

وارتفع إنتاج الملابس القطنية بصورة درامية. وفي العام ١٧٦٥ بلغ إنتاج غزول القطن في بريطانيا خمسة آلاف رطل كانت معظمها من إنتاج الورش المنزلية. وبعد عشرين عاما وصلت كمية الغزول إلى ستة عشر مليون رطل معظمها من إنتاج المصانع. وانخفض سعر الملابس القطنية كثيرا ما حقق طفرة في الطلب عليها. وهذا ما أدى إلى ارتفاع أسعار القطن الخام، إلى أن ساعد اختراع ويتني على حل مشكلة حلج القطن وخفض تكاليف إنتاجه في مزارع المرتفعات. وهكذا ارتفع إنتاج القطن في أمريكا وبريطانيا معا في ذلك الحين.

ومع نهاية فترة الحرب هيمنت زراعة القطن على اقتصادات بريطانيا ومناطق الجنوب، وبدا أن اقتصادي بريطانيا والولايات المتحدة أصبحا مرتبطين بصورة وثيقة. وكتبت مجلة «الإكونومست» (الاقتصادي) البريطانية في العام ١٨٥٥: «لو أصاب الولايات المتحدة أي اضطراب اجتماعي أو خلل مادي physical فإن أثر تلك الصدمة سيصل إلى إنجلترا من لاندز إند Lands End إلى جون أوكروتز John O'Croates. إن حياة نحو مليونين من مواطنينا تعتمد على محاصيل القطن الأمريكي وربما توقفت أقدارهم - من دون مبالغة - على «خيط قطن». ولو حلت كارثة كبيرة في أراضي القطن لقبعت آلاف من سفن تجارنا عاطلة في مراسيها، ولأوقفت عشرة آلاف مصنع أنوالها الدائرة، ولانتهى ألفا فم إلى التضور جوعا، بسبب نقص الغذاء اللازم لسد رمقهم».

فقد كان الجنوب آنذاك يعتمد - بالقدر نفسه - على السوق البريطانية، ولكنه بدأ يحقق لنفسه قوة متزايدة خصوصا في عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر عندما شرعت أسعار القطن بالارتفاع. وتساءل جيمس هنري هاموند James Henry Hammond عضو مجلس الشيوخ عن كارولينا الجنوبية: «ما الذي يمكن أن يحدث إذا لم يكن ثمة إنتاج من القطن لثلاث سنوات؟ لن أستنكف عن تصور ما قد يدور في أذهان الجميع، لكنه لأمر مؤكد أن بريطانيا سترتد رأسا على عقب وستجر العالم المتحضر معها، باستثناء الجنوب. لا، أنتم لن تجرؤوا علنا على إشعال حرب لأجل القطن. ولا تجرؤ قوة فوق الأرض على أن تشن حربا لأجله، فالقطن ملك. وحتى وقت قريب كان مصرف إنجلترا يحتل هذه المكانة الرفيعة لكنه حاول أن يضع يده على محصول القطن - فوق الخريف ما قبل الماضي - لكن مصيره كان إلى خسارة مبينة. وهكذا انهارت آخر القوى. من يستطيع أن يشكك - في ضوء الأحداث الأخيرة - في مكانة القطن الرفيعة؟».

لقد أضحى الجنوب - بفضل أهمية صادرات القطن بالنسبة إلى الاقتصادات الجنوبية والحاجة إلى استيراد معظم السلع المصنعة - مناوئا بدهيا للتعريفات الجمركية المرتفعة، والمصدر الأساسي للإيرادات الفدرالية في القرن التاسع عشر. لكن، وبفضل القطن وحده صار الشمال - خصوصا نيوإنغلاند - مدافعا عن التعريفات الجمركية المرتفعة. وسيثبت الزمن أن التعريفات الجمركية كانت الخيط الرفيع الذي بزواله انفصمت عرى الاتحاد.

وعندما نصب جورج واشنطن رئيسا في ٣٠ أبريل ١٧٨٩، ارتدى بذلة بنية متواضعة بأزرار فضية وجوارب بيضاء وحذاء بأربطة فضية. لكنه حرص على أن يكون لباسه أمريكي الصنع، حيك في هارتفورد بكونيكتيكيت. وأراد واشنطن الذي أدرك أهمية الرمز - وهذا هو ديدن السياسيين دائما - أن يشجع الصناعات الأمريكية كما كانت السلع الأمريكية تسمى آنذاك - حيث كانت كل الملابس عالية الجودة تستورد في ذلك الوقت من إنجلترا. لكن توظيف التقنيات الصناعية في حرفة الحياكة في بريطانيا في العقود القليلة السابقة منح بريطانيا ميزة تنافسية لا تضاهى، وكانت بريطانيا مصممة على الحفاظ عليها. وقد كان تصدير آلات النسيج محظورا تماما، وإذا كانت الولايات المتحدة تطور صناعة النسيج الخاصة بها، لكان أمامها - والحال كذلك - خياران اثنان. إما أن تعيد بنفسها اختراع ما كان يعد في ذلك الوقت تقنية متطورة، أو أن «تسرق» تلك التقنية. وكان الخيار الأول بعيدا عن الاحتمال، حيث كانت الولايات المتحدة آنذاك تفتقر إلى العمالة الخبيرة بتعقيدات صناعة النسيج.

لذلك لم يبق أمام الولايات المتحدة سوى سرقة تلك التقنية. وعلى الرغم من أن الصحف البريطانية كان محظورا عليها الحديث عن هذه التقنيات على صفحاتها، فإنه تم تداول إعلانات سرية - وهي نوع من النشر غير الرسمي capital samizdat - باليد في مناطق صناعة النسيج في ميدلاند (الأرض الوسطى) مما وفر عوائد كبيرة لكل من كان راغبا وقادرا على بناء آلات النسيج وتشغيلها في الولايات المتحدة. وكان هناك رجل على علم - ولا شك - بهذه المحفزات، واسمه صموئيل سلاتر Samuel Slater ولد في بلبير بديربيشاير في العام ١٧٦٨ في قلب منطقة صناعة النسيج المزدهرة. وتمرس سلاتر، في العام ١٧٨٢، على يد جيديديا ستروتز Jedidiah Strutts مالك مشغل نسيج في بلبير وأحد أوائل الذين أصابوا ثروات من التقنية الجديدة.

كان سلاتر منبهرا بالآلة، وكان يقضي أيام الآحاد في المصنع منكبا على دراسة الآلات والتفكير في طريقة عملها. وقد ابتكر - وهو لايزال في عمر المراهقة - طريقة لتدوير الغزول المنتجة حديثا بالتساوي على المغازل، وكافأه ستروتز بجنيه واحد - أي ما يعادل أجور عام كامل لمتدرب مثله - كما أظهر سلاتر مهارة في الإدارة وأصبح بعد مدة وجيزة مشرفا على المصنع وإصلاح الآلات وبنائها.

وعندما انتهت فترة امتهانه في العام ١٧٨٩ أراد سلاتر السير على خطى معلمه السابق في أن يكون له مصنعه الخاص. لكنه أدرك - بسبب افتقاره إلى رأس المال الكافي - أن أفضل فرصة لتحقيق غايته ستكون في الولايات المتحدة، حيث سيكون الطلب على مهاراته أكبر كثيرا مما هو في بلده الأصلي. وأملت عليه مصالحه الخاصة أن يسلك طريقه عبر الأطلسي. كانت المشكلة تتمثل في كيف يصل إلى هناك. إذ لم تسمح بريطانيا - إلى جانب حظرها تصدير آلات النسيج أو رسوماتها ومخططاتها - أيضا كل من لديه خبرة في صناعة النسيج بالهجرة خارج البلاد.

لكن سلاتر وضع خطة محكمة، وقبل أن يترك العمل لدى ستروتز حفظ عن ظهر قلب كل تفاصيل الآلات التي كانت تحت إشرافه، وبإدراكه يقظة الجمارك البريطانية فإنه لم يذع نواياه ولم يخبر والدته بما خطط له، إلى أن أرسل لها خطابا من لندن قبل ساعات من إبحاره إلى نيويورك حيث أدرج اسمه في سجلات السفينة تحت فئة عمال المزارع.

وقد وطئت قدماه العالم الجديد في ١١ نوفمبر ١٧٨٩، وتناهى إلى علمه سريعا أن موسى براون Moses Brown أحد الأصحاب (الكويكرز) في بروفيدينس، برود آيلاند (وقد سميت جامعة براون على اسم عائلته في العام ١٨٠٤) لديه عدد من آلات الغزل التي كان عاجزا عن تشغيلها. وكتب إلى براون عارضا عليه خدماته. كان براون في غاية السرور عندما أبدى قبوله، إذ رد قائلا: «إننا نفتقر إلى شخص عارف بأعمال الغزل باستخدام الدولاب المائي.. فإذا لم تجر الرياح بما تشتهيه سفنك فتعال واشتغل بآلاتنا وليكن لك الفضل والامتياز في إكمال أول ورشة تعمل بقوة الماء في أمريكا». وقد عرض على سلاتر كل ما يزاد من الأرباح عن مبالغ الفائدة على رأس المال، وهي صفقة ما كان سلاتر ليحصل على نظير لها إطلاقا في ديربيشاير.

وعندما وصل سلاتر إلى بروفيدنس أصيب بالإحباط لأن آلات الغزل لدى براون لم يكن ممكن إصلاحها. وعرض بالمقابل بناء آلات جديدة. وفي الأشهر الاثني عشر التالية عمل سلاتر بتؤدة على بناء الآلة اللازمة لمصنع الغزل. ولأن النجارين والميكانيكيين في الولايات المتحدة لم يكونوا على دراية كاملة بمعدات النسيج، فقد كان الأمر شبيها بصراع، وأوشك سلاتر في لحظة ما على الاستسلام عندما تعطلت إحدى آلات التسريح Carding. وعلى الرغم من ذلك فقد افتتح في ٢٠ ديسمبر ١٧٩٠ أول مصنع لغزل القطن في الولايات المتحدة أبوابه، وبدأت الثورة الصناعية الأمريكية.

وكتب براون إلى وزير الخزانة الكساندر هاملتون، الذي سيرفع «تقرير الصناعات» إلى الكونغرس بعد عام – مشيرا إلى أن «إمكان إنشاء المصانع وإقامة الآلات في عدة مناطق في سنة واحدة لإنتاج كل الغزول التي قد تحتاج إليها الولايات المتحدة». كان في ذلك بالطبع مبالغة كبيرة، لكن مصانع النسيج بدأت بالانتشار في نيوإنغلاند التي وفرت أنهارها الرائقة والجارية الطاقة اللازمة. وأصبح براون وسلاتر (وابن عم براون ويليام ألمي William Almy) شركاء عندما أقيم أول بناء لمصنع الغزل في العام ١٧٩٣ وحقق سلاتر ثروة كبيرة، وتزوج ابنة ويليام ألمي – واسمها حنا – التي أصبحت أول سيدة تحصل على براءة اختراع أمريكية لتطويرها آلة لغزل الخيوط، وعندما توفي سلاتر في العام ١٨٣٥ أضحت نيوإنغلاند مركزا لثانية كبرى صناعات الملابس في العالم. وقبل سنتين من وفاة سلاتر استقبله الرئيس أندرو جاكسون في جولة له في نيوإنغلاند ومنحه جاكسون لقب «أبو الصناعات الأمريكية».

كانت نيوإنغلاند – التي يخترقها عدد من الأنهار الدافقة التي ساعدت على تشغيل دواليب المياه لتوفير الطاقة اللازمة للمصانع الجديدة – تتمتع بميزة تنافسية أخرى مع مطلع القرن التاسع عشر، وهي مصادر اليد العاملة الرخيصة المستعدة للعمل والراغبة فيه. ولم تكن نيوإنغلاند دائما بلدا ذا زراعة يعول عليها بسبب تربتها السطحية والرملية في معظمها ومناخها القاسي. لكنه بسبب الحاجة إلى إنتاج الغذاء محليا – بسبب ارتفاع تكاليف النقل – فقد ظهرت الحاجة إلى الزراعة المحلية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد تزايدت هجرة أبناء مزارعي نيوإنغلاند غربا إلى نيويورك ومن ثم إلى الولايات الغربية. ومع بناء قنال إري Erie، سيبدأ هؤلاء المهاجرون بالتدفق إلى الأراضي الخصبة في الشمال الغربي القديم الذي يعرف

باسم شتات نيوإنغلاند. لكن شقيقات أولئك المزارعين غير المتزوجات بقين حبيسات البيت وتضاءلت فرصهن في الزواج مع تقدمهن في السن. وهكذا كانت المصانع التي بدأت بالانتشار حول ضفاف أنهار نيوإنغلاند آنذاك ملاذا لهن من وحشة حياة المزرعة وعزلتها في نيوإنغلاند، التي سترسمها إيديث وارتون Edith Wharton ببراعة في روايتها إيثان فروم Ethan Frome.

وشغلت المصانع أولئك الشابات العازبات بأعداد متزايدة، فوفرت لهن المأوى في مهاجع أشرفت عليها رئيسات حازمات. وكانت ريادة الكنيسة لزاما عليهن، وخضعن لدورات تدريبية مختلفة أيضا. ولقد بدأت كثير من النسوة، اللواتي صرن معلمات وأمينات مكتبة ومرشدات اجتماعيات في نيوإنغلاند القرن التاسع عشر، تحصيلهن الدراسي الرسمي كعاملات في هذه المصانع. وبالطبع، فقد وجدت كثير منهن أزواجا - على الرغم من الرقابة الصارمة من المشرفات - والتفتن إلى تأسيس عائلاتهن.

كان مصنع صموئيل سلاتر، الذي يقع على ضفة نهر باوتكيت Pawtucket في رود آيلاند، يحول نسائل القطن إلى خيوط. وكانت الخيوط ترسل إلى الحائكين في منازلهم ليحيكوها ملابس. وفي إنجلترا أيضا كانت أعمال الغزل والحياكة تتم في ورش منفصلة. لكن فرانسيس كابوت لويل مضى أبعد من ذلك، في العام ١٨١٤، فأسس مصنعا في والثام Waltham بماساتشوستس لمعالجة القطن الخام وتحويله ملابس جاهزة. وكانت أعمال الصباغة تجري أيضا في المصنع نفسه. لقد كان هذا أول مشروع متكامل لصناعة الملابس في العالم.

لكن هذا المصنع لم يكن في حقيقة الأمر الأول من نوعه، فقد طور أوليفر إيفانز Oliver Evans - وهو من أوائل المخترعين العظام في هذه البلاد - طاحونة دقيق متكاملة أساسها فكرة عبقرية. فقد عملت طواحين الدقيق على قوة الماء منذ العصور الوسطى. لكن أعمال الطحن وحدها كانت تنجز بدولاب الماء، أما العمليات الأخرى كالنشر والنخل والحزم فكانت تؤدى بجهد الانسان، ووضع إيفانز سلسلة من الناقلات اللولبية وكلها تعمل بطاقة الدولاب المائي لنقل الحبوب والدقيق والطحين من مرحلة إلى أخرى. لقد جعل إيفانز من طاحونة الدقيق آلة حقيقية: إذ كانت الحبوب تضاف في إحدى نهاياتها وتخرج براميل الدقيق من النهاية الأخرى. ولم تكن العملية برمتها تتطلب سوى قليل من الجهد البشري باستثناء ما اتصل منها بأعمال المعايرة والصيانة والإشراف.

وعلى الرغم من أنه استدعى قدرا أكبر من الجهد البشري، فإن مصنع القطن الذي بناه فرانسيس كابوت لويل أخذ التصميم نفسه. لقد انتسب لويل – الذي ولد في نيوبيربورت بماساتشوستس إلى عائلة مرموقة في الولاية – إلى جامعة هارفارد عندما كان في الرابعة عشرة من العمر، وبعد التخرج اتجه – كغيره من كثير من أبناء نيوإنغلاند في تلك الأيام – إلى العمل التجاري.

كانت التجارة مصدرا لمعظم ثروات الأمريكيين منذ تأسيس المستعمرات، واستمرت كذلك حتى تسعينيات القرن الثامن عشر. وأصبح إلياس ديربي Elias Derby من سالم بماساتشوستس – أحد كبار ملاك السفن – أول مليونير في ذلك العقد، حيث وصلت تجارته إلى مناطق قصية مثل الصين. وانخرط جون جاكوب استور أيضا في التجارة مع الصين – وهي سوق رائجة لتجارة الفرو – فكان يكسب ٥٠ ألف دولار في الرحلة الواحدة.

وكما ذكرنا، فإن اندلاع حروب الثورة الفرنسية في أوروبا في عام ١٧٩٣ كان مصدرا لرواج التجارة الخارجية الأمريكية. لكن تفاقم الحرب الأوروبية جعل كل طرف يسعى إلى تقويض تجارة الطرف الآخر بفرض قيود تصاعدية على حركة الشحن نحو الأطراف المحايدة ومصادرة كثير من السفن التي عُدت خارجة على تلك القيود، وقد استولى البريطانيون، بين العامين ١٨٠٣ و١٨٠٧، على ٥٢٨ سفينة أمريكية وصادرت فرنسا ٣٨٩ سفينة أمريكية أيضا، وعملت البحرية الملكية – التي كان يعوزها البحارة المهرة – على اعتراض السفن الأمريكية ومصادرة البحارة الذين يجاهرون بأنهم من رعايا بريطانيا.

وأملا في إجبار فرنسا وبريطانيا على احترام حقوق الأطراف المحايدة، فرض الرئيس جيفرسون على الكونغرس قانون الحظر Embargo Act الذي وقعه في ٢٢ ديسمبر ١٨٠٧، وكان هذا القانون واحدا من أبرز قوانين إدارة الدولة في التاريخ الأمريكي. وبالفعل كان هذا القانون لا سابق له في تاريخ الدول. لقد حظر هذا القانون على السفن الأمريكية مزاولة التجارة الخارجية، وسهرت البحرية الأمريكية على تطبيقه. ولفرض ضغوط على بريطانيا وفرنسا طبقت الولايات المتحدة القانون على نفسها وحظرت الشحن الداخلي.

لقد جلب قانون الحظر الدمار إلى نيوإنغلاند التي كانت لاتزال آنذاك تعتمد أساسا على التجارة البحرية. وهبط حجم الصادرات القانونية من ٤٨ مليون دولار في العام ١٨٠٧ إلى ٩ ملايين في العام ١٨٠٨، واستشرت في

المقابل أعمال التهريب على امتداد الحدود مع كندا، وأصبحت بحيرة شامبلين مسرحا لهذه الأعمال، التي كانت تجري عبر الحدود، ما حدا الرئيس جيفرسون على إعلان أن المنطقة في حالة عصيان.

كانت ردة الفعل على قانون الحظر في كل المدن الساحلية شديدة بحيث لم يدم تطبيق القانون إلا أربعة عشر شهرا. لكن قانون حظر التعامل، الذي استبدل به، حرم التجارة مع بريطانيا وفرنسا - وهما أكبر شركائنا التجاريين - وهكذا انتهت التجارة الأمريكية إلى مهاوي الكساد.

وقصد فرانسيس كابوت لويل - بعد أن انحدرت أعماله التجارية - إلى إنجلترا في العام ١٨١٠ وزار مصانع النسيج في لانكشاير - وتأثر كثيرا بها - واستحضر في ذاكرته كثيرا من تفاصيل مخططات وتصاميم هذه المصانع التي أمكن له استذكارها عاقدا العزم على بناء مصنع فور عودته إلى الولايات المتحدة. ومثله مثل صموئيل سلاتر من قبله، انخرط لويل في ما يعرف اليوم بالتجسس الصناعي، وهرب لويل - كما فعل سلاتر أيضا - ثمار تلك الأفكار إلى خارج إنجلترا. لكنه عمل أيضا على تطوير الآلات بمساعدة أحد خبراء المكيانيك واسمه باول مودي Paul Moody. وعندما قفل عائدا إلى الولايات المتحدة في العام ١٨١٣ كانت حرب العام ١٨١٢ قد نشبت وانتهت بالقضاء على ما تبقى من التجارة الأمريكية، وكانت نيوإنغلاند تعاني ظروفا اقتصادية صعبة. وأسس لويل شركة بوسطن الصناعية Boston Manufacturing Company برأسمال يعتبر كبيرا بمقاييس تلك الأيام (٣٠٠ ألف دولار). ولم يمض وقت طويل حتى تضاعف هذا المبلغ.

لقد نتج عن انقطاع التجارة - وفي وقت انحدرت فيه نيوإنغلاند إلى درك الكساد - تقلص في عرض الملابس على مستوى الاقتصاد الوطني في الولايات المتحدة. وفي الحال بدأت شركة لويل تحقق أرباحا مرتفعة. لكن عودة السلام في العام ١٨١٥ جلبت معها السلع البريطانية، خصوصا الملابس القطنية الرخيصة من مصانع لانكشاير كثيرة العدد. لقد توسعت صناعة النسيج في نيوإنغلاند بسرعة قبل وبعد حرب ١٨١٢، عندما أدى قانون الحظر والحظر التجاري البريطاني دور التعريفات الجمركية الحمائية نفسها. وحينذاك، ومع انبعاث المنافسة البريطانية (وفي الحقيقة الإغراق الذي مارسته بريطانيا بالملابس القطنية الرخيصة في الأسواق الأمريكية) لجأ مصنعو النسيج - وعلى رأسهم كابوت لويل - إلى واشنطن طلبا للعون.

كان طلبهم يتمثل في تفعيل تطبيق التعرفة الجمركية الحمائية. وكان ذلك الحلقة الأولى مما سيتحول إلى سلسلة لا تنتهي حتى يومنا الحالي، حيث سعى المصنعون الأمريكيون إلى تأمين الحماية من المنافسة الخارجية التي استطاع فيها المنافسون - بفضل ميزتهم التنافسية النسبية - البيع في السوق الأمريكية بأسعار تقل عن أسعار المصنعين المحليين وتحقيق أرباح على الرغم من الأسعار المتدنية.

إن للتعرفة الحمائية قبولا ظاهريا يجعلها تروق في أعين السياسيين: فالتعريفة الحمائية توفر العمل وتحفظ الربح في الأجل القصير، وهذا ما يهتم به معظم السياسيين الذين يسعون إلى إعادة إنتخابهم في المستقبل القريب. وقد أوصى ألكساندر هاملتون نفسه بتطبيق إحدى التعريفات الجمركية في تقريره عن الصناعة Report on Manufacturing، لكن الحجج المقدمة في دحضها التي فصلها كتاب ثروة الأمم كانت مقنعة بلغة الاقتصاد.

والأهم من ذلك، هو أن التعريفة الجمركية لا تقع على عاتق المصنعين الأجانب، إذ تنتقل إلى المستهلك المحلي الذي يتحمل تكلفة المنتج. ولا يتكبد المستهلكون أسعارا أعلى على السلع الأجنبية، بل إنهم يتكبدون أسعارا أعلى على السلع المحلية، لأن المنتجين المحليين ينتهزون كل فرصة تلوح أمامهم لزيادة أسعارهم. وتعمل التعرفة الحمائية - وإن بصورة جزئية - على حماية المنتجين المحليين من المنافسين، ومعلوم أن المنافسة هي محرك الابتكار ومصدر للحد من التكلفة في أي اقتصاد رأسمالي.

لقد لقيت فكرة التعرفة الجمركية الحمائية معارضة في الجنوب واصطدمت بمصالح صناعة الشحن في نيوإنغلاند. لكن لويل - وغيره من مصنعي النسيج - نجحوا في حمل الكونغرس على فرض رسوم جمركية بمعدل ٢٥ سنتا للياردة على الملابس القطنية، كانت تلك أول تعريفة جمركية حمائية في التاريخ الأمريكي (وقد فرضت في العام ١٨١٦).

وبدأت مصالح صناعة الشحن آنذاك تفقد زخمها في الكونغرس، حينما بدأت الصناعة في نيوإنغلاند تتفوق عليها في قوة النفوذ عند المشرع المحلي، وكان الجنوب، على الرغم من ذلك، موحدا خلف فكرة تخفيض التعريفة الجمركية. لقد خشي الجنوب - الذي كان يعتمد كثيرا على صادرات القطن إلى بريطانيا، ومن ثم إلى فرنسا بمعدلات متزايدة - أن يفقد ازدهاره

الاقتصادي بفعل التعريفات الجمركية الانتقامية، ولأنه كان مستوردا أساسيا للسلع الصناعية، فقد اعتبر التعريفة الجمركية المرتفعة مجرد وسيلة بأيدي صناعيي الشمال لابتزاز المستهلك في الجنوب.

لكن الضغوط التي مارستها مناطق الشمال أبقت على المستويات المرتفعة للتعريفة الجمركية حتى العام ١٨٢٨ عندما أقر الكونغرس ما أطلق عليه الجنوب - وهو مصدر للعبارات السياسية الرنانة - تعريفة الكراهية Tariff of Abomination، وأدى ذلك فورا إلى ما عرف بأزمة الإبطال Nullification Crisis في العام ١٨٣٢ عندما أعلنت كارولينا الجنوبية أن للولايات القدرة على إبطال دستورية القوانين الفدرالية. ولمح الرئيس أندرو جاكسون إلى أنه سيستخدم القوة لضمان دعم تلك القوانين. وانتهت أزمة الانفصال عندما أقر قانون جديد للتعريفة الجمركية دعا إلى تخفيض تدريجي لمعدلات الرسوم.

توفي فرانسيس كابوت لويل في العام ١٨١٧، بعد صراع طويل مع المرض، لكن مشروعه أصاب ازدهارا وتحول العام ١٨٢٣ إلى موقع على نهر ميريماك شمال بوسطن، حيث توافرت قوة الماء. وعندما أدمجت المنطقة في مدينة واحدة في العام ١٨٢٦ أطلق عليها اسم «لويل»، لكن شركة لويل لم تكن الشركة الصناعية الوحيدة في أمريكا التي حققت ازدهارا في ذلك الحين. فمع حلول العام ١٨٢٤ وصل حجم الأيدي العاملة في هذه الصناعة إلى مليوني شخص، وكان هذا العدد عشرة أضعاف ما بلغه قبل خمس سنوات فقط (وكان هذا يعادل ثلثي سكان الولايات المتحدة زمن الثورة الأمريكية قبل خمسين عاما). لقد كانت الولايات المتحدة في طور التحول إلى أول قوة صناعية بعد بريطانيا.

6

«القنال أوشكت على الانتهاء... وستجعل مدينة نيويورك «لندن العالم الجديد»

صحيفة التايمز

بالكد تتحقق المعجزات (*)

في العام ١٧٩١ فرضت الحكومة الفدرالية ضريبة إنتاج على المشروبات الكحولية المقطرة. ولم تكن هذه الضريبة، بالطبع، في محلها في ظل وجود كثير من مصنعي الرم والوسكي؛ على الرغم من أن هؤلاء كانوا قادرين على نقل الضريبة - وقد فعلوا - إلى زبائنهم. لكن المسألة كانت في غاية الحرج بالنسبة إلى المزارعين في بنسلفانيا الغربية، في الأراضي الواقعة في ما وراء قمم جبال أبالاشيان. ذلك أن قلة الطرقات الملائمة لم تترك للمزارعين وسيلة ناجعة لشحن محاصيلهم من الحبوب إلى أسواق المناطق الشرقية سوى تقطيرها إلى وسكي، مما قلل من نسبة وزنها إلى قيمتها كثيرا.

وفي يوليو ١٧٩٤ تطورت معارضة الضرائب إلى عصيان، وأحرق خمسمائة رجل مسلح منزل الجنرال جون نيفيل، مفتش الضرائب في المنطقة. وفي أغسطس أصدر الرئيس واشنطن بيانا يدعو فيه المتمردين إلى التفرق وإلى تجنيد

(*) Labor Improbus Omnia Vincit.

الميليشيات. وبعد فشل المفاوضات طلب الرئيس واشنطن إلى ثلاثة عشر ألفا من الجنود التوجه إلى بنسلفانيا الغربية، بقيادة الجنرال هنري لي، ورافق الجند بنفسه إلى أقاصي بيدفورد في بنسلفانيا قبل أن يقفل عائدا إلى فلادلفيا. وأمام هذا الحشد الكبير من الجند تفرق المتمردون شعثا. وقبض على اثنين من قادة التمرد ووجهت لهما تهمة الخيانة، لكن واشنطن أصدر عفوا عنهما.

واليوم تذكر ثورة الوسكي على أنها الحدث الوحيد في التاريخ الأمريكي الذي نزل فيه قائد الجيش إلى أرض المعركة جنبا إلى جنب مع جنوده. لكن ذلك العصيان - بالنسبة إلى معاصريه - كان إشارة واضحة إلى أنه ليس أمام البلد من مشكلة اقتصادية - إذ كان برنامج هاملتون حينذاك موضع التطبيق - أكبر من مشكلة النقل.

فلم يكن في الولايات المتحدة - وهي بلد تعادل مساحته أربعة أضعاف مساحة فرنسا وعشرة أضعاف مساحة إنجلترا - إلا القليل من الطرقات التي تستحق الذكر. وكانت بلدا لا يعرف الاستقرار - لا بل أبعد أمم الأرض عن الاستقرار - إذ كان سكانها يزحفون غربا منذ بداية عهد الاستيطان. وكان قانون كيبك للعام ١٧٦٤ من الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة. ذلك أنه دفع حدود كندا إلى ضفاف نهر أوهايو وحظر استيطان السكان البيض غربي جبال أبالاشيان.

وكان الوصول إلى المنطقة التي تقع غربي الجبال قبل الثورة غير ممكن إلا عبر ممرات الهنود، التي كانت قائمة طوال قرون خلت، مثل طريق الفلاة Wilderness التي سلكها دانييل بوني Daniel Boone إلى إقليم كنتكي والطريق التي تمر بكمبرلاند جاب Cumberland Gap، والتي تنتهي إلى تينيسي. ومع استخدام هذه المعابر توسعت بالتدريج إلى طرقات واسعة، حيث كان المسافرون يقطعون الأشجار ويمهدون الطريق لمرور العربات. وفي مناطق المستنقعات عمد المسافرون إلى قطع الأشجار ومدها عبر الطريق لرصف ما كان يعرف بطريق كوردوروي.

لكن الطرقات الأولى - وخصوصا في مناطق المستعمرات - كانت ملأى بالحفر والأتربة في الصيف، وكانت تتحول إلى سبخات طينية في الربيع والخريف. وكانت العربات ومركبات الجياد - إن تسنى لها عبور الطرقات -

تستغرق ساعات في قطع بضعة أميال فقط، وكان السفر أسهل في فصل الشتاء عندما تكون الأرض صلبة متجمدة. وقد تحدث الإنجليزي هنري إدينغتون - في أثناء سفره غرب ولاية نيويورك في العام ١٨٢٢- عن أنه رأى: «حطام مركبة أو عربة عالقة في وضعية غريبة في حفرة ما على الطريق. كيف لعربة أن تسلك هذه المطبات المريعة التي تملأ هذه الطرقات أحيانا على مسير أربعة أو خمسة أميال متواصلة؟.. يصعب على أولئك الذين خبروا ضراوتها أن يدركوا ذلك».

لكن الفضل في تحفيز عملية مد الطرقات في السنوات التي أعقبت الثورة يعود إلى حركة التجارة -وليس الهجرة - أو ما توخاه السواح المغامرون من مثل هنري أدينغتون من أسباب الراحة في السفر. وقد سعت فيلادلفيا إلى نقل نتاج الأراضي الزراعية الخصبة في إقليم لانكاستر إلى أسواقها وموانئها بدلا من أن تتركها تمر عبر نهر ساسكيهانا Susquehanna وخليج تشيزبيك، وهو الأمر الذي كان يصب في مصلحة بالتيمور. لذلك فقد أجازت في العام ١٧٩٠ إنشاء شركة خاصة لمد طريق تجبى منه رسوم العبور.

وعلى خلاف الطرقات سابقة العهد في أمريكا -والتي رصف معظمها بأقدام من وطئها - فقد أقيمت الطريق الرئيسة بين فلادلفيا ولانكستر وفق مواصفات دقيقة وبعرض قياسي وطبقات من الحجارة والحصى المجروشة لتوفير سطح مستو للطرق. حيث ساعد السطح المحدودب أو المفلطح على تصريف المياه بسرعة عن الطريق.

وقد طور مهندس اسكتلندي يدعى جون ماك آدام تقنية رصف الطرقات في مطلع القرن التاسع عشر باستخدام طبقات الحجارة والحصى. وقد أطلق اسمه على هذه العملية (حرف الاسم قليلا ليصبح ماكادام Macadam)، التي انتشر استخدامها في الولايات المتحدة وبريطانيا. وحتى نهاية القرن التاسع عشر - عندما بدأ المهندسون يخلطون الطبقة العلوية من الحصى بالقار لتأمين سطح واق من الماء - صارت الطرق المرصوفة بهذه الطريقة تسمى بطرق «الأسفلت» (الزفت) أو قار - ماكادام.

وحققت الطريق الرئيسة بين فيلادلفيا ولانكستر نجاحا ماليا سريعا للشركة التي مدتها، لكن ذلك أفضى إلى ظهور عدد من مشاريع الطرق الرئيسة في نيوإنغلاند وولايات وسط الأطلسي في العقود القليلة التالية.

ولاحظت الحكومات المحلية أنه حيثما أقيمت طريق رئيسة كانت التنمية الاقتصادية تحل سريعا بانتشار الحانات والفنادق وإسطبلات الخيل لتلبية حاجات المسافرين.

وفي العام ١٨٠٢ رصد قانون الكونغرس الذي أسست بموجبه ولاية أوهايو الأموال المتحصلة من بيع الأراضي العامة لمد الطرق. وفي العام ١٨١١، تم الترخيص لإنشاء طريق يربط كيمبرلاند وماريلاند على نهر البوتوماك Potomac إلى ووييلينغ Wheeling، أو ما يعرف اليوم بفرجينيا الغربية على ضفاف نهر أوهايو. وسيصار في ما بعد إلى توسيع طريق كيمبرلاند ليصل إلى فانداليا Vandalia بإلينوي، أي لمسافة تصل إلى خمسمائة ميل.

وفي أربعينيات القرن التاسع عشر كانت نيوإنغلاند الجنوبية ووادي هدسون الأدنى في نيويورك ونيوجيرسي وبنسلفانيا الجنوبية الشرقية تخدمها شبكة طرقات متطورة ساعدت كثيرا على تسهيل حركة المسافرين. وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر كانت عربة الجياد تستغرق بين أربعة وستة أيام لقطع المسافة بين بوسطن ونيويورك وفق حالة الطقس. وفي العام ١٨٣٠ استغرقت هذه الرحلة يوما ونصف يوم. ومع ذلك فقد ظل نظام الطرقات في الجنوب - وأساسه مجموعة من الأنهار الصالحة للملاحة - بدائيا.

وطرأ تحسن كبير على المركبات أيضا. إذ لم تكن عربات الخيول الأولى سوى عربات زراعية مجهزة بمقاعد وتعوزها النوابض. وكان ركاب تلك العربات يتخبطون فيها كحجر النرد في فنجان. لكنه وبعد عدة عقود، أصبحت تلك العربات مريحة أكثر، ويعرفها كل من شاهد أفلام الويسترن التي أنتجتها هوليوود.

ولم تعرف المستعمرات السفر للاستجمام وإنما للتجارة، لكنه صار شائعا في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أن يمضي فيها الأزواج الأثرياء رحلات شهر العسل (كانت شلالات نياجارا مقصدا مألوفا لأولئك الأزواج). وشرع الأطباء في ذلك الحين يصفون السفر كعلاج لمرضاهم الأثرياء.

وعلى الرغم من زيادة حركة المسافرين، فإن التجارة بقيت تحتل القسم الأعظم من شبكة الطرقات المتوسعة. وفي العام ١٨٣٦ لاحظ رالف والدو إمرسون «موكبا لا ينقطع من العربات يمر بمنزله في كونكورد

بماساتشوستس متجها إلى كل بلدات نيوهامشاير وفيرمونت». وبحلول العام ١٨٤٠ بلغ عدد الذين كانوا يكسبون رزقهم بالعمل كحوذي متفرغ - في الولايات المتحدة - نحو خمسة عشر ألف رجل، عملوا في نقل المنتجات والحمولات إلى المدن المتزايدة عددا. واتخذ كثير من الحوذيين عملا جزئيا (غير متفرغ) خصوصا في الشتاء عندما كانت الأعمال الزراعية تتوقف والطرقات في أفضل حالاتها.

لكن كانت ثمة حدود صارمة لحمولة عربة الخيل بغض النظر عن درجة تطور الطرق. وكان لا بد، آنذاك، من نقل السلع التي ارتفعت نسبة وزنها إلى قيمتها عن طريق الأنهار إذا ما أريد نقلها لمسافات بعيدة، وكانت مع ذلك تحقق أرباحا لدى بيعها. وحيثما لم تتوافر المسالك المائية الطبيعية خرج العالم ما قبل الصناعي بحل واحد لهذه المعضلة: شق الأنهار الاصطناعية التي عرفت بالقنال.

وترجع فكرة شق القنوات إلى أزمنة غابرة. فقد عرفتها الصين وبلاد ما بين النهرين. كما أمر ملك الفرس داريوس الكبير بشق (أو بإعادة شق) قنال تصل النيل بالبحر الأحمر (*) في العام ٥١٠ ق. م.

وقد أضاف ابتكار الهويس في منتصف القرن الخامس عشر بعدا جديدا للقنال، إذ أتاح لها بلوغ الأراضي غير المستوية. وفي القرن السابع عشر وصلت قنال بين نهري لوار والسين. ومع نهاية القرن امتدت قنال لانجدوك في جنوب فرنسا عبر مسافة ١٤٢ ميلا فربطت البحر المتوسط بنهر جيروند، الذي يمر بالقرب من بوردو ليصب في المحيط الأطلسي. ومع نهاية القرن الثامن عشر كانت بريطانيا ترتبط بشبكة من القنوات شق معظمها دوق بريدجوتر، وكان لها فضل كبير في دعم الثورة الصناعية.

كانت ثمة حاجة بينة إلى القنوات في تحقيق التنمية في البلد والحد من كلفة كثير من السلع في الولايات المتحدة حديثة العهد، وفي العام ١٧٩٠، حين لم يمض إلا عام واحد على تطبيق الدستور، رخصت ثماني ولايات من الولايات الثلاث عشرة ما لا يقل عن ثلاثين شركة لشق القنوات، ولم يصل كثير من هذه الشركات مرحلة التخطيط وكان معظمها يفتقر إلى العزيمة

(*) هذه القنال تعود إلى أيام الملك سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة (نحو القرن التاسع عشر قبل الميلاد) [المترجم].

اللازمة فلم تسع إلى مد الأجزاء الصالحة للملاحة في الأنهار من خلال حل مشكلات التيارات المائية والشلالات. كان جورج واشنطن من المتحمسين جدا لفكرة القنال وذلك حرصا منه على تطوير فرص الملاحة في نهر بوتوماك، لكنه عجز عن تأمين التمويل اللازم من الكونغرس.

كانت ماساتشوستس مسرحا لأول وأضخم مشروع لشق القنوات بلغ مرحلة الإنشاء، عندما رخصت الولاية لشركة قنال ميدلسكس بشق قنال بطول سبعة وعشرين ميلا بين بوسطن ومدينة شيلمزفورد على نهر ميريماك، وكان يؤمل من هذه القنال نقل منتجات هامشاير - الخشب والجرانيت وراتنج الصنوبر وحطب التدفئة - إلى بوسطن.

إن قرار شق القنال شيء، وشقها شيء آخر تماما، خصوصا أن الولايات المتحدة كانت تفتقر إلى كلية مهندسين مدربين آنذاك. وكلفت شركة قنال ميدلسكس لوامي بولدوين Loammi Baldwin تنفيذ المشروع. ومع أن بولدوين اطلع على مراجع في شق القنوات، لكنه لم ير قط هويسات القنال، فأقنع الشركة على الفور بتكليف رجل إنجليزي يدعى ويليام ويستون كانت لديه خبرة عملية في شق القنوات.

وأصدرت الشركة أسهما في العام ١٧٩٤ لاقت إقبالا كبيرا من المستثمرين، الذين كان يحدوهم الأمل بالامكانات الاقتصادية التي تبشر بها التقنية الجديدة، وهم غير مدركين الصعوبات العملية التي تترتب على إنشاء القنال وتشغيلها على نحو مربح. ومع البوادر الأولى - ولن تكون الأخيرة - لفقاعة الاستثمار التقني في الولايات المتحدة ارتفعت أسعار أسهم شركة قنال مديلسكس - التي بلغت حين إصدارها ٢٢٥ دولارا - إلى مستوى كبير وصل إلى ٤٧٥ دولارا؛ وذلك بفعل المضاربين قبل أن تبدأ القنال عملها بعشر سنوات.

ولما وضعت قيد التشغيل، لم تحقق القنال أي أرباح تذكر مع أنها شكلت داعما لاقتصاد بوسطن والمناطق التي خدمتها. وعندما حلت الشركة في العام ١٨٦٠، لم يحصل المستثمرون إلا على ٧٥ في المائة من قيمة الأموال التي وظفوها في المشروع.

لقد كان ارتفاع التكلفة الرأسمالية للقنال ونقص الخبرات الهندسية في البلاد عاملا معيقا في السنوات الأولى، وكان المضاربون - بعد أن ذاقوا وبال الخسارة - غير مستعدين للاستثمار في مشاريع القنوات الجديدة،

وقررت ولاية نيويورك إقامة مشروع قنال لم يكن الأكبر فقط في الولايات المتحدة، وإنما تجاوز بحجمه ضعف أكبر قنوات العالم، وذلك بتكلفة تقديرية ضاهت الميزانية السنوية للحكومة الفدرالية. وستكون قنال إري Erie Canal الأولى في سلسلة المشاريع العملاقة التي لا تحصى، ومنها الكيبل الأطلسي والسكك الحديد العابرة للقارة وبرج بروكلين وقنال بنما وجسر هوفر ونظام الطرقات الرئيسة بين الولايات ومشروع أبولو، التي ستكون سمات مميزة للتجربة الأمريكية.

كان ذلك رهانا اقتصاديا كبيرا. فالفشل قد يشل اقتصاد نيويورك طوال عقود. لكن النجاح في المقابل سيضمن لنيويورك -التي كانت في العام ١٨١٠ أكثر الولايات سكانا - أن تتفوق على الولايات الأخرى مع تطور الاقتصاد الأمريكي.

وبفضل أحد رموز السياسة الأمريكية - الذي لم يكن معروفا آنذاك - دويت كلينتون Dewitt Clinton، حقق المشروع نجاحات فاقت كل التصورات، بل إنها لم تكن في حسبانه هو نفسه. وستثبت الأيام أن قنال إري سيكون أهم مشروعات الأشغال العامة في التاريخ الأمريكي وسيجعل نيويورك - الولاية والمدينة - عماد الاقتصاد الأمريكي لأكثر من قرن من الزمن.

ومنذ زمن المستعمرات الأولى عُرفت الطريق التي تربط نهر هدسون إلى الشمال من ألباني والذي يتجه إلى الغرب عبر فتحة جبال أبالاشيان، بين أديروندداكز وكاتسكيلز، وصولا إلى البحيرات العظمى. فلقد سلكها الهنود وتجار الفرو دائما. وقد التقت مياه نهر موهاوك، الذي ينحدر باتجاه هدسون عبر سلسلة من التيارات المائية الشديدة، بمياه نهر وولف كريك Wolf Creek الذي يتجه غربا ليصب في بحيرة أونيدا. ومن الجانب المقابل من البحيرة - التي امتدت بطول عشرين ميلا- يصب نهر أوسويغو في بحيرة أونتاريو.

ومنذ العام ١٧٢٤ اقترح كادوالدير كولدين - الإيرلندي المولد، وهو من تجار نيويورك، ومن العلماء الهواة الأفذاذ (ومن ثم سياسي في منصب نائب حاكم المستعمرة، الذي أوشك أن ينتهي به قدره إلى الإعدام من دون محاكمة خلال أحداث أزمة قانون الدمغة Stamp Act) تحسين هذه الطريق لتعزيز إمكاناتها التجارية. وقدم بعد ذلك اقتراحا آخر بضرورة ربط القنال ببحيرة

إري بدلا من وصلها ببحيرة أونتاريو. كان ثمة سببان لذلك، الأول أنه سيلغي الحاجة إلى النقل البري عند بلوغ شلالات نياجارا والوصول إلى البحيرات العظمى ما وراء بحيرة أونتاريو. وببلوغ بحيرة أونتاريو - كما ساد الاعتقاد فإن حركة النقل ستستمر عبر نهر سانت لورنس إلى مونتريال والمحيط الأطلسي، في الشهور المعتدلة على الأقل، بدلا من استخدام القنال على نحو قد يهدد مكانتها الاقتصادية.

كانت الحجة في معارضة طريق بحيرة إري، هي أنها بالطبع ستزيد من طول القنال وتعمق الصعوبات الهندسية التي لا بد من التغلب عليها. فبحيرة إري تبعد عن نهر هدسون ٥٦٣ قدما فقط. ويصل مستوى هذا النهر إلى مستوى سطح البحر في ألباني (وهدسون في الحقيقة هو مصب نهر وليس نهرا على الإطلاق). أما غربي بحيرة أونيدا، فكان لا بد للقنال من المرور عبر نهري أيروديكويت وجينيسي اللذين يصبان في بحيرة أونتاريو؛ والمرور بأراض سبخة كثيرة وأن تشق طريقها عبر الحرف (*) الصخري الذي يمتد شمالا وجنوبا من الجهة الشرقية لبحيرة إري.

وبعد الثورة أسس فيليب شويلر - وهو حمو ألكساندر هاملتون - وآخرون شركة الهويسات الداخلية الغربية Western Inland Lock Navigation Company لدعم حركة الملاحة في نهر موهاوك، وشرع بتبني فكرة القنال. كما لاقت الفكرة قبول الحاكم صاحب المال والنفوذ (موريس) لكنه كان يخشى أن «عقولنا لا تدرك بعد حجم هذا المشروع العظيم». لكن دويت كلينتون أدرك على الفور أهمية المشروع. لقد تخرج كلينتون، الذي ولد في العام ١٧٦٩، لعائلة ثرية وذات نفوذ - سيصبح عمه جورج كلينتون حاكم نيويورك ونائب الرئيس جيمس ماديسون - في جامعة كولومبيا وكان له من العمر سبعة عشر عاما فقط - وقد ألقى كلمة باللغة اللاتينية في حفل التخرج -. وانتخب بعد مدة وجيزة عضوا في مجلس شيوخ الولاية، وعين عضوا في مجلس الشيوخ الأمريكي في العام ١٨٠٢، لكنه استقال في العام التالي ليتبوأ منصب عمدة مدينة نيويورك، وبقي في منصبه هذا في معظم فترة الاثني عشر عاما التالية. وفي العام ١٨١٠ عينه المجلس التشريعي في الولاية في مفوضية القنال التي شكلت من فورها. وأصبح على الفور القوة المحركة لهذه الفكرة.

(*) الحرف الصخري: خط التقاطع الأعلى بين سطحين منحدرين [المترجم].

كان المخطط النهائي ينم عن مشروع عملاق. إذ ستمر القناة على طول ٣٦٣ ميلا عبر أراض تشبه الفلاة وستتطلب ما لا يقل عن ثلاثة وثمانين هويسا. كما ستحتاج القناة - وعرضها أربعون قدما وعمقها أربع أقدام - إلى أعمال حفر وتنظيف لما لا يقل عن ١١,٤ مليون ياردة مربعة من التراب والصخور - أي أكثر من ثلاثة أضعاف كتلة الهرم الأكبر في مصر - وأغلب تلك الأعمال كانت تتم يدويا. وقدرت تكلفة مشروع القناة بستة ملايين دولار أمريكي أي ما يعادل ثلاثة أرباع الميزانية الفدرالية في العام ١٨١٠.

كان يؤمل أن تتحمل الحكومة الفدرالية نسبة كبيرة من تكاليف أكبر مشروعات الأشغال العامة في العالم الغربي، منذ زمن الهرم الأكبر. لكن كلينتون لم يلق تشجيعا يذكر. ورأى توماس جيفرسون - الذي لم يكن يفتقر إلى الخبرة الهندسية، وكان متعاطفا مع ما سمي آنذاك «التحسينات الداخلية» والتوسع نحو الغرب - أن الفكرة سخيفة. وبين لكلينتون أن جورج واشنطن عجز عن تأمين مبلغ ٢٠٠ ألف دولار لشق قناة بطول ثلاثين ميلا عبر أرياف فيرجينيا المأهولة بالسكان. وأضاف «إنك تتحدث عن إنشاء قناة بطول ثلاثمائة وخمسين ميلا عبر البرية! إنه مشروع ضخم وقد يتطلب إنجازه قرنا من الزمن. إنه لمن ضروب الجنون التفكير في هذا المشروع اليوم».

ولم تجلب حرب العام ١٨١٢ بارقة أمل بأن المشروع سيوضع موضع التنفيذ، لكن الدافع وراء شق القناة أحيي من جديد بعد نهاية الحرب. وفي العام ١٨١٧، وعلى الرغم من أن خصوم كلينتون كانوا يسمونها بـ «حفرة كلينتون» Clinton Ditch، كان الرأي العام في الولاية يتحول سريعا إلى تأييد القناة، ووقع مائة ألف شخص على عريضة رفعت إلى المجلس التشريعي تطالب بشق القناة. أما من جانب المشكلات التقنية التي لا بد من تخطيها، فإن الموقف الجماعي للولايات يمكن تلخيصه في عبارة الحاكم موريس اللاتينية الرشيقة: «بالكد تتحقق المعجزات» (*).

وفي ١٥ إبريل ١٨١٧ أصدر المجلس التشريعي قراره فسن قانون القناة الذي أعلن بموجبه أن القناة «ستعزز الزراعة والصناعة والتجارة وسترفع ويلات الحرب، وترسخ فضائل السلام، وتقوي عرى الاتحاد، وتدفع الازدهار قدما وترفع من مكانة الولايات المتحدة».

(*) العبارة اللاتينية: Labor improbus omnia vincit ومعناها الحرفي «العمل بجد يقهر الصعاب» [المترجم].

كان الأمل لايزال قائما بأن الحكومة الفدرالية والولايات الأخرى التي هي المستفيد المباشر من المشروع - أوهايو على سبيل المثال - ستساهم فيه، لكن نيويورك أبدت رغبتها آنذاك في تحمل أعبائه بمفردها. وارتأت الحكومة الفدرالية والولايات الأخرى - ولا عجب في ذلك - أن تترك لها أمر القيام به. ونقض الرئيس جيمس ماديسون مشروع قانون كان كفيلا بتقديم التمويل اللازم.

يمكن تلمس ضخامة مشروع قنال إري بالنسبة إلى ولاية نيويورك إذا علمنا أن التكلفة التقديرية النهائية - والتي بلغت سبعة ملايين دولار - تتجاوز أكثر من ثلث رأسمال المصارف وشركات التأمين العاملة في الولاية. وفرضت نيويورك ضريبة على السفر بالمراكب البخارية، وعلى الملح وعلى الأراضي التي تقع داخل حزام لا يزيد على خمسة وعشرين ميلا حول القنال لخدمة السندات التي أصدرتها، واستثمرت شركتا تأمين لندنيتان أموالا طائلة في هذه السندات ,لكن معظم الأموال جاءت من أبناء نيويورك، وجلهم من أصحاب الثروات الكبيرة. فمن أصل المكتتبين التسعة والستين في سندات العام ١٨١٨ استثمر واحد وخمسون منهم ٢٠٠٠ دولار أو ما يقل، واستثمر سبعة وعشرون مكتتبا أقل من ١٠٠٠ دولار للمكتتب الواحد.

وفي ٤ يوليو ١٨١٧ قلب دويت كلينتون - الذي عين حاكما للتو - أول رفش من التراب في منطقة قرب روما بنيويورك، وتعهد بإتمام العمل في عشر سنوات. وأكمل العمل في ثماني سنوات.

ولاستدرار سلسلة العوائد المتوقعة من المشروع في أقل زمن ممكن، بدأت أولى العمليات في القسم الأطول المتمثل في الـ ٦٩,٥ ميل الفاصلة بين سيراكوس وهيركمير، التي لم يكن فيها ثمة حاجة لإقامة هويسات نهرية. وأراد لها كلينتون أن تنتهي في عام واحد. وقد كان له ذلك.

وعمل آلاف العمال في شق القنال، فبلغ عددهم في ذروة العمل خمسين ألفا، كثير منهم من أبناء المنطقة، وبعضهم من المهاجرين الإيرلنديين والويلزيين الذين استؤجروا من على أرصفة ميناء مدينة نيويورك مباشرة. ومع أن القنال شقت بالعمل اليدوي فقط، لكن فطنة اليانكي سهلت العمل وقلصت تكلفته إلى ما دون التكلفة المتوقعة. واعتمدت طريقة جديدة لقطع

الأشجار بوساطة إسقاطها أرضا باستخدام البراغي والكابلات. وبفضل آلة أخرى ابتكرت في أثناء سير العمل. تمكن سبعة رجال ومجموعة من الثيران من اقتلاع أربعين شجرة في اليوم الواحد.

كان كانفاس وايت Canvass White واحدا من المهندسين الذي تعلموا أصول الهندسة بالدراسة الذاتية - هؤلاء المهندسون سيعرفون في ما بعد باسم مدرسة إري للهندسة – فبدلا من استيراد الأسمنت المائي (*) باهظ الثمن من أوروبا، بحث عن مورد محلي للطراس (**) وعثر عليه. والطراس هو ضرب من النسفة Pumice، المكون الرئيس للأسمنت المائي.

وفي العام ١٨٢١ اكتمل نحو ٢٢٠ ميلا من القنال وبدأت حركة النقل تزداد، وتستقطب اهتماما من الخارج. وبدأ سوق النقد في لندن بتوظيف استثمارات ضخمة في المشروع، وستشتري شركة بارينغ بروذرز Baring Brothers وحدها سندات في القنال بأكثر من ٣٠٠ ألف دولار.

واستغرق الأمر أربع سنوات لشق سبعة أميال من الحرف الصخري فرب لوكبورت Lockport – شرقي بوفالو – وبناء سلسلة من خمسة هويسات مزدوجة. هذه الهويسات والقناة العظيمة فوق نهر جينيسي Genessee – حيث مدينة روشستر اليوم – والهويسات السبعة والعشرون اللازم إنشاؤها في الأميال الخمسة عشر الأولى على نهر هدسون كانت مشاريعا هندسية فاقت بحجمها كل المشاريع السابقة في الولايات المتحدة.

لكنها أنجزت في خريف العام ١٨٢٥، وفي ٢٦ أكتوبر وفد الحاكم كلينتون وعدد من كبار الشخصيات على متن البارجة سينيكا شيف Seneca Chief، التي غادرت بوفالو متوجهة عبر القنال ومن ثم عبرت نهر هدسون باتجاه مدينة نيويورك، التي كانت الاحتفالات فيها قائمة على مسافة خمسمائة ميل. في نهاية هذه القنال عند ساندي هوك في نيوجيرسي، وتحديدا في بوابة الخليج الأدنى لمرفأ نيويورك صب الحاكم كلينتون قربة من ماء بحيرة إري في المحيط الأطلسي. والتقى الماء بالماء إحياء لذكرى «الروابط الملاحية بين بحرنا المتوسط والمحيط الأطلسي»، على حد تعبير كلينتون. ووصف أحد خطباء ذلك العصر المشروع بأنه «أطول قنال حفرت في أقصر زمن وبأقل الخبرات المتاحة وبأدنى تكلفة ممكنة لتحقيق أعظم المصالح العامة».

(*) اسمنت يتصلب تحت الماء [المترجم].

(**) الطراس: صخر بركاني من حوض الراين الأدنى [المترجم].

وحققت قنال إري نجاحا اقتصاديا سريعا وباهرا. فكتب أحد المراقبين الأوائل «أن تأخذ لك موقعا على أحد الجسور الكثيرة، وأن تجول بعينيك إلى أعلى القنال وأسفلها لهو مشهد مؤثر». ففي كل الاتجاهات وعلى مد النظر تقع العين على صفوف طويلة من القوارب. وفي الليل يخيل إلى الناظر من ومضات أضوائها الأمامية أنه يرى جماعات من الحباحب».

وفي العام ١٨٢٥ عبر ١٣,١٠٠ مركب القنال وجبيت رسوم عبور بلغت نصف مليون دولار، وهذا يتجاوز المبلغ اللازم لتمويل الدين الذي ترتب على بناء القنال. وفي أقل من عقد سددت الديون واستخدم فائض الأموال في توسيع القنوات الرافدة لها. وعبرت في العام الأول اثنتان وأربعون بارجة يوميا - بالمتوسط - عبر أوتيكا، وحملت في ذلك العام ٢٢١ ألف برميل من الطحين و٤٣٥ ألف غالون من الوسكي و٥٦٢ ألف شوال من القمح. وشحن عبر القنال ٣٣٤,٦٠٥ أطنان من الحمولات المختلفة في ذلك العام. وتضاعف عدد سكان الأقاليم التي مرت بها القنال ثلاثة أضعاف في بضع سنين فقط، حيث تحولت القرى إلى بلدات وأضحت البلدات مدنا.

والأهم من ذلك، أن القنال استخدمتها ألوف للانتقال من الحقول الصخرية في نيوإنغلاند إلى الأراضي الخصبة في الغرب الأوسط، وأرسلوا نتاج عملهم ثانية عبر القنال مع التراجع الشديد في تكلفة نقل البضائع غربا. قبل القناة، كان الأمر يستغرق ثلاثة أسابيع و بتكلفة بلغت ١٢٠ دولارا لإرسال طن من القمح من بوفالو إلى مدينة نيويورك، أي ثلاثة أمثال تكلفة الطحين. وبين ليلة وضحاها هبطت التكلفة إلى ستة دولارات ولم يعد شحنها يستغرق أكثر من ثمانية أيام.

يصطلح الاقتصاديون على تسمية النقل بـ «تكلفة إنجاز الصفقة» Transaction cost، أي التكلفة التي تضاف إلى ثمن السلعة من دون أن تزيد من قيمتها الذاتية. ومن أمثلة تكلفة إنجاز الصفقة أيضا الإعلان والمبيعات والتغليف. وكلما انخفضت هذه التكاليف انخفض السعر النهائي وارتفع الطلب. وعندما تنخفض تكاليف إنجاز الصفقة كثيرا - مثلما خفضت قنال إري تكلفة نقل الإنتاج من الغرب الأوسط إلى مدينة نيويورك - فإن العواقب تصبح دائما بالغة الأثر.

في هذه الحالة تحولت المدينة من مجرد أكبر المدن الأمريكية إلى مدينة عالمية «كوزموبوليتان»، عاصمة العالم الغربي. وحتى قبل اكتمال العمل في قنال إري العام ١٨٢٢ رأت صحيفة التايمز اللندنية أن القنال أوشكت على الانتهاء، وكتبت في ذلك العام أنها ستجعل مدينة نيويورك «لندن العالم الجديد». وكانت التايمز محقة. فقد كانت قنال إري هي ما أكسب الإمباير ستيت Empire State مركزها التجاري وجعلت نيويورك عاصمة الأمة الإمبراطورية.

لقد بلغ عدد سكان مدينة نيويورك في العام ١٨٢٠ نحو ١٢٣,٧٠٠ نسمة، أي خمسة أضعاف ما كان عليه عند اندلاع الثورة. لكن فيلادلفيا التي تجاوز عدد سكانها في العام ١٧٧٦ عدد سكان نيويورك كان عدد سكانها أقل آنذاك بنحو ١١٢ ألف نسمة. وقد حولت قنال إري نيويورك - مع ذلك - إلى أكثر مدن العالم ازدهارا على الإطلاق. وارتفع عدد سكان مانهاتن إلى ٢٠٢ ألف في العام ١٨٣٠ و٣١٣ ألفا في العام ١٨٤٠ و٥١٦ ألفا في العام ١٨٥٠ و٨١٤ ألفا في العام ١٨٦٠ . لقد كان عدد سكان ما يعرف الآن بالأقسام الإدارية الخمسة لمدينة نيويورك أكثر من ضعفي عدد سكان فيلادلفيا عند اندلاع الحرب الأهلية. وفي العام ١٨٠٠ عبرت ٩ في المائة من صادرات البلد ميناء نيويورك. وبحلول العام ١٨٦٠ ارتفعت هذه النسبة إلى ٦٢ في المائة مع تحول المدينة إلى ما وصفه شاعر بوسطن الطبيب أوليفر ويندل هولمز (والد قاضي المحكمة العليا)، بنبرة تغلب عليها لواعج الشكوى، بأنه «اللسان الذي لعق زبدة التجارة والمال في قارة بأكملها».

وزحفت المدينة سريعا على جزيرة مانهاتن فكانت تضيف في العام الواحد عشرة أميال من واجهات الشوارع الجديدة في ربع القرن الذي تلا افتتاح القنال. ولا عجب أن روي عن جون جاكوب أستور John Jacob Astor - وهو من كبار المستثمرين في القنال - قوله، وهو على فراش الموت في العام ١٨٩٨، إن الشيء الوحيد الذي يأسف عليه في الحياة أنه لم يشتر مانهاتن كلها. لكنه اشترى منها ما يكفي لجعله أغنى رجل في البلاد ولتتمتع عائلته بثراء عز نظيره في الأجيال المقبلة.

كان العام ١٨١٧ عاما فارقا في تاريخ مدينة نيويورك. إذ لم يشهد فقط بدء أعمال الإنشاء في قنال إري، بل شهد أيضا حدثين بالغي الأثر، أحدهما كان تأسيس خط بلاك بول Black Ball Line، وهو مرسى

للسفن المغادرة في رحلات منتظمة. فقبل العام ١٨١٧ كان على كل راغب في السفر إلى أوروبا أن يحجز مكانا له على سفينة شحن من دون أن ينتظر إلى حين تستعد السفينة للإبحار، وذلك عندما يشعر قبطانها بأن لديه حمولة تكفي لتحقيق مكاسب من الرحلة، وبأن الريح والحالة الجوية مواتيتان. ولا عجب آنذاك أن ينتظر المرء أسبوعا أو أسبوعين قبل إعلان موعد إبحار السفينة ومغادرتها.

وكان على مستوردي النسيج وتجار القطن في نيويورك السفر من حين إلى آخر إلى بريطانيا لغرض التجارة، وكثير منهم كانوا بريطانيي المولد. وقد كانوا يأسفون على الزمن الضائع بانتظار إبحار السفينة، وخرج أحدهم، كان اسمه جيرميا طومبسون، بفكرة غير مسبوقة للحد من الزمن الضائع، إذ اقترح تنظيم طابور للسفن تحت إدارة موحدة تلتزم ببرنامج زمني منتظم تبحر بموجبه في تواريخ تعلن مسبقا.

وأسس - مع أربعة من تجار النسيج - نقابة ونشر إعلانا في إحدى صحف نيويورك في خريف العام ١٨١٧ جاء فيه: «إن المكتتبين تعهدوا بتنظيم طابور (خط) للسفن بين نيويورك وليفربول، بحيث تبحر السفن من كل مدينة إلى الأخرى في يوم محدد في كل شهر من أشهر السنة».

وغادرت أولى السفن نيويورك في ٦ يناير ١٨١٨ حاملة صورة كرة سوداء كبيرة على شراعها الأمامي تمييزا لها. وأثبتت الفكرة على الفور نجاعتها الاقتصادية، فهي لم تنتشر فقط في الموانئ الأخرى وإنما طبقت في وسائل النقل الأخرى التي كانت في طور تشكلها، على سبيل المثال السكك الحديد. وتبدو في يومنا الحالي رحلات السفر المنتظمة - على أساس جدول زمني منتظم - أمرا بدهيا بحيث يصعب أن نتصور عالمنا من دونها. لكنها كانت تعد - في ذلك الحين - من العجائب. إذ كتبت صحيفة نايلز ويكلي ريسجتر Niles Weekly Register في العام ١٨٢٠ أن «هذه الدقة وتلك السرعة شيئان غاية في العجب.. ولو أنهما عرفا في عصور سابقة لكانتا عصيتين على التصديق». وساعد خط بلاك بول كثيرا على ترسيخ سمعة نيويورك بصفتها الميناء الأول للمسافرين والشحن معا في البلاد.

الحدث المهم الآخر في تاريخ نيويورك وقع في العام ١٨١٧، عندما أعلن التأسيس الرسمي لسوق الأوراق المالية (البورصة). لقد حققت وول ستريت نموا سريعا منذ أن تعافت المدينة من ويلات الثورة، لكنها كانت لاتزال في حاجة إلى سوق للأوراق المالية كتلك التي كانت في فيلادلفيا منذ العام ١٧٩٢، فمع نمو الدين القومي بنحو ثلاثة أضعاف بسبب حرب العام ١٨١٢ ارتفع حجم التداول في بورصات البلاد بصورة ملحوظة. لكن معظم هذا التداول تحول إلى فيلادلفيا بفضل مصارفها الكبيرة.

وأرسل سماسرة نيويورك - الذين ما زالوا يعملون باتفاقية باتون وودز- سمسارا اسمه ويليام لامب إلى فيلادلفيا لدراسة سوق الأوراق المالية فيها. وفي ٢٥ فبراير ١٨١٧ اجتمع في مكتب صموئيل بيب Samuel Beebeمجموعة من كبار سماسرة نيويورك ووضعوا نظاما مشابها لنظام بورصة فيلادلفيا. كان ثمة ثمانية وعشرون عضوا أصليا فقط من أصل سبع شركات، وقد شكل هؤلاء مجلس السماسرة ليصبح بعد مدة وجيزة مجلس الأوراق المالية والبورصة في نيويورك. واستأجروا الطابق الثاني من المقر الرئيس لمصرف نيويورك في شارع ٤٠ وول ستريت نظير ٢٠٠ دولار سنويا، واشتمل السعر على خدمة التدفئة أيضا. كانت تلك بداية متواضعة لمؤسسة ستغير اسمها في العام ١٨٦٣ هذه المرة إلى «بورصة نيويورك».

وبعد تراجع حاد - ولكن قصير الأجل - في العام ١٨١٩ شهدت سوق وول ستريت للأوراق المالية رواجا ترافق مع ازدهار عم البلاد. وشرع السماسرة، الذين عملوا في السابق في حقل التأمين وتجارة القطن وبطاقات اليانصيب والأسهم والسندات، بالتخصص في أوراق مالية بعينها. وكان مجلس الأوراق المالية والبورصة في نيويورك واحدة من البورصات التي انتشرت في المدن الرئيسة في البلاد مثل بوسطن وفيلادلفيا وسينسيناتي ولم يعد له قصب السبق عليها. لا بل إن هذا المجلس لم يكن موضع التداول الوحيد في وول ستريت. فقد جرى تداول كثير من الأسهم في الشارع نفسه تحت أعمدة الإنارة، حيث كانت أوراق مالية بعينها تتداول من دون ضوابط أو أنظمة.

ولم يكن التداول نشطا في معظم الأحيان، إذ كان يقل عن مائة سهم في اليوم الواحد أحيانا. وفي ١٦ مارس ١٨٣٠ بلغ حجم التداول في مجلس الأوراق المالية والبورصة بنيويورك ما لا يزيد على واحد وثلاثين سهما في الجلسات الصباحية والمسائية، وهو أدنى مستوى عرفه حجم التداول على الإطلاق.

لكن تلك الحال لن تدوم طويلا. فقد كانت الطرقات والقنوات - مع كل التحسينات التي جلبتها للحياة اليومية والتجارة - لاتزال تقنية قديمة، ترجع إلى زمن الرومان. لكن تقنية البخار الجديدة - عند توظيفها في النقل - ستبرز تلك التقنيات من حيث دورها وأهميتها وستساهم في خلق العالم الجديد. وسيجعل تمويل وول ستريت للنقل بالبخار - وكان مجرد تقنية كمالية في العام ١٨٣٠ - من وول ستريت نفسها عنصرا لا غنى عنه في الاقتصاد الأمريكي.

7

صنائع جيفرسون الهدامة

مضى على صدور ترخيص مصرف الولايات المتحدة عشرون عاما، وأوشك أن ينتهي في العام ١٨١١، وقد وصل عدد المصارف المرخصة من سلطات الولايات - في ذلك الحين - إلى أكثر من مائة مصرف تزاول أعمال الصيرفة، وتسعى كلها إلى الكسب في هذا القطاع التجاري الفريد. فالمصارف تزاول نشاطا السلعة المتداولة فيه هي المال نفسه. فهي تحفظ المال وتقرضه، كما أنها - والأهم من ذلك - تخلقه.

لقد أخذت النقود شكل العملة المعدنية في فترة ألفي السنة التي انقضت منذ ظهورها أول مرة. وكان ضرب النقد حكرا على الحكومات. لكن التدفق العظيم للذهب والفضة إلى بريطانيا من العالم الجديد في القرن السادس عشر لم يحدث فقط تضخما كبيرا، لكنه أدى أيضا إلى نشوء شكل جديد من النقد. فقد كان الناس يودعون معادنهم الثمينة عند صاغة الذهب لحفظها ويأخذون في المقابل إيصالات تسلم بقيمتها. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ

«لا شيء سوى صوت من السماء سيردع الرجل العجوز عن معارضة المشروع، وأنا أشك حتى في أن هذا سينفع».

أحد أعضاء الكونغرس الأمريكي عن الرئيس جاكسون

الناس استخدام الإيصالات لأغراض التداول التجاري. وبفضل سمعة صاغة الذهب، كانت إيصالاتهم بمنزلة المعدن الثمين نفسه - الذي يحفظونه في خزائنهم - الذي تمثله هذه الإيصالات، كما كانت تلك الإيصالات أسهل حملا. وما كاد القانون يجيز تداولها (في بريطانيا في العام ١٧٠٤) وصارت بالتالي ملكية مطلقة لحاملها، حتى تحولت الأوراق النقدية المصرفية (البنكنوت) إلى نقود.

كان صاغة الذهب يزاولون أعمال الإقراض منذ أقدم الأزمنة، وقد شرعوا الآن في تحرير إيصالات بالقروض بدلا من إعطاء المقترض المعدن نفسه. وعلى الفور وسعيا وراء تعظيم الربح بدأ الصاغة إصدار المزيد من الإيصالات بشكل يتجاوز قيمة المعدن الموجود في خزائنهم واللازم لمقابلة تلك الإيصالات، وبفضل السمعة الحسنة لصاغة الذهب لم يكن في ذلك أي حرج، على اعتبار أنه من غير المتصور أن يسعى حملة الإيصالات كلهم - وفي وقت واحد - إلى استردادها.

وبعد إصدار إيصالات تتجاوز قيمتها قيمة الذهب اللازم لوفائها، عمل صاغة الذهب - وقد بلغوا بذلك منزلة المصرفيين - على خلق النقود من العدم تقريبا. ولم يدرك كثير من المثقفين والمتعلمين جوهر عمل المصارف، ومن ثم اعتبروا ذلك - بطبيعته - نوعا من الاحتيال أو قلة الأمانة. وكتب جون آدامز - ذات مرة - أن «كل دولار من الأوراق المصرفية يصدر زيادة على كمية الذهب والفضة في الخزائن لا يملك أي قيمة، وبالتالي فهو بمنزلة احتيال على البعض».

لكن آدامز كان مخطئا. فهذا العمل لم يمت بصلة إلى الاحتيال إطلاقا. إذ كانت القروض - بطبيعة الحال - مضمونة بأصول مقومة كالأراضي والأبنية. وإذا تخلف المقترض عن سداد التزاماته، يحجز المقرض الضمان ويبيعه ليحصل على مستحقاته. والواقع أن عمل المصرفي يتمثل في تحويل رأس المال المعطل في الأصول الثابتة إلى رأسمال سائل يمكن توظيفه في أصول (موجودات) جديدة على نحو يضاعف ثروة المجتمع ويؤسس لاقتصاد أكثر ديناميكية. وهكذا فإن الأصول التي تدعم تلك الأموال، التي خلقت لتقديم القروض، تعود في الأساس إلى المقرض لا المقترض. أما المعدن الثمين المحفوظ في خزائن المصارف فكان عبارة فقط عن رأسمال المصرف، أي الثروة التي يخاطر بها المصرف لحماية نزاهته ومركزه التجاري.

لكن المسألة كلها تتوقف على أولئك الذين لا يختارون استرداد قيمة إيصالاتهم – في الوقت نفسه – حيث إن المصرف لن يكون قادرا على استرداد قروضه أو استدعائها بالسرعة الكافية لتلبية الطلب على المعدن النفيس الذي تمثله الإيصالات. في هذه الحالة سيضطر المصرفي إلى تعليق عمله، وحين يعود كل شيء إلى نصابه الصحيح سيكون المصرفي على شفا الإفلاس. إن الهلع – الذي يعد مصطلحا أساسه علم النفس لا علم الاقتصاد – ينتشر سريعا كالعدوى. إذ يمكن أن ينتقل من مودع إلى آخر في المصرف نفسه، ومن مودع إلى آخر لدى مصرف آخر وبوقع مخيف.

وعليه فإن سمعة المصرفي في إدارة مصرف مستقر ماليا هي أثمن ما يملك من الأصول. وكما بين عالم السياسة البريطاني الكبير في القرن التاسع عشر والتر بيجوت: «يعلم كل مصرفي أنه عندما يضطر إلى أن يثبت سلامة وضعه الائتماني – بغض النظر عن صحة الحجج التي يسوقها – فإن سمعته تكون بالفعل قد ولت من دون رجعة».

لكن، وعلى الرغم من الحاجة الملحة إلى الحفاظ على سمعة غير مشوبة، فإن المصرفيين في آخر المطاف هم أيضا من البشر. إذ إنهم يميلون أحيانا إلى محاباة أصدقائهم ومعارفهم وإلى الإفراط في التفاؤل وأحيانا إلى الانسياق وراء الجشع المفرط وعدم مراعاة الأمانة والاستقامة. وكما هي حال السياسيين تماما، فحالما يستحوذ على المصرفي بريق القدرة على خلق النقود تتعاظم رغبته في خلق الكثير منها. ولهذا السبب تماما كان ألكساندر هاملتون يعتقد أن البلاد في حاجة إلى مصرف مركزي؛ لتنظيم عمل مصارف الولايات والحيلولة دون الإفراط في خلق النقود. وهذا أيضا – بالطبع – سبب كراهية كثير من المصارف التجارية الجديدة في البلاد لمصرف الولايات المتحدة الذي حد من حرية حركتها.

ومع مطلع القرن التاسع عشر كان الحصول على رخصة لتأسيس مصرف يتطلب إصدار قانون من المجلس التشريعي في الولاية. وقد أضاف ذلك جرعة كبيرة من السياسة إلى هذا الإجراء وفتح الباب أمام ما صار يعرف اليوم بالفساد، الذي كان يعد في ذلك الزمن من موجبات مزاولة العمل التجاري. وكان الند السياسي لهاملتون – والشخص الذي اغتاله في نهاية المطاف – آرون بر Aaron Burr قادرا على تأسيس

مصرف بإقحام فقرة في رخصة عمل شركة مانهاتن التي عملت على مد مدينة نيويورك بالماء النظيف. وقد أتاحت الفقرة الحميدة في ظاهرها للشركة استثمار فائض رأسمالها في أي مشروع يجيزه القانون. وفي غضون ستة أشهر من تأسيس الشركة، وقبل أن تمد أنابيب المياه، افتتحت مصرفا لها أطلق عليه «مصرف شركة مانهاتن». هذا المصرف لايزال قائما إلى اليوم تحت اسم «جي بي مورغان تشيس» J.P. Morgan Chase، ثاني أكبر مصارف الولايات المتحدة.

أما مصرف الولايات المتحدة، الذي مقره في فيلادلفيا، فقد افتتح فروعا له في نيويورك وبوسطن وبالتيمور وتشارلستون - وهي أكبر الموانئ الأمريكية - في غضون عام واحد من تأسيسه. وبحلول العام ١٨١٠، كان قد فتح له فروعا في واشنطن ونيوأورلينز وسافانا ونورفولك. وبفضل فروعه المنتشرة في الولايات واحتكاره إيداعات الحكومة الفدرالية صار أقوى مصرف في البلاد على الإطلاق. والمصرف الوحيد الذي كانت أوراقه النقدية (البنكنوت) مقبولة في التداول بقيمتها الاسمية في كل أنحاء البلاد.

هذه القدرة الفائقة أثارت بالطبع انتباه عدد من المناوئين وخصوصا «الجمهوريين القدامى» - الذين كانوا ينظرون إلى توماس جيفرسون المتقاعد على أنه رمز للقيادة السياسية - وأصحاب المصارف العاملة في الولايات. وأراد المصرفيون الساخطون على الضوابط التي طبقها مصرف الولايات المتحدة الحصول على نصيبهم من الإيداعات الفدرالية التي ستساعدهم على توسعة قاعدة القروض. وكانت علاقاتهم السياسية في المجالس التشريعية في الولايات - والتي كانت حينها مسؤولة عن تعيين أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي - قد جعلت منهم قوة نفوذ هائلة. هذا كان واقع الولايات الغربية حديثة النشأة، حيث كانت القوانين المصرفية متساهلة عموما، وحيث كانت كراهية النفوذ المالي الذي تمارسه المناطق الشرقية على أشدها، وكان رهاب الإنجليز Anglophobia الأعلى درجة. وقلما أضاع سكان المناطق الغربية الفرصة للتلميح إلى أن جزءا كبيرا من أسهم المصرف كان بيد حملة أسهم بريطانيين. وقاد هنري كلاي - وكان آنذاك عضوا في مجلس الشيوخ في كنتاكي - حملة المعارضة لإعادة النظر في رخصة المصرف.

وأيد تجار المدن الشرقية إعادة ترخيص المصرف، بعد بلوغ البلاد مراتب الاستقرار المالي. وحتى جيمس ماديسون - الذي عارض في السابق تأسيس المصرف، وكان حينها في منصب الرئيس - أدرك أهمية المصرف كوكيل عن الحكومة الفدرالية وكمصدر لعملة وطنية موحدة. ولقد مارس وزير الخزانة في حكومته - ألبرت غالاتين - كثيرا من الضغوط سعيا لتأمين الموافقة على تجديد رخصة المصرف.

كانت الرخصة على وشك الانتهاء في ٤ مارس ١٨١١، وقدمت إدارة ماديسون وثيقة تدعو إلى تجديد الرخصة لمدة عشرين عاما في ٢٤ يناير. لكن ماديسون - لسوء الطالع، وعلى الرغم من أنه سيحقق له مكانا بين عظماء الأمة الأمريكية بوصفه «أبو الدستور» - كان يفتقر إلى الكفاءة التي يتطلبها منصب الرئيس. إذ لم يمارس ضغوطا كافية لتمرير المشروع أو حتى لتوحيد أعضاء إدارته على الأقل. إذ إن المشروع انتهى إلى فشل ذريع عندما عمل نائبه جورج كلينتون من نيويورك على ترجيح كفة المعارضين في مجلس الشيوخ لمشروع المصرف. لقد كان هذا أهم الأعمال السياسية المستقلة - وإذا جاز القول - الوحيد في تاريخ نيابة الرئاسة الأمريكية، وستكون له عواقب وخيمة.

فقد أعيد ترخيص معظم فروع المصرف في الولايات التي عملت فيها، وبيع مقر المصرف - البناء والأثاث والموجودات جميعا - إلى ستيفن جيرارد وهو تاجر من فيلادلفيا ولد في فرنسا. ودفع جيرارد ١١٥ ألف دولار نظير ذلك، وكان هذا مبلغا كبيرا جدا لتوظيفه في موجودات سائلة. وقد تبين أن تلك الأموال كان مصدرها ثروة طائلة. كان جيرارد - الذي كان يزاول التجارة في بقاع مختلفة من العالم - يعيد توطين أمواله القادمة من الخارج في وقت تدهورت فيه العلاقات مع بريطانيا وفرنسا في العقد الأول من القرن التاسع عشر.

وعمل جيرارد، بعد أن اشترى مشروعا جاهزا Turnkey Operation، على افتتاح مصرف خاص يملكه بنفسه، حيث دعم المشروع بأوراق مالية قابلة للتداول بقيمة ١,٢ مليون دولار وبمبلغ كبير قدره ٧١ ألف دولار. وفي وقت كان فيه أثرياء البلد يعدون على أصابع اليد الواحدة، أثبت ستيفن جيرارد أنه ملياردير.

واستمرت الحالة الدبلوماسية في التدهور، وكان كثيرون في الغرب يتطلعون إلى الحرب مغضبين أملا بفتح كندا في خضمها. وفي يونيو ١٨١٢ أرسل الرئيس ماديسون «خطابا تحذيريا» إلى مجلس الشيوخ أورد فيه بالتفصيل شكاوى الولايات المتحدة من بريطانيا العظمى. ولم يطلب في الخطاب صراحة إعلان الحرب، بل إنه بما عرف عنه من حرص شديد على تجنب ارتكاب أي أخطاء دستورية، عنون ذلك بـ «مسألة عليا يأتمن عليها الدستور - بحكمة منه - الذراع التشريعي للحكومة».

لقد أيدت مناطق الغرب والجنوب الحرب كثيرا، أما الشمال الشرقي، الذي ستتعرض أساطيله التجارية العظيمة وتجارته الدولية للخطر بسببها، فقد عارضها. وصوت المجلس لمصلحة الحرب بتسعة وسبعين صوتا مقابل تسعة وأربعين. ولم يعارضها من الجنوب والغرب إلا ثمانية أعضاء. وصوت مجلس الشيوخ بدوره على تأييد الحرب، لكن بأصوات أكثر تقاربا بين المؤيدين والمعارضين (تسعة عشر مقابل ثلاثة عشر). وفي ١٩ يونيو أعلن ماديسون الحرب على بريطانيا العظمى.

وبإعلان الحرب على القوة العظمى الوحيدة القادرة على مهاجمة الولايات المتحدة، صوت الكونغرس على زيادة أجور الجيش للقوات الخاصة من ٥ إلى ٨ دولارات شهريا، وعلى منح علاوة تجنيد سخية قدرها ٣١ دولارا و١٦٠ فدانا من الأرض، ورفعت تلك التعويضات لاحقا إلى ١٢٤ دولارا و٣٢٠ فدانا. ولم تكن تلك المبالغ بالشيء اليسير آنذاك، حينما كان العامل غير المؤهل يعد ذا حظ عظيم إذا كسب ٢,٥ دولار في الأسبوع. لكن الكونغرس - الذي قرر انتهاج أكثر السياسات العامة تكلفة، وهي الحرب، ورفع تعويضات الجيش بنسب كبيرة - لم يتخذ أي إجراء يساعد على الوفاء بهذه الأعباء وعلق اجتماعاته في الشهر التالي. لقد كان هذا بلا شك، أكثر الأعمال تهورا في تاريخ الكونغرس الأمريكي، الذي ستكون عضويته محط منافسة ستزداد حدة مع مرور الزمن.

والأسوأ من ذلك، ولأن الكونغرس عمد في السنة السابقة إلى إغلاق مصرف الولايات المتحدة، فقد قضى على الآلية المؤسسية الوحيدة التي كانت بيد الحكومة لاقتراض المال اللازم للحرب. ولن يكون أمام وزير الخزانة أي خيار سوى الاعتماد على الاكتتاب العام لتسويق السندات.

وكان أكثر من توافرت لديهم السيولة اللازمة لشراء تلك السندات، من سكان المنطقة الشمالية الشرقية حيث كانت معارضة «حرب السيد ماديسون» على أشدها.

ولو أن النجاح العسكري في الأيام الأولى من الحرب تحقق لرفع من شعبيتها وسهل سبل التمويل. لكن، وعلى الرغم من الانتصارات المتفرقة على البحرية الملكية، فإنها لم تؤثر في نتيجة الحرب ألبتة، وأحكمت بريطانيا حصارها على الموانئ الأمريكية بشدة، مما أدى إلى هبوط حاد في عوائد التعريفات الجمركية وضرائب الوزن. وحلت الكارثة على الأرض في كل مكان. ولم يتسن للجنرال ويليام هل William Hull – الذي أصدر أوامره بغزو كندا العليا (أو ما يعرف اليوم بأونتاريو) من ديترويت – إلا التوغل بضعة أميال في الأراضي الكندية قبل الانسحاب سريعا إلى ديترويت التي سلمها في ما بعد من دون إطلاق رصاصة واحدة. وعقدت لهل محاكمة ميدانية وحكم عليه بالإعدام لتخاذله وإهماله الواجب، لكن ماديسون ونظرا إلى دوره في الثورة (قاتل هل مع واشنطن في معركة ترينتون) عفا عنه واكتفى بتسريحه من الجيش، وباءت محاولتان أخريان للتوغل في الأراضي الكندية – من جهة نياغارا وبحيرة شامبلين – بالفشل، إن لم نقل بالفشل الذريع.

وفي مطلع ربيع العام ١٨١٣ بلغ الوضع المالي لحكومة الولايات المتحدة أدنى مستوياته. وفي مارس كتب وزير الخزانة إلى الرئيس ماديسون أنه «ليس لدينا المال الكافي لتلبية مصاريف الشهر». وفي الثامن من فبراير ١٨١٣، فوض الكونغرس إلى الخزانة اقتراض ١٦ مليون دولار، أي ما يفوق كثيرا أكبر القروض في تاريخ الولايات المتحدة القصير. وعمل جالاتين (*) ما بوسعه لتأمين مصادر القرض بشروط ميسرة. إذ أتيح للفرد الواحد الاكتتاب على ١٠٠ دولار فقط، وأن يدفع قيمة استثماراته تلك في ثمانية أقساط شهرية. ورُتب القرض على أن يغلق باب الاكتتاب في ١٣ مارس، وأن يبقى باب الاكتتاب مفتوحا إلى آخر الشهر إذا لم يستقطب الاكتتاب ما يكفي من المال. وكان يجب ألا تقل قيمة السندات المكتتب بها عن ١٦ مليون دولار تماما وإلا فلن يقر القرض.

(*) ألبرت جالاتين: وزير الخزانة الأمريكية آنذاك [المترجم].

وكان الاكتتاب أقل من ٤ ملايين دولار حتى ١٣ مارس، فمدد جالاتين فترته. لكن ذلك لم يحدث فرقا يذكر، ولم يكتتب على كل الإصدارات بسبب بطء الاتصالات. وأدرك جالاتين أن القرض باء بالفشل فنقل إلى ماديسون في ما بعد أن «الخزانة استنفدت كثيرا في أول أيام هذا الشهر بحيث إن ما بقي فيها من رصيد – على الرغم من قلته، وهو مبالغ متفرقة لدى أكثر من ثلاثين مصرفا – لا يكفي لأي نفقات إضافية». وهكذا، أفلست الحكومة وأوشك المجهود الحربي على الانهيار، ليس بسبب الهزيمة العسكرية، بل بسبب نضوب الموارد المالية.

وأمهل جالاتين نفسه خمسة أيام إضافية للعثور على مقرض الملاذ الأخير إذا ما دعت الضرورة. وفي ٥ أبريل مضى لمقابلة الرجل الوحيد في البلاد الذي يمكن أن يقدم المساعدة وهو ستيفن جيرارد.

وأبلغه جالاتين أن إجمالي مبلغ الاكتتابات قد بلغ ٥,٨٣٨,٢٠٠ دولار، وأن نقابة نيويوركية يرأسها جون جاكوب آستور مستعدة لتقديم ٢,٠٥٦,٠٠٠ دولار إذا نجح القرض. وبالتالي كان لا بد من تأمين الاكتتاب على ٨,١٠٥,٨٠٠ دولار حتى ذلك اليوم ليتسنى تجنب الكارثة الكبرى. لقد كان المبلغ كبيرا. فالإيرادات الحكومية من مصادرها المختلفة لم تتجاوز في العام ١٨١٢ مبلغ ٩,٨٠١,٠٠٠ دولار.

وعلى الرغم من ثروة ستيفن جيرارد فإنها كانت أقل من ٨ ملايين دولار. ومع ذلك، فقد أعلن على الفور موافقته، واكتتب خطيا «بباقي القرض المذكور». كان شرطه أن يودع المبلغ المتبقي في مصرفه إلى حين الطلب، وأن يحصل على عمولة ربع من ١ في المائة على القرض لتغطية تكاليف بيع الحصص الأخرى إلى غيره من المكتتبين.

ولم تكن تلك الخطوة بالجرأة التي بدت عليها في الظاهر، على الرغم من أنها كانت على حد كاف من الجرأة. وكان جيرارد يتمتع بتصنيف ائتماني لا يشق له غبار، لا بل يفوق وضع الحكومة الائتماني، وكان يرجو أن يبيع حصصا كبيرة من ذلك القرض. ولتأمين المبلغ الكلي كان أمامه ثمانية أشهر.

لقد فاقت سمعته الائتمانية كثيرا سمعة الحكومة، ذلك أنه في غضون عشرة أيام، وحالما انتشرت الأخبار عن دور جيرارد كمشارك رئيس، استطاع بيع حصص بقيمة ٤,٦٧٢,٨٠٠ دولار إلى غيره من المستثمرين.

ومع امتلاء الخزانة بالمال من جديد شهدت الأوضاع العسكرية تحسنا فوريا. إذ استطاع ويليام هنري هاريسون استعادة ديترويت، وحقق الجيش الأمريكي نصرا كبيرا في يورك (تورنتو، اليوم)، وألحق بالأسطول الإنجليزي هزيمة ساحقة على ضفاف بحيرة إري Erie. وتقدم البريطانيون - وقد تناهت إليهم أنباء الصعاب المالية التي تعانيها حكومة الولايات المتحدة - إلى روسيا للتوسط بينهما. وحينئذ، ورغبة من بريطانيا في إنهاء هذه الحرب الصغيرة المزعجة، والتي لا توليها اهتماما كبيرا بالمقارنة بشؤونها الأخرى في العالم، اقترحت بريطانيا إجراء محادثات سلام في جينت Ghent في ما بات يعرف اليوم ببلجيكا. وأمكن للولايات المتحدة الهروب من شبح الكارثة المحيقة بها. ومع ذلك، فقد عانت كثيرا إحراق العدو لعاصمتها.

ومع حل مصرف الولايات المتحدة، ارتفع عدد مصارف الولايات ليتضاعف في العامين ما بعد ١٨١١، وأصدر أكثر تلك المصارف أوراقا نقدية (بنكنوت). وقدر آدم سميث أن بإمكان أي مصرف إصدار أوراق نقدية - من دون خشية أي عواقب - تعادل خمسة أضعاف رأسماله، وحددت بعض الولايات إصدار الأوراق النقدية بما يعادل ثلاثة أضعاف رأس المال. لكن ولايات أخرى لم تضع مثل هذه الشروط. وفي العام ١٨٠٩ أصدر مصرف في رود آيلاند - برأسمال لم يتجاوز ٤٥ دولارا - أوراقا نقدية بقيمة ٨٠٠ ألف دولار، أي أكثر من سبعة عشر ألف ضعف من رأس المال. كان ذلك، بالطبع، من باب الاحتيال، وليس ممارسة العمل المصرفي، لكنه كان الأول في سلسلة من آلاف حوادث فشل المصارف في الولايات المتحدة. وقد أصبحت هذه الحوادث - والفضل في ذلك لتوماس جيفرسون ومن سار على نهجه من السياسيين - ظاهرة أمريكية تماما، مثلها مثل فطيرة التفاح.

ولم يقيد بعض الولايات عملية إصدار الأوراق النقدية من قبل المصارف. وعلى الرغم من أنها كانت تسمى بالاصطلاح التقني «سند إثبات مؤقت» Scrip، وكانت الغاية منها سد النقص العابر في كمية النقد المتداول، فقد أصدرت العملات الورقية من قبل السلطات البلدية والاتحادات التجارية والمصانع وحتى بعض الأفراد. إذ أصدرت جهة أطلقت على نفسها اسم «مجموعة من بقاليات فيلادلفيا» سندات الإثبات المؤقت، ومنها ورقة نقدية

من فئـة سـتـة سنتات وربع السنت (جـزء من سـتـة عشـر جـزءا من الدولار أو نصف شلنغ) كانت قابلة للاسترداد «عند الطلب في صورة سلع من البقاليات أو بالأوراق النقدية المصرفية في فيلادلفيا».

ورغبت إدارة ماديسون - التي لم تغب عن ذهنها كارثة العام ١٨١٣ - في تأسيس مصرف مركزي. واعترض ماديسون على مشروع قانون تأسيس هذا المصرف في العام ١٨١٥ لأسباب تقنية، لكنه أقر مشروعا رفع إليه في العام ١٨١٦ بترخيص المصرف الثاني للولايات المتحدة لمدة عشرين عاما. وقد شهدت الجوانب السياسية المتصلة بتأسيس المصرف المركزي تقلبات كبيرة. ففي العام ١٨١١ عارض هنري كلاي، من كنتاكي، إعادة ترخيص المصرف الأول. وبات الآن يدعم تأسيسه شخصيات من مثل جون سي كالهون، من كارولينا الجنوبية. أما دانييل ويبستر، من ماساتشوستس، الذي كان ذات يوم مؤيدا بحماسة للمصرف الثاني للولايات المتحدة فقد انقلب إلى معارض له.

وكانت المناطق التي مثلها كالهون وكلاي تعاني نقصا حادا في النقد المتداول. والسبب في ذلك هو أن نيوإنغلاند - التي شهدت صناعاتها نموا سريعا كما تجارتها الخارجية، وذلك بفضل حصتها الكبيرة في الأسطول التجاري للبلد - كانت تحقق فائضا تجاريا كبيرا مقارنة بالولايات الأخرى، مما أدى إلى استنزاف النقد من الغرب والجنوب وتحوله نحو الشمال الشرقي. وشعر كالهون بأن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو تأسيس مصرف وطني. أما ويبستر، الذي لم يرغب في إيجاد حل للمشكلة، فقد سعى جاهدا للإبقاء على الوضع الراهن.

صحيح أن المصرف الثاني للولايات المتحدة، ومقره فيلادلفيا، سيجلب - كما فعل المصرف الأول، بعد بداية متعثرة - الاستقرار للنظام النقدي الأمريكي - لكنه لن يتمكن من السيطرة على هذا النظام كما فعل المصرف الأول. فقد كانت البلاد تشهد نموا اقتصاديا سريعا، وقد انتشرت مصارف الولايات على نطاق واسع في فترة السنوات الخمس الفاصلة بين تأسيس المصرفين.

وقد طبقت بعض الولايات قوانين مصرفية ناجعة. إذ كان لدى ميسوري - التي انضمت إلى الاتحاد في العام ١٨٢١، وإنديانا التي انضمت في العام ١٨١٦ - مصرف مركزي، تملكه للولاية ويعمل عبر عدد من الفروع.

وقد حقق هذا النظام أداء حسنا. أما لويزيانا (التي انضمت إلى الاتحاد في العام ١٨١٢)، فقد أحكمت رقابتها على مصارفها التجارية واشتهرت بنظامها المصرفي الراسخ. ومن ناحية أخرى، اشتهرت إلينوي أيضا (وقد انضمت إلى الاتحاد في العام ١٨١٨) بحوادث الاحتيال والفساد وفشل المصارف. وبغض النظر عن الولايات ذات الأنظمة المصرفية الفعالة، فإن فشل المصارف صار ظاهرة شائعة في تلك الحقبة. فقد أعلن نصف المصارف التي أسست بين العامين ١٨١٠ و١٨٢٠ فشلها بحلول العام ١٨٢٥.

وظهرت إلى حيز الوجود مئات المصارف الأخرى، وأصدر كثير منها أوراقا نقدية مصرفية (بنكنوت). وطبع كثير من الأشخاص، من دون أن يكونوا أصحاب مصارف خاصة، هذه الأوراق النقدية وسعوا إلى وضعها في التداول. وبدأت المطابع تنشر «كاشفات الأوراق النقدية» التي أحصت إصدارات الأوراق النقدية قيد التداول في أنحاء شتى من البلاد وقيمتها. لقد قدر عدد إصدارات النقد الورقي المتداول - مع حلول منتصف القرن التاسع عشر - بالآلاف، وهذا ما خلق تنافرا «نقديا» ترك أثرا سيئا، كالأثر الذي خلفه ذلك الخليط العجيب من قطع النقد الأجنبي وشهادات المصانع وكمبيالات الدين في الأقاليم.

لم يكن لأحد، ولا حتى توماس جيفرسون، القدرة على صياغة صورة الحزب الديموقراطي وفلسفته الاقتصادية قبل فرانكلين روزفلت سوى أندرو جاكسون. إن الحزب الديموقراطي الحالي ملتف حول الشخصية السياسية الفذة لجاكسون. فقد اعتقد جاكسون وجيفرسون بضرورة دفع مركز النفوذ إلى مستوى أدنى في السلم الاجتماعي. إذ كان كلاهما يحمل كرها عميقا للامتيازات الموروثة وما أسماه جاكسون «قوة المال»، وقصد بها المصارف خصوصا الكبيرة منها والضاربة جذورها والمتنفذة. لكن الرجلين كانا يتكشفان أيضا عن فروق عظيمة واختلافات جذرية. فقد حقق جيفرسون فلسفته بالوسائل الفكرية، فهو كان أولا وأخيرا رجل فكر. أما جاكسون فكان رجل فعل وعمل. إن من الصعب تصور توماس جيفرسون وقد انخرط في مبارزة أو نزال. لكن جاكسون شهد ثلاثة نزالات على الأقل - وقتل نده في أحدها وتجنب كثيرا من النزالات الأخرى لمجرد أن أنداده أذعنوا له. ولم يرتد جيفرسون لباسا رسميا طوال حياته، أما

جاكسون فكان جنرالا مبرزا حقق لنفسه شهرة قومية لانتصاراته الكاسحة على البريطانيين في معركة أورلينز في العام ١٨١٥، (على الرغم من أن هذا الانتصار كان غير ذي شأن، بعد توقيع معاهدة السلام آنذاك). والأهم من هذا هو أن جيفرسون كان سليل أسرة غنية وكان يباهي كثيرا بالمال والثروة. أما جاكسون فيتحدر من أسرة فقيرة جدا. لكنه لم يشأ أن يموت فقيرا، وبالفعل لم يمت فقيرا.

لقد مثل أندرو جاكسون ثورة في عالم السياسة الأمريكية، وهذا ما حمل مؤرخ القرن التاسع عشر الشهير جورج بانكروفت على اعتباره آخر الآباء المؤسسين. وكتب بانكروفت: «كان آخر الأسماء العظيمة التي تحشد حولها غلالات يبنى عليها مجد أمريكا». وكان جاكسون أول رئيس لم يأت من ماساتشوستس أو فرجينيا. وهكذا فقد دفع مركز الثقل السياسي في البلاد سريعا نحو الغرب. وكان أيضا أول رئيس لم يتحدر من أسرة تنتمي إلى الطبقة الكولينالية العليا. إذ إن مسقط رأسه كان في منطقة التخوم في كارولينا الجنوبية، حيث ولد في العام ١٧٦٧ لأب اسكتلندي وأم إيرلندية هاجرا إلى أمريكا، وعرف اليتم ولمايزل طفلا، بعد أن توفيت أمه وشقيقاه بسبب الغزو البريطاني لكارولينا في زمن الثورة الأمريكية. ولذلك حمل جاكسون كرها لبريطانيا العظمى لازمه طوال حياته.

ولم ينل جاكسون قسطا كبيرا من التعليم الرسمي لكنه درس القانون في مكتب محاماة في ساليزبيري بكارولينا الشمالية، وقبل عضوا في جمعية المحاماة في العام ١٧٨٧. وانتقل بعد مدة وجيزة إلى ناشفيل في ولاية تينيسي التي لم تكن آنذاك سوى تجمع من الأكواخ الخشبية. وزاول جاكسون المحاماة وضارب في الأراضي، وذاك هو أسرع - وأخطر - الطرق إلى الثروة. وفي الوقت الذي أضحت فيه تينيسي ولاية في العام ١٧٩٦، أصبح جاكسون رجلا ثريا بمعايير الزمان والمكان. وانتخبوه أول عضو في الكونغرس عن تينيسي وصار عضوا في مجلس الشيوخ الأمريكي فترة قصيرة في السنة التالية.

ووصف جيمس بارتون - وهو من أوائل من كتب السيرة الذاتية لجاكسون - ما أسماه «سر ثرائه». وكان ذلك أيضا سر أولى الثروات المكتسبة في مناطق التخوم. فكتب بارتون: «اشترى جاكسون إقطاعات واسعة من الأرض بثمن بخس (جرس حصان أو بقرة)، واحتفظ بها حتى ارتفع ثمنها بعد تدفق

المهاجرين إليها. وانخرط جاكسون - مثله مثل أكثر المضاربين في الأراضي - أحيانا في صفقات معقدة دخل فيها عنصر الدين. وباع في العام ١٧٩٥ - رغبة منه في أن يؤسس لنفسه تجارة يزاولها - ٦٨ ألف فدان من الأرض إلى دافيد أليسون، وقبل منه كمبيالات نظير ثمنها. واستخدم الكمبيالات ضمانا لشراء البضائع اللازمة لتجارته. لكن أليسون انتهى إلى الإفلاس، وعاد جاكسون صفر اليدين.

وستستغرق منه تسوية هذه المسألة نهائيا خمسة عشر عاما، وقد خلف ذلك في نفسه خوفا من الدين وأساليبه لازمه طوال حياته. كان أندرو جاكسون يرى النقد الحقيقي يتجسد في المسكوكات - القطع الذهبية والفضية - أما النقد الورقي وما عرف آنذاك بالأوراق التجارية - الكمبيالات والسندات الأذنية والشيكات المصرفية وما شابهها - فكان في نظره، كما كان يراه جون آدامز في الجيل السابق، ضربا من الاحتيال.

لقد كان واضحا منذ البدء أن إدارة جاكسون لن تكون كسابقاتها، إذ إن احتفالات التنصيب السابقة كانت تتم بأسلوب توجيه الدعوات، بهرج المجتمع النبيل. أما حفل الاستقبال لدى تنصيب الرئيس جاكسون فحضره كل من أتيح له ولوج باب البيت الأبيض. ووصلت قيمة الأضرار الناتجة عما تحطم من زجاج وخزف وأثاث إلى عدة آلاف من الدولارات. وكان حشد الحضور كبيرا مما عرض سلامة جاكسون إلى الخطر، فهرب من إحدى النوافذ، بينما حمل الخدم زجاجات الشراب خارجا إلى حديقة البيت الأبيض لحمل الحشود على الخروج.

وكان أول عمل يقدم عليه جاكسون لدعم النظام المالي بعد وصوله إلى البيت الأبيض بسيطا هو سداد الدين القومي. فلقد قلص الدين القومي - الذي بلغ أكثر من ٨٠ مليون دولار في العام ١٧٩٢ - إلى ٤٥ مليون دولار فقط في العام ١٨١١، وأدت حرب العام ١٨١٢ إلى ارتفاع حاد في قيمة الدين ليتجاوز ١٢٥ مليون دولار في العام ١٨١٥، وحققت التعريفات الجمركية المرتفعة فوائض ضخمة بعد الحرب، وفي الوقت الذي وصل فيه جاكسون إلى سدة الرئاسة بلغت قيمة الفوائض ٤٨,٥٦٥,٠٠٠ دولار.

كان جاكسون ينشد غايتين من تخليص البلاد من عبء الديون. الأولى - طبعا - اعتقاده الشخصي أن الدين أمر غير محبذ بذاته ولذاته. وقد أسماه «وبالا على الأمة» National Curse، وذلك في حملته الرئاسية الأولى في

العام ١٨٢٤، لكنه رأى أيضا أن المؤسسات والأشخاص الذين أفادوا من ذلك الدين كانوا «وبالا على الأمة» أيضا. وروي عنه أنه قال: «أتعهد بسداد الدين القومي وأن أحول دون تنامي الطبقة الأرستقراطية الثرية حول إدارتنا وتوجيه تلك الإدارة لخدمة مصالحها وتقويض حرية بلدنا». وفي سبيل هذه الغاية، رغب جاكسون كثيرا في التضحية بما أطلق عليه «التحسينات الداخلية»، كالطرق التي كانت أثيرة على قلوب أبناء جلدته في المناطق الغربية، إذ أكد أنه بعد سداد الدين القومي ستكون ثمة وفرة من الأموال تكفي لمشاريع التطوير. وعندما توسل أحد أعضاء الكونغرس عن كنتاكي لجاكسون بعدم اللجوء إلى نقض مشروع التحسينات، وعده جاكسون بدراسة وافية للمسألة. لكن عضو الكونغرس نقل إلى زملائه أن «لا شيء سوى صوت من السماء سيردع الرجل العجوز عن معارضة المشروع، وأنا أشك حتى في أن هذا سينفع».

ومع نهاية العام ١٨٣٤ استطاع جاكسون أن يخطر الكونغرس في «خطاب حالة الاتحاد» أن البلد سيكون قد تخلص من ديونه في الأول من يناير ١٨٣٥، وسيكون ثمة فائض بقيمة ٤٤٠ ألف دولار. ورأى جاكسون في هذا أعظم إنجازاته، ووافقه الرأي كثيرون في الولايات المتحدة. وكتبت صحيفة واشنطن غلوب Washington Globe – مذكرة بأن سداد الدين يتزامن مع الذكرى العشرين لمعركة نيوأورلينز – أن «نيو أورلينز والدين القومي– في الأولى دفعنا بأرواح كثيرة إلى أعدائنا، وفي الثانية دفعنا آخر سنت إلى أصدقائنا».

وأشار كبير القضاة روجر بي تيني إلى أنها «كانت المرة الأولى في تاريخ الأمم التي يسدد فيها دين عام بهذا الحجم دفعة واحدة». ولاتزال تلك الحادثة الأولى والأخيرة إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم من أن دافع جاكسون الأساسي لسداد الدين كان مستمدا من فكرة بسيطة – وهي كذلك بالنسبة إلى الحكومات السيادية – مفادها أن «على المرء ألا يقترض إلا إذا دعته الحاجة فقط»، فقد كان منساقا أيضا بدافع آخر. ففي ذلك الحين كانت المصارف تستخدم السندات الفدرالية ضمانات على إصداراتها من الأوراق النقدية المصرفية (بنكنوت)، وبسبب رغبة جاكسون في التخلص من النقد الورقي، فقد سعى إلى ذلك عبر التخلص من «الضمانات».

ولم يخش جاكسون سوى معقل «الأرستقراطية المثرية» ممثلا في المصرف الثاني للولايات المتحدة ورئيسه الأرستقراطي الفيلادلفي نيوكلاس بيدل.

كان بيدل على وجه النقيض تماما من جاكسون، فقد ولد لأسرة مرموقة، ونال قسطا وافرا من التعليم وأكثر من السفر والتجوال، وكان يتمتع بالملاءة المالية. ولأنه تدرب على المحاماة، فقد أنفق ثلاث سنوات في أوروبا عمل فيها سكرتيرا لجيمس مونرو حين كان الأخير وزيرا في حكومة بريطانيا العظمى. وبعد أن تزوج جين كريغ - وريثة عائلة ثرية - تخلى عن عمله في المحاماة وأصبح محرر مجلة أدبية فيلادلفية اسمها بورتفوليو Portfolio، ولم ينقض وقت طويل حتى شيد منزلا فارها في الولايات المتحدة بأندالوسيا Andalusia على شاطئ نهر ديلور شمالي فيلادلفيا، حيث لاتزال عائلة بيدل تقطن إلى اليوم.

وفي العام ١٨١٩ عين الرئيس مونرو بيدل في مجلس إدارة المصرف الثاني للولايات المتحدة. وأصبح بيدل رئيسا للمصرف في العام ١٨٢٣، ذلك أن المصرف الثاني شهد بداية متعثرة مع أول رئيس له، وليام جونز، الذي ضارب على أسهم المصرف وانخرط في ممارسات مريبة. واستقال جونز بعد تحقيق أجراه الكونغرس وخلفه لانغدون شيفر الذي سعى إلى معالجة الفوضى التي خلقها جونز. لكن هذا - ولسوء الطالع - ساعد كثيرا على إطلاق موجة الهلع في العام ١٨١٩ وما أعقبها من تدهور قصير الأجل في حركة التجارة.

وعندما تبوأ بيدل منصب رئيس المصرف كانت حالة العداء تجاه المصرف قد زالت تقريبا، وذلك بفضل تعافي الاقتصاد والسياسات القويمة التي انتهجها المصرف. ولم يكن ذلك بمسألة ذات بال في الحملة الرئاسية للعام ١٨٢٤ - عندما كسب جاكسون أغلبية أصوات الناخبين - مع أنه خسر انتخابات مجلس النواب أمام جون كوينزي آدامز، عندما حقق جاكسون نصرا كاسحا على آدامز الذي لم يمتلك الشعبية اللازمة. وصوت بيدل لمصلحة جاكسون في حملتي الانتخابات تلك.

ولم يطل بجاكسون المقام في البيت الأبيض حتى أظهر مقته الشديد للمصارف - وعلى وجه الخصوص تلك الكبرى والمتنفذة منها - في أول خطاب له بوصفه رئيسا أمام الكونغرس. وقد أثار مسألة إعادة ترخيص

المصرف الثاني للولايات المتحدة قبل سبع سنوات من انتهاء الرخصة. وفي العام ١٨٣٢ ترشح جاكسون لفترة رئاسية ثانية، وبدا أنه كان عازما على التخلص من ذلك المصرف.

وقاوم بيدل بكل ما أوتي من قوة، لقد كان كثير من أعضاء الكونغرس يتمتع بعلاقات طيبة مع المصرف (وقد استفاد كثير منهم من قروضه الميسرة، وهذا أيضا من مبررات المصلحة في تلك الأيام، ولا ينم عن أي شكل من أشكال الفساد)، وضغط عليهم بيدل لإقرار مشروع إعادة ترخيص المصرف خمس عشرة سنة أخرى قبل أن تعلق اجتماعات الكونغرس في عطلة صيف العام ١٨٣٢، وأمل جاكسون في أن يضع ذلك ضمن قائمة المسائل التي سيطرحها في حملته الانتخابية. وفي خضم السياسة الصريحة bare knuckle التي ميزت ذلك العصر عندما كانت الصحف تجاهر بانتمائها الحزبي وتتحيز في تغطيتها الصحافية انقلب النزاع على المصرف إلى مواجهة علنية.

وأخيرا أجاز الكونغرس مشروع إعادة الترخيص وبدأ الاستعداد لتعليق اجتماعاته. لكن عندما تبين أن جاكسون كان يعتزم استخدام فيتو الجيب Pocket Veto (*) لإبطال المشروع، أقنع هنري كلاي الكونغرس بمتابعة الانعقاد إلى أن يرغم جاكسون على توقيع المشروع أو استخدام حق النقض (الفيتو) وعرض أسبابه الموجبة لذلك. وكان جاكسون - وهو رجل اعتاد أن يولي دبره في أي مواجهة - سعيدا جدا بقبول التحدي. فأصدر بيانا لاذعا بمعارضة المشروع. وكان هذا البيان يحفل بروح الخطاب الانتخابي بقدر ما كان عملا صادرا عن رجل دولة محنك. وحاجج بأن المصرف كان يمثل احتكارا محابيا للأغنياء ومجحفا بحق المواطن العادي. كما أنه على الرغم من أحكام المحكمة العليا التي قضت بخلاف ذلك، فقد أعلن جاكسون عدم دستورية تلك الأحكام. ولم يتسن للكونغرس إبطال النقض (الفيتو).

وبعد النصر الساحق الذي حققه جاكسون في نوفمبر من ذلك العام، أصبح المصرف الثاني للولايات المتحدة - على الرغم من أن رخصته بقي على انتهائها أربعة أعوام - كميت يمشي على قدمين. ولم يكن جاكسون

(*) فيتو الجيب: فيتو غير مباشر يستخدمه الرئيس الأمريكي على مشروع قانون يقدم إليه بحيث يبقى الفيتو (النقض) من دون توقيع إلى ما بعد انتهاء دورة الكونغرس [المترجم].

قانعا بأن ينتظر انتهاء رخصة المصرف فقط، بل بدأ أيضا بسحب الإيداعات الفدرالية منه وتحويلها إلى ما دأب مناوئوه على تسميته «المصارف المدللة». ومع نضوب إيداعات المصرف تراجعت قدرته على إصدار النقد الورقي والرقابة على العدد المتزايد من المصارف المرخصة على مستوى الولايات. وعملت «المصارف المدللة» على الفور - وقد امتلأت خزائنها بالإيداعات الفدرالية - على زيادة كمية النقد الورقي المطروحة في التداول. وتحولت الرقابة على عرض النقد في البلاد من مؤسسة واحدة ذات بعد وطني طويل الأجل إلى عدد من المؤسسات المحلية. وكانت كل مؤسسة من تلك المؤسسات معنية فقط بمصالحها الخاصة قصيرة الأجل.

وعلى الرغم من أن العام ١٨٣٤ شهد تراجعا محدودا في الأداء الاقتصادي، بعد أن استدعى المصرف الثاني للولايات المتحدة قروضه، فإن مطلع ثلاثينيات القرن التاسع عشر تميز بازدهار واسع النطاق بفضل الارتفاع السريع في أسعار القطن في مناطق الجنوب الذي أدى بدوره إلى تسارع حركة التصنيع في الشمال وتحسين شبكة النقل. وقد ساهم هذا كله في زيادة الناتج المحلي الإجمالي بمعدلات سريعة وزاد عدد المصارف في البلاد من ٣٢٩ في العام ١٨٢٩ إلى ٧٨٨ في العام ١٨٣٧، لكن القيمة الاسمية للنقد الورقي المصرفي قيد التداول ارتفعت ثلاثة أضعاف، كما زادت قيمة القروض الممنوحة أربعة أضعاف في تلك الفترة.

وكما هو شأن فترات الازدهار، تصاعدت حدة المضاربة بوقع سريع أيضا. كما ارتفع كثيرا التداول بالأسهم في بورصة وول ستريت إلى درجة أن اسم وول ستريت بات يطلق لأول مرة كناية عن المنظومة المالية الأمريكية.

ولم تكن المضاربة على أشدها كما كانت في المناطق الغربية، حيث كانت الأرض - وليس الأوراق المالية - محط الاهتمام. فقد اشترى أولئك الذين لم تكن لديهم نية الاستقرار إقطاعات واسعة من الأرض من الحكومة الفدرالية، وأدوا أثمانها نقودا ورقية اقترضت من المصارف المحلية بكميات كبيرة. وبلغت مبيعات الحكومة الفدرالية من الأراضي - عبر مكتب الأراضي العامة التابع للحكومة - ٢,٥ مليون دولار في العام ١٨٣٢، ووصلت إلى ما يقارب ٢٥ مليون دولار في العام ١٨٣٦، ليصل في مطلع صيف ذلك العام إلى ٥ ملايين

دولار شهريا. هذا الاندفاع على شراء الأراضي من الحكومة الفدرالية هو أصل العبارة «إنجاز عمل مكتب الأراضي» (*)، وقد روع جاكسون، الذي ربما لم يستوعب إطلاقا كيف أدت سياساته الخاصة إلى ارتفاع أبغض الأشياء إليه: المضاربة والنقد الورقي.

لكنه كان يعي تماما ما كان يجري، فكتب لاحقا «إن إيصالات الأراضي العامة ما هي إلا قيود ائتمانية على المصرف». لقد أتاحت المصارف نقودها الورقية للمضاربين فدفعت إلى مستحقيها وعادت على الفور إلى المصارف لتقرضها مرة أخرى وأخرى، فلم تكن إلا أدوات وضعت بيد المضاربين أثمن الأراضي العامة. وبالفعل فقد وضعت كل موجة مضاربية الأساس للموجة التالية.

وكما هي ردة الفعل المألوفة عن جاكسون، فقد صمم أن يفعل شيئا حيال ذلك. وفي ربيع ذلك العام اقترح على مجلس الوزراء أن يصدر تعليمات إلى مكتب الأراضي بألا يقبل إلا الذهب والفضة ثمنا للأراضي، مع استثناء المستوطنين الحقيقيين الذين يحق لكل منهم شراء ٣٢٠ فدانا على الأكثر، ويقبل النقد الورقي المصرفي في أداء الثمن حتى الخامس عشر من ديسمبر من ذلك العام. وعارض أكثر الوزراء - وكان كثير منهم ضالعا في المضاربة على الأراضي - هذه الخطة، وكان واضحا أن الكونغرس - الذي أيضا كان كثير من أعضائه ضالعين في المضاربة بالدرجة نفسها - لن يدعم تلك الخطة.

لذلك انتظر جاكسون حتى علق الكونغرس اجتماعاته (للعطلة الصيفية) وأصدر في ١١ يوليو أمرا تنفيذيا عرف بـ «تعميم النقد المعدني» Specie Circular، ومن نافلة القول تأكيد أن الغاية من ذلك إنما كانت وقف حركة المضاربة في الأراضي الغربية على الفور. لكن ذلك أدى أيضا إلى ارتفاع كبير في الطلب على النقد في المناطق الغربية، مما استنزف المصارف الشرقية ذهبها وفضتها وفتح الباب أمام الاكتناز. ووجد كثير من المصارف في المناطق الغربية نفسه في ضائقة مالية - خصوصا «المصارف المدللة» - وذلك بفضل جزء آخر من برنامج جاكسون المالي.

وبسداد الدين القومي وتحقيق الحكومة فوائض مالية ضخمة (ارتفعت الإيرادات الحكومية بنسبة ١٥٠في المائة بين العامين ١٨٣٤ و١٨٣٦، ومن أسباب ذلك الارتفاع الكبير في مبيعات الأراضي)، وصارت مسألة تحديد الإجراء اللازم اتخاذه بشأن النقد ملحة جدا. وقد أقنع جاكسون الكونغرس

(*) To do a land office business [المترجم].

بأن يعهد بذلك إلى حكومات الولايات المحلية بدءا من الأول من يناير ١٨٣٧، وبدأت المصارف «المدللة»، وقد واجهتها مشكلة استنزاف كثير من الإيداعات الحكومية، استدعاء قروضها.

ومع تخلف المقترضين الذين لم تتوافر لديهم السيولة اللازمة لسداد قروضهم، عمت المناطق الغربية موجة من إفلاسات المصارف وبدأت تمتد إلى المناطق الشرقية. وبادر مصرف إنجلترا، للحيلولة دون خروج الذهب من البلاد، إلى رفع أسعار الفائدة وتراجعت الاستثمارات البريطانية في الأوراق المالية الأمريكية مع تراجع مشتريات بريطانيا من القطن. وتراجعت وول ستريت. وفي الثاني من يناير ١٨٣٧ أوردت صحيفة هيرالد نيويورك أن أسعار الفائدة التي كانت في السابق ٧ في المائة قد أضحت الآن ٢ في المائة أو حتى ٣ في المائة شهريا.

وبدأ الاقتصاد الأمريكي ينحدر في مهاوي الكساد. وانخفض سعر القطن إلى النصف في مارس. وارتفع حجم التداول كثيرا في خضم موجة الهلع (وبلغ أحيانا مستوى غير مسبوق آنذاك: عشرة آلاف سهم في اليوم). وفي أبريل كتب فيليب هون Philip Hone – وهو عمدة نيويورك الأسبق – وقد اكتوى هو نفسه بنار الكساد، في مذكراته أن "الثروات الفاحشة التي سمعنا عنها كثيرا في أيام المضاربة قد ذابت كالثلج تحت شمس أبريل. ولا يمكن لامرئ أن ينأى بنفسه عن الكارثة إلا إن كان لا يملك المال أصلا، إنه لسعيد ذلك الذي لم تثقل كاهله الديون أو كان حرا منها. وفي مطلع الخريف أغلقت ٩٠٪ من مصانع البلاد، وتراجعت الإيرادات الفدرالية إلى النصف في العام ١٨٣٧.

وفي مايو علقت مصارف نيويورك عمليات السداد بالنقد المعدني (الذهب والفضة) وتبعتها في ذلك المصارف التي تقع في المدن الشرقية الرئيسة. وكانت مصارف فيلادلفيا الكبرى هي الأكثر تضررا من جراء ذلك. وعجزت بنسلفانيا – وكانت ترزح تحت أعباء دين قدره ٢٠ مليون دولار، وتعاني تراجعا حادا في إيراداتها الضريبية – عن الوفاء بأقساط أصل القرض وفوائده، وأعلنت أنها ستتخلف عن أداء التزاماتها. أما نيويورك – وكانت ديونها لا تتجاوز مليوني دولار – فكانت في وضع أفضل كثيرا. وهكذا لم تعد فيلادلفيا منافسا لوول ستريت.

واستقال أندرو جاكسون - وهو في أوج حياته السياسية - من منصب الرئاسة في الرابع من مارس. وسيخلفه مارتن فان بيرن الذي سيعاني العواقب السياسية لسياسات جاكسون المالية. وعانت البلاد أيضا من أطول فترات الكساد الاقتصادي في تاريخ الأمة. ولم يصل الكساد نقطة الحضيض حتى فبراير ١٨٤٣ بعد ٧٢ شهرا من بدايته. كما عانت سمعة البلاد المالية أيضا. ففي السنة التي بدأ فيها الكساد في الانحسار آخر المطاف - ١٨٤٣ - نشر تشارلز ديكنز روايته «ترنيمة عيد الميلاد» (*)، ووصف فيها ديكنز شعور الراحة الذي ساور ابنزر سكروج عندما تأكد أن العالم لم ينته - وكان يخشى ذلك - بعد أن زاره طيف عيد الميلاد. وقد غمره شعور بالارتياح عندما علم أن كمبيالة تستحق له بعد ثلاثة أيام لم تكن عديمة القيمة بقدر ما كانت كذلك «ورقة مالية صادرة في الولايات المتحدة».

(*) Christmas Carol [المترجم].

8

نيوجيرسي يجب أن تحرر!

«إن العـــرض في أوديســـا عـامل مـهم جـدا في تحـديد سعر القمح في شيكاغو»

آرثر في هادلي

كان المحرك البخاري - الذي طوره جيمس واط وسجل براءة اختراعه في العام ١٧٦٩ - شيئا غير مسبوق: فهو أول مصدر للطاقة المنتجة منذ طواحين الهواء التي ظهرت في بلاد فارس في القرن السابع. لكن واط لم يخترع المحرك البخاري؛ فقد سجل توماس نيوكومن براءة اختراع بأول محرك بخاري عملي في العام ١٧١٢، ومع ذلك فقد ساعدت التحسينات التي أدخلها واط عليه على زيادة كفاءة استهلاك الوقود في محرك نيوكومن بأربعة أضعاف، مما زاد كثيرا من استخداماته المتاحة. وعندما طور واط المحرك البخاري الدوار rotary الذي ساعد على تحويل الحركة التبادلية للأسفل والأعلى في محرك نيوكومن إلى حركة دورانية قادرة على إدارة مقبض الحركة، صارت الإمكانات الاقتصادية للمحرك البخاري مفتوحة على مصراعيها.

وقبل ظهور المحرك البخاري، استخدمت حيوانات الجر والمياه الساقطة وطواحين الهواء في أداء العمل. واعترت هذه الوسائل أوجه قصور

كبيرة. إذ كان لا بد من إقامة طواحين الماء والهواء حيثما توافرت المياه والرياح. وهذا يفسر لنا سبب اتخاذ المصانع في مطلع القرن الثامن عشر مواقعها في الأرياف، وليس في المناطق الحضرية. كما أن قدرة البشر وحيوانات الجر محدودة ولا يمكن الجمع بينهم بصورة ناجعة إلا في حدود ضيقة. أما المحرك البخاري فيمكن تصميمه بحجوم كافية لإنتاج قدر كبير من الطاقة، ويمكن أن يحول تلك الطاقة لإنجاز كل أنواع الأعمال تقريبا. وبفضل المحرك البخاري صار أداء العديد من الأعمال - التي كانت تعتبر شاقة في الماضي، ومكلفة بطبيعة الحال - سهلا وأقل تكلفة. كما أن الأعمال التي كانت عصية على الأداء صارت ممكنة الآن. كان المحرك البخاري تقنية جديدة غيرت وجه العالم تماما كالمطبعة في القرن الخامس عشر.

وبفضل صناعة الحديد المتطورة في إنجلترا، ولما كانت احتياطياتها من الفحم الحجري توفر لها مصدرا للوقود الرخيص، فقد شاع استخدام المحرك البخاري سريعا في قطاعات الاقتصاد البريطاني المختلفة. أما في الولايات المتحدة، ولما كانت صناعتها متركزة أساسا في نيوإنغلاند، حيث كانت قوة الماء متوافرة بكثرة، فلم يستخدم البخار لأغراض الصناعة إلا بوقع بطيء. وفي العام ١٨٣٢ أظهر إحصاء شمل ٢٤٩ مصنعا شرقي الأبالاشيان أن أربعة منها فقط كانت تستخدم طاقة البخار.

على الرغم من ذلك فقد انكب الناس منذ لحظة تسجيل جيمس واط براءة اختراع المحرك البخاري الدوار على محاولة توظيفه في تحريك القوارب في الماء. وكانت فوائد المحرك البخاري جلية لا تخفى على أحد. فالمراكب الصغيرة يمكن تحريكها بالمجاذيف - بمختلف أشكالها (*) - التي تحركها قوة الإنسان، أما المراكب الكبيرة فلم يمكن تحريكها إلا بقوة الرياح التي تهب على الأشرعة فتدفعها.

وهكذا كان «وقود» السفن الشراعية لا يتطلب أي تكاليف مادامت تلك السفن - في النهاية - تعمل بقوة الرياح (**) لكن السفينة الشراعية لا تمضي إلا حيثما - وعندما - تحملها قوة الرياح. ولم تكن السفن التجارية المنتفخة Tubby، التي عرفها القرن الثامن عشر، قادرة، إلا بصعوبة، على أن تشق طريقها عكس الرياح القادمة من مقدمتها، وكانت أحيانا تقطع مئات

(*) سواء منها ماكان بمسند أم من دون مسند [المترجم].

(**) في الأصل يقول الكاتب: بالطاقة الشمسية، إذ إن الطاقة الشمسية هي التي تسبب حركة الرياح من منطقة إلى أخرى [المترجم].

الأميـال - وأحيـانا ألوف الأمـيـال - خـارج خط مـسيـرها إلى أن تجد رياحـا مـواتيـة. كـانـت الريـاح الغـربيـة التي تـنـشـأ في شـمـال الأطلسي السـبب الرئيس الذي جـعـل الطريق البـحـرية من أمـريكا إلى أوروبا أشق وأصـعـب مـن طريق العودة (من أوروبا إلى أمريكا).

المشكلة الأساسية في توظيف البخار في الملاحة كانت تتمثل في الطريقة التي يمكن بهـا نقل الطـاقـة التي يولدهـا المحـرك البـخـاري إلى المـاء وبالتـالي تحـريك المـركب. وجُـربت كل الطرائق الممكنة. وجـرب جيـمس رمـزي نظامـا لشفط الماء من جهة مقدمة السفينة وطرحـه عند مؤخرتهـا، لكن هذا النظام المعقد جعله بعيـدا عن إمكان التطبيق العملي. وبُذلت محـاولة أخرى لمحاكاة قدم البط لكنها باءت بالفشل أيضا.

وجرب نظام آخر كان يتمثل في سلسلة من المجـاذيف مربوطة أفقيـا بعارضة خشبية. وكان مركز العارضة يُحرك في مسار دائري غـامرا المجـاذيف في الماء تارة ورافعـهـا من الماء تارة أخـرى وآخـذهـا إلى الأمـام ليـبـدأ حـركـة التـجـذيف (الخطفة) التالية. كان جون فيتش - المولود في ويندسـور بكونيكتيكت - يقطن بوكز كاونتي Bucks County شمال فيلادلفيا عندما انكب على دراسة المشكلة. فبنى مـركبـا يعمل بهذه الآليـة ووضعـه في العمل في نهر ديلوير في العام ١٧٨٧، ونجـحـت الفكرة، لكن فـيـتش - كـغـيـره من المبـتكرين الرواد - لم يلق بالا إلى الدافع التجـاري وكسب المال، ومع أنه وضع مـركبـه قيد التشغيل لبعض الوقت وبصورة منتظمة فإنه لم يحقق أرباحا منه فطواه النسيان سريعا.

أمـا الوسـيلة التي اقـترنت بأكـثـر بشـائر النجـاح فكانت عـجلة المجـذاف. وقد جـاءت فكرتهـا مـن طاحونة المياه (الناعورة)، حيث كـان المـاء يـدفـع الدولاب ليـحـرك الآلة. أمـا دولاب المجـذاف فـعكس الآية: كـانت الآلة تحـرك الدولاب ليـدفـع المـاء ويحـرك القـارب. لكن ثمـة مشكلة كبيـرة كانت لاتزال قـائمـة. فقـد كـانت عـجـلات التجذيف في أول عهدهـا توضع في مكان خفيض من القارب بحيث يغمر نصفهـا السفلي بالماء. لكن معظم الطاقة التي كانت تنتقل من المحرك إلى الماء كانت تضيع هدرا لأن المجـاذيف كانت تشق الماء في وضعـيـة مـائلة على الأفق فتـدفع المـاء إلى الأسفل بدلا من دفعه إلى الخلف. وعلى العكس من ذلك كان الوضع عند نهاية نوبة التجذيف عندما يدفع المجذاف الماء نحو الأعلى. وبالتالي فإن العمل الفعلي كان يتم فقط في الجزء الأسفل من نوبة التجذيف (الخطفة).

من حل هذه المشكلة كان رجلا اسكتلنديا يدعى ويليام سيمنغتون، وذلك برفع العجلة إلى الأعلى، بحيث لا يدخل في الماء إلا أطراف المجاذيف، وعند مستوى يجعلها تستطيع دفع الماء على نحو يكفي لتحريك القارب بكفاءة. وفي يناير ١٨٠٣ قطرت سفينة تشارلوت دونداس Charlotte Dundas مركبا زنته مائة طن من ستوكيننغفيلد إلى بورت دونداس على قنال فورث وكلايد بسرعة ثلاثة أميال في الساعة.

وقد سارت سفينة سيغمنتون بسرعة لا بأس بها، ولكن ليس في القنال إذ لم تكن أحسن حالا - من حيث التكلفة - من الأحصنة التي تقطر البارجات. وفقد سيغمنتون حماسه للفكرة تقريبا، لكن أمريكيا يدعى روبرت فلتون كان لديه الحماس الكافي. ولد فلتون في بنسلفانيا وأبدى منذ نعومة أظفاره ميلا كبيرا إلى الميكانيكا (علم الحركة)، وأصبح ذا خبرة ومهارة في صناعة الأسلحة النارية، مع أنه لم يمتهن الصنعة على يد معلم، وكانت تلك الطريقة الشائعة في تعلم هذه المهارات في القرن الثامن عشر. وعندما بلغ الرابعة عشرة صنع مركبا صغيرا بدولاب تجذيف يدوي. وقد انتقل فورا - وهو الذي امتهن على يد جواهري فيلادلفي - إلى رسم اللوحات الصغيرة وحلي الشعر Hairwork. وقصد إلى إنجلترا في العام ١٧٨٦ للدراسة على يد الرسام الأمريكي الكبير بنجامين ويست، لكنه هجر الفنون واتجه إلى الهندسة في مطلع تسعينيات القرن الثامن عشر. وفي العام ١٧٩٧ انتقل إلى فرنسا.

لم يكن فلتون مبتكرا أصيلا، وإنما كان يقتبس أفكار الآخرين ويطورها ويجمعها في توليفة جديدة أكثر نفعا. وقد طور الغواصة ديفيد بوشنيل التي صممها في العام ١٧٧٦ لمحاربة الأسطول البريطاني في مرفأ نيويورك، وحاول بيعها - وما أفلح في ذلك - إلى الفرنسيين. (وقد أطلع البريطانيين على تفاصيل مفاوضاته مع الفرنسيين في هذه الأثناء، أملا في تحقيق مكاسب مزدوجة).

كان فلتون موهوبا - وأيضا رجل أعمال كثير الشكوك والوساوس - وكان بارعا بمصادقة المتنفذين وأصحاب السلطة. وكان أكثر أصدقائه تنفذا روبرت ليفنغستون الذي عينه توماس جيفرسون سفيرا للولايات المتحدة في فرنسا، وكان ينتمي إلى عائلة ليفنغستون النيويوركية الشهيرة التي أدت دورا كبيرا في سياسات الدولة.

وكان لليفنغستون أملاك واسعة في كليرمونت التي تبعد ١١٠ أميال أعالي نهر هدسون عن مدينة نيويورك - لذلك سعى إلى تسريع حركة النقل بينهما. وحاول - كسمكري هاوٍ - تطوير مركب بخاري بجهوده الخاصة، لكن من دون طائل. ومع ذلك فقد تيسر له أن يقنع ولاية نيويورك بمنحه احتكارا للملاحة بالمراكب البخارية في مياه نيويورك شريطة أن يصنع في عام واحد قاربا له القدرة على قطع أربعة أميال في الساعة. ولم يتسن له الانتهاء في الموعد المضروب، لكن المجلس التشريعي مدد آخر موعد إلى العام ١٨٠٣ حيث أجاز مذكرة القانون وسط نوبة من الضحك، إذ اعتقد أكثر الأعضاء أن الشروط الموضوعة تتجاوز مقدرته.

وعندما التقى فلتون في باريس، قرر ليفنغستون المساعدة على تمويل تجارب فلتون على المركب البخاري، ووقع الاثنان عقدا لبناء مركب بخاري يشغل في نهر هدسون في الولايات المتحدة. وقضت الاتفاقية بأن يضطلع فلتون بأعمال التصميم وأن يقدم ليفنغستون المال اللازم والوضع الاحتكاري الذي يضمن ربحية المشروع. وتحول فلتون باهتمامه إلى آلية تعمل بالسلسلة وهي تشبه قليلا جنزير الدبابة، وهي مزودة بمجاذيف لنقل الطاقة من المحرك إلى الماء. وحاول ليفنغستون جاهدا استخدام دولاب التجذيف لكن فلتون عارض الفكرة، وأذعن ليفنغستون في نهاية المطاف. ويذكر سيمنغتون أن فلتون زاره في اسكتلندا وصعد مركب تشارلوت دونداس وأبدى إعجابه الكبير به.

لقد أكد فلتون دائما أن مركبه البخاري كان من تصميمه بالكامل. لكن فلتون كان معروفا بمواربته الحقيقة وكذبه الصريح في كثير من المسائل الأخرى، وبالتالي فمن المرجح أن يكون اقتبس أفكارا مهمة من مخططات سمينغتون من دون الإشارة إليها، وبخاصة رفع محور دولاب التجذيف إلى مستوى أعلى. وقد تخلى بالتأكيد عن فكرة التحريك بالسلسلة بعد أن عاد إلى فرنسا.

ولدى عودته إلى الولايات المتحدة بعد نحو عشرين عاما متصلة في العام ١٨٠٦، استقر فلتون في مدينة نيويورك، وشرع في صناعة مركب بخاري لتشغيله في نهر هدسون. كان طول المركب بعد اكتماله ١٤٦ قدما وعرضه ١٢ قدما، بقعر عريض وحواف مستوية. وصُنعت آلية دولاب التجذيف - وهي من الحديد المطاوع - والمرجل النحاسي محليا، أما المحرك البخاري بقوة أربعة وعشرين حصانا فقد أنتجته شركة جيمس في إنجلترا.

وفي صباح الأول من أغسطس ١٨٠٧ أقلع مركب نورث ريفر - كما أطلق عليه فلتون، على نحو تعوزه البراعة اللغوية (ذلك أنه بعد وفاة فلتون صار يعرف باسم كليرمونت) - من رصيف شارع كريستوفر. واحتشد جمع غفير لمشاهدة انطلاق المركب، وكان كثير منهم يعتقدون - ولم يكونوا مجانبين الصواب - أن المركب الذي شبهه أحدهم بمنشرة قائمة على طوف تشتعل بالنيران سيغرق أو ينفجر.

لكن شيئا من ذلك لم يقع. فقد شق المركب طريقه بثبات نحو الشمال، متخطيا السفن الشراعية في طريقه، ليبلغ أراضي ليفينغستون في كليرمونت صبيحة اليوم التالي. وظهر ليفنغستون على متن المركب، واستأنف الشريكان رحلتهما إلى ألباني فبلغاها في صباح اليوم التالي. لقد استغرق المركب ٣٢,٥ ساعة لقطع مسافة مائة وخمسين ميلا بين نيويورك وألباني، أي بسرعة أربعة أميال ونصف في الساعة وسطيا. وصار الاحتكار المشروط للملاحة بالمركب البخاري في مياه نيويورك - الذي صدر في العام ١٨٠٣ - حقا الآن لليفنغستون وفلتون.

وأعلن فلتون للمسافرين تنظيم رحلة إياب، لكن مسافرين اثنين فقط كانا مستعدين لدفع سبعة دولارات ثمنا للرحلة، أي ما يتجاوز ضعفي ثمن السفر بالمركب العادي إلى نيويورك. ومع ذلك فقد كانت شواطئ هدسون - في رحلة الإياب - محتشدة بالناس، وخصوصا الصبيان في ويست بوينت مهللين لقدوم المركب. وعلى الفور اعتمدت خدمة النقل المنتظم بين مدينة نيويورك والمناطق الشمالية. وفي العام ١٨١٢ أصبح لدى فلتون وليفنغستون ستة مراكب بخارية تمخر عباب المياه الداخلية.

لقد كان ليفنغستون - الذي فاوض على شراء لويزيانا من نابليون - مدركا تماما للفرصة الكامنة في تشغيل المراكب البخارية في نهر الميسيسبي وروافده. فلقد وفرت هذه الأنهار ما لا يقل عن ستة عشر ألف ميل من المياه الصالحة للملاحة وشغلت مساحة تتجاوز مليون ميل مربع بين نيويورك ومونتانا. وكان أكثر تلك المساحات من أخصب الأراضي الزراعية في العالم، مما جعل إمكاناتها الاقتصادية غير محدودة تقريبا. كما كان الكثير منها غنيا بالمعادن أيضا.

لكن استخدام البخار سبقته مشكلة: إن هذه المجاري المائية الطموية كانت، إذا جاز القول، وحيدة الاتجاه. فلقد كانت الجرادل (مراكب مسطحة) - وهي ليست إلا أطوافا كبيرة تربط معا - قادرة على حمل ما بين ثلاثين وأربعين طنا

من الشحنات دفعة واحدة، ليجرفها التيار أسفل النهر باتجاه نيوأورلينز. وقد سلك هذه الرحلة أبراهام لنكولن في شبابه مرتين. وكانت الشحنة تباع – لدى وصولها إلى نيوأورلينز– أما الجرادل فكانت تفكك ويباع خشبها.

أما السبيل الوحيدة للملاحة عكس التيار (إلى أعالي النهر) فكانت مراكب «الكلبت» (مسطحة القعر) التي كانت تستقر على ضفة النهر بعد انحسار التيار وكانت تجر إلى أعلى النهر بجهد الإنسان. كانت الرحلة بالجردل من وادي أوهايو إلى نيوأورلينز تستغرق شهرا واحدا من دون إنفاق جهد بشري يذكر. أما رحلة العودة بمركب الكلبت فكانت تستغرق ثلاثة أشهر من الجهد المتواصل. ومعظم تلك المراكب لم يحاول إنجاز تلك الرحلة، فكانت تمضي إلى مواطنها بدلا من ذلك. وكانت طريق نهر نانتشيز تريس Nanchez Trace، التي تصل بين روافد الميسيسبي في نانتشيز وناشفيل في تينيسي على كمبرلاند، من الطرق الرئيسة حتى ظهور البخار.

وفي العام ١٨١١ أرسل ليفنغستون وفلتون بنّاء السفن (السفّان) نيكولاس روزفلت إلى بتسبره لبناء مركب بخاري هناك، وضع تصميمه فلتون. وقد حاول ليفنغستون في هذه الأثناء الحصول على ميزة احتكارية مماثلة لتلك التي منحت له في نيويورك. وقد رفضت أكثر الولايات والمناطق ربيب منظومة المنطقة الشرقية هذا بشكل قاطع. حيث هاجمت صحيفة «سينسيناتي ويسترن سباي» هذه الفكرة من أساسها فكتبت: «يجب أن تظل – وسوف تظل – الطريق إلى الأسواق خالية من العوائق.. إن هذه النزعة الاحتكارية الفردية ستحرض مواطني المناطق الغربية على التأكيد على حق العبور ذهابا وإيابا من دون مضايقات على الطرق الرئيسة العامة في المناطق الغربية».

وعلى الرغم من أنه لم يفلح في الحصول على الاحتكار في مناطق أخرى، فإنه أصاب نجاحا حيث كان للنجاح أهميته، وذلك في أراضي نيو أورلينز. إذ منحه الحاكم الإقليمي هناك – الذي كان من دون أي وجه مصادفة شقيقه إدوارد عمدة نيويورك الأسبق وعضو الكونغرس – حقا احتكاريا في مياه لويزيانا. وحيث إن نيو أورلينز كانت النقطة الفاصلة بين النهر وحركة العبور القادمة من المحيط فقد كان ذلك احتكارا لنهر الميسيسيبي برمته.

ومع ذلك فقد قوبل هذا الاحتكار بالتجاهل، أو لنكن أكثر دقة: بالتحدي. فقد رفع أحد أصحاب القوارب ويدعى هنري شريف القضية إلى المحكمة الفيدرالية ونجح في آخر المطاف في استصدار حكم ينكر على الإقليم أي

صلاحيات بمنح مثل هذا الاحتكار. لكن ليفنغستون وفلتون كانا قد رحلا عن هذه الحياة، ولم يقدم أي استئناف على الدعوى. وبالتالي شهد عدد المراكب البخارية في نظام الملاحة عبر الميسيسبي ارتفاعا كبيرا.

وبفضل هنري شريف - في المقام الأول - الذي كان ذا موهبة في فن تصميم هياكل السفن والمراكب من جملة مواهبه الأخرى، فقد انتقلت تلك المراكب سريعا إلى أشكال جديدة منها المراكب متعددة الدكات الأكثر عرضا والأقل تقعرا والقادرة على أن تطفو على «طبقة كثيفة من الندى». كانت هذه المراكب ملائمة تماما للأنهار التي تتخللها مرتفعات رملية ومنبسطات طموية. ومع انتشار هذه المراكب الأنيقة المتبذلة ginger breaded في أنهار المناطق الداخلية ، فقد تغلغلت سريعا في ذاكرة الشعب، وأصبحت رمزا باقيا لأمريكا القرن التاسع عشر، بفضل أشخاص مثل كورييير وايفز ومارك توين وجيروم كيرن وأوسكار هامرشتاين الثاني.

وانكب هنري شريف على حل معضلة أخرى اقترنت بالملاحة في نهر الميسيسبي وروافده، ألا وهي جذوع الأشجار وأغصانها. فقد طغت مياه النهر على الضفاف جارفةً أشجارا ضخمة في النهر لتحملها إلى المصب. وكانت الجذوع الطافية السائمة تسمى «المناشر» لشبهها بشفرات المنشار الدوار، حيث كانت تنتقل ببطء منسابة مع التيار. أما ما هو أخطر من ذلك فكان «المنزرعة» Planters وهي الأشجار التي استقرت في قاع النهر. ولأنها لم تكن ترى بالعين، فقد كانت تشق قعر المراكب البخارية وتغرقها في ثوان. كان ذلك يحدث فجأة صدعا في المركب فيتدفق الماء الراشح إلى المركب وتقرع الأجراس وتنطلق صرخات مرعبة، ويخلف التيار مأساة أخرى.

وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر، أشارت التقديرات إلى أنه في نهر الميسيسيبي وروافده تراكم خمسون ألف جذع على الأقل منذ عصر الجليد، وكان أكثر الناس لا يرون أن ثمة حلا لذلك. لكن هنري شريف لم يكن من هذا الرأي. فقد صنع هيكلين لمركب بخاري طول الواحد منهما ١٢٥ قدما ويستمدان الطاقة الحركية من مجذاف على أحد طرفي المركب. وقد ربط هذين الهيكلين معا بعارضة المركب التي ثُبت عليها وتد خشبي ضخم مغلف بغمد من الحديد لالتقاط الجذوع والأغصان، ونظام بكرات ورافعة لسحبها من قاع النهر.

وفي ١٩ أغسطس ١٨٢٩ انطلق مركب إزالة الجذوع الذي ابتكره شريف - وقد أسماه هليوبوليس - لمباشرة العمل في بلوم بوينت Plum Point بتينيسي، أكثر المواقع ابتلاء بالجذوع النهرية على امتداد النهر. كان شريف يوجهها إلى شجرة أصلها قاع النهر وأغصانها بارزة من مياهه.. ثم يدير الرافعة. وكان المدك يفلق الجذع إلى شقين، ثم يسحب الطاقم الشجرة للأعلى بنظام البكرات والحبال، لتتشر إلى أجزاء صغيرة لا خطر منها. وفي ذلك المساء نظفت القنال الواقعة في بلوم بوينت. وفي العام التالي نشرت إحدى الصحف تقريرا أفاد بأن: «القبطان شريف نجح في إزالة الأخطار الكامنة على امتداد ٣٠٠ ميل من مجرى النهر، وبات النهر آمنا كبركة الطاحونة (*)».

أما أعظم ما صنعه شريف لإزالة الجذوع من مياه النهر فكان شق طريق عبر الطوف العظيم Great Raft، وهو كتلة من الأخشاب الطافية المتشابكة بطول ١٥٠ ميلا على النهر الأحمر Red River. وبذلك فقد انفتحت المناطق الشمالية الغربية في لويزيانا أمام حركة التجارة وباتت اليوم أكبر مدن تلك المنطقة من الولاية تحمل اسم شريفبورت (Shreveport ميناء شريف).

كان محرك واط البخاري -كما أثبت فلتون - كافيا لتوفير الطاقة اللازمة للمراكب. لكنه في المقابل كان كبير الحجم ولم يولد ضغطه المتدني وحركته البطيئة - نحو اثنتي عشرة دورة في الدقيقة فقط - إلا قدرا قليلا من الطاقة لوحدة الوزن. لذا كان ثمة ضرورة إلى تعديل جذري في تصميم المحرك البخاري إذا ما أريد تسويق المركب البخاري كفكرة تجارية رابحة. هذا المركب طوره أوليفر إيفانز Oliver Evans في الولايات المتحدة وريتشارد تريفيثيك Richard Trevithick من بريطانيا، كلا على حدة.

كان البخار في محرك واط يدفع المكبس إلى أسفل الأسطوانة ثم يُسحب ويكاثف لينشأ عن ذلك فراغ يضغط المكبس إلى الأعلى. أما في محركي تريفيثيك وإيفانز، لم يكن البخار يدفع المكبس إلى الأسفل فقط، بل يدفعه في الاتجاه المعاكس إلى الأعلى أيضا، مما ألغى الحاجة إلى المكثفة. (ولأن البخار كان يطرد ما يعادل ضعفي حجم الأسطوانة بدلا من ضغطها، فقد باتت تلك المحركات تعرف باسم المحركات النفاثة، وذلك للدوي الحاد الذي يصدر عنها).

(*) البركة التي تغذي الطاحونة بالمياه [المترجم].

ولقد ساعد هذا على زيادة عدد الدورات في الدقيقة وتوليد مستوى أكبر من الطاقة لوحدة الوزن. وقد صنع إيفانز - وهو صاحب أول محرك بخاري من طراز محرك واط يصنع في الولايات المتحدة العام ١٨٠٠- محركا جديدا وفق مخططه الجديد في العام ١٨٠٣، كان لهذا المحرك أسطوانة قطرها ست بوصات فقط وطولها ثماني عشرة بوصة. وقد ولد المحرك طاقة قدرت بنحو خمسة أحصنة. كان لكل من المحركات المماثلة لمحرك واط - والتي صنعت في إنجلترا، ووضعت قيد الاستخدام قبل فترة قصيرة في الساحة المركزية في فيلادلفيا كجزء من الشبكة المائية للمدينة - أسطوانات بقطر ٣٢ بوصة وطول ست أقدام، لكنها لم تنتج إلا ما يقارب ١٢ حصانا.

ولم يصنع أوليفر إيفانز مركبا بخاريا، ولكنه صنع أول سيارة تعمل بالبخار في الولايات المتحدة، وربما إذا جاز القول أول سيارة في العالم. وبعد تكليفه إنشاء كراءة (*) Dredge في ميناء فيلادلفيا، فقد صنع مركبة بطول ثلاثين قدما وعرض اثنتي عشرة قدما، وبلغ وزنها سبعة عشر طنا. وزود المركبة بمحرك جديد أصغر حجما وأقل وزنا وأكثر كفاءة أيضا من النموذج الأول، وذلك في ورشته التي كانت تقع على بعد ميل تقريبا عبر شارع ماركت ستريت من نهر شويكل Schuykill. ومن ثم وضع تلك المركبة على عجلات وربط المحرك بأحد المحاور بأداة تدوير متصلة بسلسلة. وبعد أن أطلق على هذه البدعة الغريبة اسم أوركتر أمفيبولس Orukter Amphibolos، انطلق عبر شارع ماركت ستريت باتجاه النهر متأنقا مختالا.

وعندما بلغ إيفانز الساحة المركزية دار حول محطات المياه مرات عدة، ودار حقيقة ومجازا في حلقات حول نموذج لمحرك واط ذي الضغط المنخفض قبل أن يكمل طريقه باتجاه نهر شويكل حيث أزال العجلات وخرجت أروكتر أمفيبولس من صفحات التاريخ لتباشر عملها ككراءة.

وعلى الرغم من أنه ساعد على إطلاق شرارة الثورة الصناعية وكان أكثر الابتكارات التقنية أهمية منذ ظهورالمطبعة قبل ثلاثمائة عام خلت، أصبح محرك واط بعد ثلاثة عقود فقط عتيق الطراز. لقد أطلق وقع التغيير تسارعا جامحا في حركة الابتكار لايزال مستمرا إلى يومنا هذا.

(*) الكراءة: آلة لجرف التربة من المجاري المائية [المترجم].

والتفت إيفانز إلى تصنيع المراكب البخارية في مصنعه «ورشة مارس للحدادة» Mars Iron Works في فيلادلفيا. ومن ثم افتتح فرعا - بإدارة ابنه - في بتسبره لتوريد المحركات البخارية، لأسطول المراكب البخارية المتزايد عددا في وادي الميسيسبي.

لقد غيرت قنال إري - والمركب البخاري - جذريا من عامل الجذب الاقتصادي في حوض نهر الميسيسبي الأعلى. إذ كانت أكثر محاصيل تلك المنطقة المتزايدة باطراد تنقل بحكم الظروف عبر الميسيسبي إلى نيوأورلينز، أما الآن فقد بدأ يتوجه شرقا. وفي العام ١٨٣٠ كانت تجارة أوهايو قد تحولت بمعظمها نحو الشرق. وتبعتها سريعا إنديانا (١٨٣٥) وميشيغان (١٨٣٦) وإيلينوي (١٨٣٨) وويسكونسن (١٨٤١). حتى أن سينسيناتي الواقعة على نهر أوهايو، صارت معظم تجارتها تجري مع المدن الشرقية بحلول العام ١٨٦٠ .

كما أن هذا التغير في التوجه الاقتصادي - الذي ساعد كثيرا على نمو مدن مثل نيويورك وفيلادلفيا وبالتيمور - قد عمق الروابط بين المنطقة الغربية الوسطى العليا - وأكثر سكانها من المهاجرين من نيوإنغلاند وشمال ولاية نيويورك - ومنطقة الشمال الشرقي، كما أثبت هذا التغير الالتزام بمصالح الاتحاد في أثناء الحرب الأهلية.

لكن نيوأورلينز - بحكم موقعها عند قاعدة هذه الشبكة التجارية الواسعة - واصلت ازدهارها فتفوقت على كل الموانئ الجنوبية. إذ لم يزد حجم صادرات نيوأورلينز في العام ١٨١٠على ٦٥ ألف طن فقط. لكنه وصل في العام ١٨٦٠ إلى ٤,٦٩٠ مليون طن بزيادة قدرها اثنان وسبعون ضعفا في غضون خمسين عاما فقط.

لقد دام احتكار عمل المراكب البخارية في مياه نيويورك طويلا حتى بعد تعليق العمل به في نيوأورلينز، وخلف نتائج أكثر عمقا.

وقد صعدت كل من نيوجيرسي وكونيكتيكت موقفها - بقدر ما أمكن لها - من نيويورك، وذلك بحظر مرور المراكب النيويوركية في مياهها ردا على الحظر الذي طبقته نيويورك على مراكبها. ولم يكن الاحتكار، بالطبع، مستساغا إطلاقا لأي جهة باستثناء المنتفعين المباشرين منه، وخصوصا أبناء نيويورك الذين كان عليهم لهذا السبب أن يتكبدوا أسعارا أكثر

ارتفاعا. وقرر رجل من نيوجيرسي واسمه توماس جيبونز أن «يقاتل» في المحكمة وفي السوق. كان يملك مركبا بخاريا أطلق عليه اسم ستودنغر Stodinger، ولصغر حجمه كان يعرف باسم الفأر أيضا، فشغله ما بين نيويورك ونيوبرنسويك وهو واحدة من أقصر طريقين إلى فيلادلفيا، واستأجر للمركب قبطانا شابا من ستاتين آيلاند Staten Islands يدعى كورنيليوس فاندربيلت.

كان لدى فاندربيلت - وهو لما يزل في العشرينيات من العمر- أسطول صغير من السفن الشراعية، لكنه أدرك آنذاك أن المستقبل سيكون للمراكب البخارية، فتحول إلى العمل لحساب جيبونز كي يكسب الخبرة اللازمة وينمي رأسماله. وأقنع جيبونز على الفور ببناء مركب أكبر وضع تصميمه فاندربيلت بنفسه، وأطلق عليه جيبونز اسم «بيلونا» Bellona ، تيمنا باسم آلهة الحرب عند الرومان. وكان مضمون الاسم غير خاف على أحد، وبخاصة في ذلك العصر المغرق بروح الكلاسيكية.

وأبحر فاندربيلت - تحت راية رفعها على المركب حملت الكلمات التالية «نيوجيرسي يجب أن تحرر!» - إلى نيويورك من دون تردد ليرسو في موضع لا تحرسه سلطات ولاية نيويورك، وليذوب على الفور في قلب المدينة. ولم تجرؤ السلطات على احتجاز المركب نفسه وهي تعلم أن نيوجيرسي ستصعد موقفها باحتجاز أول مركب تجاري احتكاري تضع يدها عليه. وعندما أزف موعد العودة انسل فاندربيلت خلسة إلى أقرب نقطة من المركب وهرع مسرعا إليه وما إن بلغه حتى شرع الطاقم برفع المرساة.

وحاولت السلطات اعتقال فاندربيلت بأن صعدت المركب في منتصف مرفأ نيويورك، ولم تجد عند دفة القيادة إلا واحدة من الركاب - تغلب عليها سيما، البراءة بشرائطها الزينية وقبعتها البونية -bonnet بينما اختبأ فاندربيلت في حجرة سرية كان قد أقامها تحت دكة المركب تحسبا لأي طارئ. وأطلق الركاب صيحات الاستهجان والسخرية من الشرطة على سوء طالعها.

وقد حاولت الشركة الاحتكارية استقطاب فاندربيلت بأن عرضت عليه مرتبا ضخما قدره ٥٠٠٠ دولار في العام، لكنه رفض على نحو قاطع قائلا: «يجب أن أفي بالتزامي للسيد جيبونز حتى يتجاوز الصعاب التي تواجهه».

وفي كل مراحل حياته المهنية الحافلة، من صبي في مزرعة إلى أغنى رجل في أمريكا، كان فاندربيلت دائما أهلا للثقة والوفاء بعهوده والتزاماته في كل معاملاته منذ اللحظة الأولى.

ومع أن الاحتكار لم ينجح كثيرا في الحد من المنافسة الفعلية، لكنه ظل - ولا عجب في ذلك - يبزّ جيبونز في محاكم ولاية نيويورك. وبعد خمس سنوات انتهت القضية في آخر المطاف إلى المحكمة العليا في الولايات المتحدة، وعين جيبونز اثنين من ألمع المحامين في البلاد لتمثيله أمام المحكمة - دانييل ويبستر، وكان عضوا في الكونغرس آنذاك عن ولاية ماساتشوستس ووليام بيرت، المدعي العام للولايات المتحدة، الذي كان يمثله هنا بصفة شخصية لا كمدع عام.

وعمل ويبستر ما بوسعه لتقديم مرافعة قانونية محكمة استغرقت يوما كاملاً. وبالفعل لاقت مرافعته قبولا عاما في قاعة اكتظت بالحضور. وحاجج بأن منح الصلاحية الدستورية للحكومة الفدرالية «بتنظيم التجارة بين الولايات» كان عملا جائرا لأنه حصرها بيد فئة قليلة. ولم يكن لنيويورك صلاحية منح الاحتكار في مياهها الإقليمية بأن يستثنى من ذلك غير النيويوركيين - وفق ويبستر - لأن الصلاحية القانونية في هذه القضية إنما هي من اختصاص الحكومة الفدرالية وحدها.

وتحدث ويليام بيرت - وغيره من محامي ليفنغستون: توماس جي أوكلي وتوماس أديس إيميت - باطناب وبلاغة كما ذكر كل من كان حاضرا. وكان الكل يترقب قرار المحكمة، ليس في نيويورك وحدها، بل في الولايات الأخرى كلها. وأوردت صحيفة نيويورك في ١٤ فبراير ١٨٢٤ أن «ثمة قلقا عظيما في هذه المدينة بانتظار الحكم بقضية المركب البخاري التي كانت مثار جدل مستفيض في واشنطن أخيرا» .

وأرجئت القضايا المنظورة عندما سقط كبير القضاة مارشال بعد ترجله من مركبته وانخلع كتفه، وكان عائدا من زيارة إلى البيت الأبيض في ١٩ فبراير. وعلى الرغم من ذلك فقد تلا مارشال الحكم بصوت واهن خفيض في ٢ مارس، بعد ثلاثة أسابيع من سماع المحكمة ادعاءات الخصوم. وكتب مارشال إلى محكمة لم يفصح عن اسمها (وكتب القاضي جونسون من كارولينا الجنوبية عن حكم اتفاقي أكثر إطلاقا في

قراءته من خطاب مارشال) قائلا: «التجارة حركة تبادل بلا ريب. لكنها لا تقتصر على ذلك، إنها ضرب من التفاعل.. تنظمها أحكام لازمة لإنجازه». ومع أن الدستور منح الحكومة الفيدرالية صلاحية «تنظيم التجارة بين الولايات»، فقد كانت الحكومة الفدرالية وحدها مخولة بصياغة تلك الأحكام والضوابط.

كان هذا بالطبع رأي ويبستر بحذافيره. (وبعد أن ربَّت ظهره - كما كان دأبه - كتب ويبستر: «لم يكن حكم المحكمة - كما تلاه رئيس القضاة - يختلف كثيرا عن قراءتي الخاصة). لكنه شكل أيضا دعما جديدا ولافتا للسلطة الفدرالية. لقد كتب الرئيس مونرو في العام ١٨٢٢ في خطاب نقض (فيتو) إلى الكونغرس بأن الدستور الذي منح تلك السلطة لتنظيم التجارة بين الولايات لم يقصد بها تجاوز صلاحيات فرض التعريفات الجمركية على التجارة الخارجية والحيلولة دون فرض الرسوم الجمركية على التجارة بين الولايات، وهذا ما كان يحظره الدستور علنا».

وقوبل الحكم بترحيب كبير في كل الولايات، وأعادت كثير من الصحف نشر نص الحكم كاملا. وكتبت صحيفة من ميسوري: «أبدى بعض أبناء نيويورك تململا بعد صدورالحكم الأخير عن المحكمة العليا للولايات المتحدة الخاص باحتكار المراكب البخارية. ويمكن طمأنتهم بالقول إنه حكم أقر في الولايات الشقيقة، وهم قد يرون ما ينافي أصول اللياقة في ادعاء نيويورك استئثارها بالمعابر المائية التي تعد سبيل التفاعل بين تلك الولاية والولايات الأخرى وحتى الاستئثار التام بذلك التفاعل التجاري نفسه».

لكن الواقع هو أن أكثر أهالي نيويورك أبدوا موافقتهم بحماس. وفور صدور الحكم دخل المركب البخاري يونايتد ستيتس United States، بقيادة القبطان بانكر Banker نيوهافن، (نيويورك) بزهو المنتصرين، وأثنت حشود كبيرة من المسافرين على قرار المحكمة الأمريكية العليا المعارض لاحتكار نيويورك. وأطلقت عيارات نارية تحية للحشود، وقوبلت بهتافات مدوية من رصيف الميناء. وترددت الهتافات في كل أنحاء البلاد. وأوردت صحيفة جورجيا جورنال أن المركبين التجاريين الراسيين في أوغستا Augusta قد استقبلا بهتافات تقول: «فلتسقط كل احتكارات التجارة واحتكارات المصانع.. فلكل منها شرور تفوق شرور الآخر. أعطونا تجارة حرة وحقوق البحارة». وقد

يشكك المرء في أن الصحافي - الذي أغفل اسمه - كان ينقل بأمانة الهتافات التي انطلقت في رصيف الميناء، لكنه نجح في تصوير مجريات الأحداث. وقد وصف أحد القضاة القرار بعد مرور عشرين عاما بأنه «أنقذ كل جدول ونهر وبحيرة ومرفأ في بلادنا من تدخل الاحتكارات».

وتجسدت سريعا الآثار الاقتصادية لما أطلق عليه تشارلز وارين مؤلف العمل الكلاسيكي «المحكمة العليا في تاريخ الولايات المتحدة» (*)، «إعلان تحرير التجارة الأمريكية». فلقد تراجعت أسعار النقل ما بين نيوهافن ونيويورك بنسبة ٤٠ في المائة بفضل المنافسة، وارتفع عدد المراكب البخارية التي عملت في مياه نيويورك في أقل من سنتين من ستة مراكب إلى ثلاثة وأربعين.

لكن الآثار بعيدة الأجل كانت أكثر عمقا. فقد توقفت الولايات المتحدة عن منح امتيازات الاحتكار بكل صورها للمواطنين المتنفذين الساعين وراء ريع الاحتكار بعد أن باتت كل تلك الاحتكارات مخالفة للدستور منذ تلك الحادثة. كما سقطت العوائق الأخرى التي اعترضت التجارة بين الولايات بعد أن قامت على مصالح ضيقة. وهكذا، وبفضل دعوى جيبونز على أوجدين (**) صارت الولايات المتحدة أكبر سوق مشتركة بالمعنى الحقيقي للكلمة، في وقت بدأت فيه ثورة البخار، التي وظفت في نقل البضائع بتكلفة متدنية لمسافات بعيدة - متمثلة في المركب البخاري - تشهد انتشارا متعاظما. وسيتبين في ما بعد أن السكك الحديد ستكون ابتكارا حاسما في القرن التاسع عشر وستؤسس للاقتصاد الحديث الذي هيأت قضية أوجدين ضد جيبونز الولايات المتحدة لتحقيقه.

ومثل كثير من ابتكارات القرن التاسع عشر (وكثير أيضا من ابتكارات القرن العشرين) لم تكن السكك الحديد ابتكارا منفردا جادت به عبقرية فرد واحد. بل لقد كانت نظاما ابتكرت أجزاؤه كل على حدة ثم دمجت معا على أيدي أرباب مهنة جديدة هي الهندسة المدنية (إنما دعيت كذلك لأن كلمة «مهندس» كانت تستخدم فقط في المجال العسكري حتى منتصف القرن التاسع عشر).

(*) The Supreme Court in United States History.

(**) Gibbons vs. Ogden.

كان معلوما منذ القرن السادس عشر، أن باستطاعة حيوانات الجر (وحتى البشر) - وبخاصة في أعمال المناجم - جر أحمال كبيرة جدا إذا وضعت في عربة على سكة من الحديد. ذلك أن العجلات ذات الشفاه المعدنية المثبتة على سكة معدنية لا تخلف احتكاكا دورانيا يذكر. إن قاطرة زنتها أربعون طنا بتسارع تبلغ به ستين ميلا في الساعة ستجري إلى مسافة تعادل خمسة أضعاف المسافة التي تقطعها شاحنة تعادلها في الوزن على طريق رئيسة مستوية. وهذا ما يجعل السكك الحديد - حتى في يومنا هذا - أوفر وسائط الشحن على الإطلاق.

ولم يمر وقت طويل على ظهور المحرك البخاري حتى جال بخاطر الإنسان إمكان المزاوجة بين التقنيتين. وبالطبع فقد تنبأ أوليفر إيفانز بظهور السكة الحديدية بصورتها التي باتت عليها، وذلك قبل زمن طويل من تحولها إلى حقيقة ناجزة. إذ كتب في العام ١٨١٣ - أي قبل خمسة عشر عاما من أول نجاح تجاري للسكك الحديد: «سيأتي اليوم الذي يسافر فيه الناس في عربات تجرها المحركات البخارية من مدينة إلى أخرى وبسرعة الطائر تقريبا. وستنطلق العربات من واشنطن في الصباح ويتناول المسافرون فطورهم في بالتيمور وغداءهم في فيلادلفيا.. ويجلسون إلى عشائهم في نيويورك في اليوم نفسه.. ولكي يتحقق ذلك يجب مد مجموعتين من السكك الحديد لجر العربات.. فتمر العربات بعضها ببعض باتجاهين مختلفين.. وتنتقل ليلا ونهارا».

ولم يعدل إيفانز محركه ليتناسب وفكرة السكة الحديد، لكن تريفيتشيك فعل ذلك عندما صنع أول قاطرة في العالم باستخدام المحرك البخاري عالي الضغط. وجرب تلك القاطرة على طريق الترام فوق الدعامات الحديد التي مدها صامويل همفراي في جلامنورغلامشاير بويلز. وفي ٢١ فبراير ١٨٠٤ جرت أولى القاطرات مجموعة من عربات الشحن، وولدت السكة الحديد.

ولن تحل المشكلات الجمة التي اعترضت الاستخدام العملي للسكك الحديد إلا بعد خمس وعشرين سنة أخرى. وأنشأ جورج ستيفنسون - الذي خرج بحلول لكثير من هذه المشكلات - أول سكة حديد في العالم تعمل بقوة البخار وتصيب نجاحا تجاريا، وهي سكة حديد ليفربول ومانشستر. وقد

افتتحت في ١٥ سبتمبر ١٨٣٠، بحضور دوق ويلنغتون. وحقق المشروع نجاحا ماليا سريعا بعد أن ربط مانشستر المدينة الصناعية الكبرى، بليفربول، المرفأ البحري الكبير.

لكن مشاريع السكك الحديد في الولايات المتحدة كانت تجري على قدم وساق آنذاك. فلقد منح جون ستيفنس - مؤسس معهد ستيفنس في هوبوكين بنيوجيرسي - رخصة لإنشاء سكة حديد تربط نهري ديلوير وراريتان، لكن هذه السكة لم تر النور قط. ومع ذلك فقد صنع ستيفنس أول قاطرة في هذه البلاد في العام ١٨٢٥ لكنها لم تجر إلا على سكة دائرة أقامها في مسكنه في هوبوكين.

لكن ابنه - روبرت ليفنغستون ستيفنس - وكان مهندسا بارعا، أضاف إسهاما ثوريا إلى تقنية السكك الحديد. كان ستيفنس الابن هو من طور السكك الحديد التي أخذت شكل حرف «تي» بالإنجليزية (T) ذات المقطع العرضي. وكان هذا أول تطور جوهري يطرأ على خطوط السكك الحديد منذ ذلك الحين. كما وجد أن خطوط السكة الحديد الممدودة على دعامات عرضية خشبية يتخللها الحصى كانت أفضل الأشكال التي يمكن أن يأخذها بدن طريق السكة الحديد. وقد ابتكر أيضا «رزات» Spike السكة الحديد التي استخدمت لجمع أجزائها معا.

وقد حفز نجاح قنال إري فكر رجال الأعمال في المدن الساحلية الشرقية. وسعت بالتيمور، وكانت تشهد نموا سريعا، إلى تعزيز هذا النمو من خلال الوصول إلى الأسواق الغربية الرائجة التي ساهمت قنال إري في ربطها بنيويورك. لكن الطبيعة الجغرافية لأنهار الأبالاتشيان جعلت الارتباط بالمناطق الغربية انطلاقا من بالتيمور مستحيلا نظرا إلى تكاليفه الباهظة. لذلك تقرر استخدام التقنية الوليدة - أي السكك الحديد - اعتمادا على الجياد مصدرا للطاقة الحركية.

وفي ٤ يوليو ١٨٢٨ قلب تشارلز كارول، من كاولتون وهو آخر من ظل على قيد الحياة من موقعي إعلان الاستقلال، أول مسحاة من التراب في مشروع السكة الحديد بين بالتيمور وأوهايو. كانت مراسم استهلال العمل في المشروع مزيجا غريبا جمع بين الماضي والحاضر. إذ كان كارول نفسه قد بلغ الحادية والتسعين وأصر على أن يرتدي سروالا إلى الركبة من عهد الشباب،

مع أنه بات عتيق الطراز منذ ثلاثة عقود خلت. وعلى الرغم من أن السكة التي تصل بين بالتيمور وأوهايو كانت ستمول من مصادر خاصة، فقد أقيم احتفال عام بإطلاق المشروع، ونظم الموكب العريض المفضي إلى موقع المراسم على أيدي الحرفيين وأصحاب المهن، على النحو الذي كانت تجري عليه الاستعراضات النقابية في المدن الإنجليزية في العصور الوسطى. غير أن المشروع التكنولوجي المحتفى به كان الأول من نوعه، وسيفتح عالما اقتصاديا جديدا في فترة لن تتعدى جيلا واحدا.

وقد عبر كارول عن رأيه في المشروع أمام الحشد الذي قدرته الصحف بخمسين ألفا، بقوله: «أعتبر ما أنجز اليوم من أهم الأعمال التي أديتها في حياتي، ولا يضارعه سوى توقيعي إعلان الاستقلال، إن كان ثمة بالفعل ما يضارعه».

ولم تكد سكك الحديد في ليفربول ومانشستر تتبين «عمليتها» حتى بدأت مشروعات السكك الحديد تنتشر في كثير من أنحاء البلاد، حيث كانت ثمة خطة لربط القرى بجزء من نظام النقل المائي القائم آنذاك عبر خطوط محلية قصيرة. وحولت كثير من مشاريع القنوات إلى مشاريع للسكك الحديد، التي كان لها كثير من المزايا على القنوات. فقد كانت أسهل إنشاء ويمكن أن تقام في أي بقعة بغض النظر عن طبيعة تضاريس المنطقة في كل فصول السنة. وانتشرت هذه المشاريع بمعدلات سريعة. وبعد أن كان طول خط السكك الحديد في العام ١٨٣٠ لا يتجاوز ٢٣ ميلا في طول البلاد وعرضها، فقد وصل طولها في العام ١٨٤٠ إلى ٢٨١٨ ميلا، وفي العام ١٨٥٠ إلى ٩٠٢١ ميلا. وفي زمن الحرب الأهلية ربطت ٣٠٦٢٦ ميلا - أي ثلثا عدد الأميال في الشمال - البلاد معا بوقع سريع جاعلة منها نسيجا اقتصاديا واحدا. لكن ذلك اقترن بعواقب فادحة، إذ ربطت السكة الحديد ما كان في القرن الثامن عشر مجموعة متناثرة من الأسواق المحلية في سوق وطنية متكاملة. لقد تساءل آرثر في هادلي في مؤلفه الاقتصادي الكلاسيكي «النقل بالسكك الحديد» المنشور في العام ١٨٨٦ قائلا: «قبل جيلين كانت تكلفة النقل بالكارّة تحتم استهلاك القمح في دائرة لا يتجاوز نصف قطرها مائتي ميل من موطن زراعته. واليوم ثمة منافسة مباشرة بين قمح داكوتا والقمح الروسي والقمح الهندي. إن العرض في أوديسا عامل مهم جدا في تحديد سعر القمح في شيكاغو».

وبفضل الأسواق الكبيرة التي فتحتها السكك الحديد ظهرت المشاريع الصناعية الكبرى. لكنها خلفت عواقب تعدت الآثار الاقتصادية المباشرة. وحيثما حلت، خلقت السكك الحديد نشاطا اقتصاديا وتكاثرت المدن والقرى على طول خطوط سكك الحديد وبخاصة في تقاطعاتها. وفي أوروبا ربطت السكك الحديد المدن القائمة آنذاك. وفي أمريكا كانت تلك السكك سببا أساسيا في ظهور المدن الجديدة.

وكانت السكك الحديد تتطلب كثافة كبيرة في رأس المال حيث كانت تكلفتها في أول عهدها لا تقل عن ٣٦ ألف دولار للميل الواحد وسطيا في وقت كان فيه مبلغ ١٠٠٠ دولار دخلا سنويا للفرد من الطبقة الوسطى. لقد تكبد تكاليف أول السكك الحديد السكان القاطنون على جانبيها، والذين آلت إليهم حقوق الطريق rights-of-way فكانوا الأكثر حظا في الافادة من هذه الحقوق قبل غيرهم، وبالآلية نفسها أيضا مُولّت ليفربول ومانشستر من قبل.

لكن الأوراق المالية المحلية (المصدرة محليا) وجدت طريقها على الفور إلى أسواق رأس المال، وبخاصة إلى ما بات أكبر تلك الأسواق: وول ستريت. ولما بدأ التفكير في مد سكك حديد تتجاوز سابقاتها حجما - وهذا ما باتت عليه في الحال - فقد عرضت الأوراق المالية للتداول العام في تلك الأسواق أول الأمر. وفي العام ١٨٣٥ لم تكن الصحف تعلن أسعار الأوراق المالية لمشاريع السكك الحديد، باستثناء ثلاث منها فقط. وفي العام ١٨٥٠ وصل عدد مشاريع السكك الحديد المعلنة إلى ثمانية وثلاثين. وفي منتصف ذلك العقد بلغت نسبة أسهم وسندات مشاريع السكك الحديد أكثر من نصف الأوراق المالية المطروحة في التداول على مستوى البلد كله، بينما ارتفع حجم التداول في وول ستريت بعشرة أضعاف.

كانت السكك الحديد تتطلب كمية هائلة من المنتجات الصناعية: القاطرات وعربات الشحن والركاب والخطوط المعدنية والدعامات العرضية والرزّات والقناطر، على سبيل الذكر لا الحصر. في بادئ الأمر، كانت تلك المنتجات الصناعية تستورد من إنجلترا. غير أن تصاعد الطلب الأمريكي عليها استقطب مزيدا من الوسطاء الأمريكيين للعمل على توريد تلك السلع الصناعية، مما كان له الدور الأكبر في رفد الثورة الصناعية في الولايات المتحدة.

وفي العام ١٨٢٨، وهو العام الذي شهد مراسم تدشين الخط الأول من نوعه، والذي يصل بين بالتيمور وأوهايو، اشترى صناعي ناشئ من نيويورك - واسمه بيتر كوبر- واثنان من مشاركيه ثلاثمائة فدان من أراضي بالتيمور وأنشأوا عليها ورشات كانتون للحديد. كان كوبر يأمل أن يكون طريق بالتيمور - أوهايو مصدرا لا ينقطع لحركة التجارة والأعمال، وأيضا وسيلة لتوريد المواد الخام كالوقود وفلز الحديد. ومع ذلك لم ينقض وقت طويل حتى انتهى مشروع طريق بالتيمور - أوهايو إلى شفير الإفلاس. فقد تبينت استحالة تحقيق الربح باستخدام الأحصنة، غير أن جزءا من الطريق وطوله ثلاثة عشر ميلا كانت تكتنفه منعرجات حادة، وأعلن جورج ستفنسون - لدى اطلاعه على خريطته - أن المنعرجات كانت حادة بحيث يتعذر على القاطرات البخارية أن تجر المقطورات فيها.

وقد دار بخلد كوبر - وهو ميكانيكي بارع ورجل أعمال من الطراز الأول - أن المهندس القدير جانب الصواب. وكان أن قال: «سأصنع محركا في ستة أسابيع. وسيكون هذا المحرك قادرا على جر العربات بسرعة عشرة أميال في الساعة».

ووقع على بعض الإطارات القديمة المناسبة التي يمكن جمعها معا إلى هيكل القاطرة. وبالإضافة إلى ذلك كان لديه محرك بخاري صنعه لمشروع سابق أرسل به من نيويورك.. فضمه إلى القاطرة التي زودها أيضا بمرجل. لكن عملية ربط المرجل بالمحرك أثارت مشكلة ينبغي حلها. إذ كانت وسائط التوصيل (الأنابيب) المتاحة في أمريكا آنذاك تصنع من الرصاص الذي لا يقاوم ضغط المحرك البخاري وحرارته. وعليه فقد اتخذ كوبر بندقيتين عتيقتين ونشر سبطانتيهما واستخدمهما أنابيب في التوصيل.

أما النتيجة فكانت أول قاطرة تجارية تصنع في الولايات المتحدة. ولأنها كانت صغيرة جدا بمعايير السنوات اللاحقة فقد أطلق عليها تندرا اسم «عقلة الإصبع» Tom Thumb (*)، القزم الشهير الذي قدمه بي تي بارنوم (**). وعلى الرغم من صغر حجم القاطرة، فقد أبلت بلاء حسنا وجرت في أول انطلاقة لها عربة تحمل أربعين شخصا بسرعة بلغت ثمانية عشر

(*) ممثل استعراضي أمريكي اسمه الحقيقي تشارلز شيروود ستراتون (١٨٣٨- ١٨٨٣) [المترجم].
(**) بي تي بارنوم (١٨١٠- ١٨٩١): أمريكي، صاحب سيرك [المترجم].

ميلا في الساعة، وهي سرعة باهرة في ذلك الحين. (أحضر بعض المسافرين ورقة وقلما رصاصا وخطوا عبارات دامغة تنفي الاعتقاد الشائع آنذاك بأن أدمغة البشر تتوقف عن العمل عند تلك السرعة).

وبدأ خط بالتيمور – أوهايو البخاري يحقق ازدهارا ورواجا. فكانت أعمال توسيعه لا تتوقف حتى بلغ هاربرزفيري على نهر بوتوماك في العام ١٨٣٤، ونهر أوهايو في العام ١٨٥٢. وأصابت أيضا ورش حديد بيتر كوبر ازدهارا بالتزامن مع ذاك الذي شهدته مدينة بالتيمور. وعندما باع كوبر ورشته بعد سنوات اشترى أسهم خط بالتيمور – أوهايو بسعر ٤٥ دولارا للسهم الواحد، وباعه في ما بعد بسعر ٢٣٥ دولارا للسهم. وليس ثمة مثال أبرز عن حالة التآزر الاقتصادي Synergy التي تخلقها أي تقنية أساسية محدثة، خصوصا عندما تنتشر آثارها في كل قطاعات الاقتصاد. وقد سهلت السكك الحديد السفر إلى مسافات بعيدة وبتكلفة أقل من قبل. ففي السابق، استغرق أندرو جاكسون شهرا واحدا للسفر بعربة الجياد من ناشفيل إلى واشنطن كي ينصب رئيسا في العام ١٨٢٩، وبعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ، صار القيام بتلك الرحلة – وقد باتت أسهل وأكثر راحة للمسافر – لا يستغرق أكثر من ثلاثة أيام.

غير أن السكك الحديد حفزت كثيرا الصناعة وأعمال المناجم والسفر والتجارة بوجه عام. كما أن السكك الحديد كانت مصدر متعة وإثارة للناس في تلك الأيام، وقد أدركوا أنهم باتوا على مشارف عصر جديد لم يجُب بخيال الأجيال السابقة. فكتب جورج تمبلتون سترونغ – وكان له من العمر ١٩ عاما – في مذكراته لعام ١٨٣٩: «إنه لمشهد عظيم أن ترى قطارا عملاقا يتحرك. ليس ثمة ما هو أكثر إثارة بالنسبة إلى أجدادنا من فكرة أن يرتقي أحفادهم سلم التقدم العلمي.. لنتخيل فقط أن هذه الفكرة تولد فجأة من شيء غير مألوف في عالم الابتكار في ليلة حالكة يملأها الأزيز والصخب والصياح، شيء ذي فرن متقد يلتمع في مقدمته وتنفث مدخنته دخانا ناريا متصاعدا، ويندفع ساحبا خلفه سلسلة من العربات الطويلة كتنين عملاق يجر ذيله – أو فلنقل كالشيطان نفسه – مندفعا بأقصى سرعة إلى الأمام سالكا نحو عشرين ميلا في الساعة، يا له من مشهد!».

لكن ذلك أثار أيضا حسا من التوجس والقلق، وخصوصا في أوساط الشيوخ. إذ كتب فيليب هون في العام ١٨٤٤، وكان يكبر سترونغ بأربعين عاما: «هذا العالم يمضي بوقع سريع جدا. فالتحسينات والسياسة والإصلاح

والدين – كلها تشهد تطورات كبيرة. وتتسابق السكك الحديد والباخرات والسفن الصغيرة مع الزمن وتسبقه. يا حسرة على الأيام الخوالي لمركبات البريد الثقيلة التي لم تتجاوز سرعتها ستة أميال في الساعة».

إن استخدام فيليب هون عبارة «الأيام الخوالي» The Good Old Days كان أول تسجيل لاستخدامها. لقد ولد هون في العام ١٧٨١ في زمن كان لا يختلف كثيرا في حالته التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية عن الزمن الذي ترعرع فيه والداه، لا بل حتى عن ذلك الذي عاش فيه أجداد أجداده. لكن بفضل المحرك البخاري والثورة الصناعية فقد امتد به العمر ليرى عالما اقتصاديا جديدا. وشهد كل جيل منذ ذلك الحين تجربة مماثلة، وصار من الشائع أن يحيا المرء طويلا ليرى العالم التقني الذي ألفه في ريعان شبابه يتلاشى رويدا مع تقدمه في السن. لكن بالنسبة إلى جيل فيليب هون كانت تلك تجربة جديدة باهرة، وأحيانا مروعة.

وقد أفادت مطابع مثل كرير Currier وإيفز Ives من حنين الناس إلى الأيام الخوالي. فنشرت صورا رومانسية لعالم ما قبل الصناعة، عالم ثر وجذاب ما كان له وجود في الواقع. وكتب الروائيون أيضا عن عالم مفقود يشيع فيه الأمان والطمأنينة، عالم خيالي. ولم يتطرق ديكنز الذي ولد في العام ١٨١٢، وكان أشهر روائيي عصره – إلى السكك الحديد والتلغراف (البرق)، التقنيتين اللتين طبعتا كثيرا وجه العالم الاقتصادي الجديد الذي عاش بين ظهرانيه.

9

قهر المستحيل

«لم نفقد هذا الشعور قط، حتى في أحلك الظروف التي يخبئها المستقبل»

المؤلف

لم يكن السفر وحده هو الذي شهد زيادة مطردة مع مطلع القرن التاسع عشر. فقد حققت سرعة الاتصالات قفزات مماثلة. ومن الصعب اليوم - في عصر الأقمار الاصطناعية والكيبلات تحت البحرية التي تربط كل أنحاء الكوكب في حالة اتصال دائم - أن نتصور بطء انتشار الأخبار في القرن الثامن عشر. لقد اندلعت معركتا ليكسينغتون وكونكورد - اللتان أطلقتا شرارة الثورة الأمريكية - يوم الأربعاء ١٩ أبريل ١٧٧٥. لكن أنباء المعارك لم تصل نيويورك إلا يوم الأحد ٢٣ أبريل، ولم تبلغ فيلادلفيا إلا في اليوم التالي ٢٤ أبريل. وفي وقت متأخر من ليلة ٢٨ أبريل نقل فارس البريد السريع الخبر لويليامسبرغ في فرجينيا. وفي ٢٨ مايو، بعد انقضاء خمسة أسابيع ونصف الأسبوع، تناهى إلى علم مجلس الوزراء البريطاني في لندن خبر مروع هو اشتعال الأزمة الكامنة تحت الرماد في أمريكا حربا مفتوحة.

كانت ثمة طرق لنقل الأخبار على نحو أسرع من نقلها على متن الجياد. لكن تلك الطرق لم تكن قابلة للتطبيق عموما. ذلك أن الملكة إليزابيث

الأولى أمرت بنصب نيران في الهواء الطلق على طول الساحل الجنوبي لإنجلترا لاستخدامها كإشارة لدى تبين أثر الأسطول الإسباني. وفي نهاية القرن الثامن عشر نصب الفرنسي كلاود تشابي سلسلة من محطات الإشارة (الملوّحات) عبر البر الفرنسي مزودة بأسلحة كانت ترفع وتخفض بالبكرات وتتبادل الإشارة بينها بالأعلام - على غرار ما يفعل الكشافة بالملاوحة - وتنقل في ساعات رسائل ربما استغرق نقلها على متن الجياد أياما.

واستخدم الفرنسيون هذا النظام - الذي أطلق عليه تشابي اسم التلغراف - أي المراسلة من بعد - على نطاق واسع، لكن استخدامه لم يشع في الولايات المتحدة الناشئة حديثا. واحد من هذه الأنظمة وضع بين منطقتي مارثافين يارد وبوسطن في العام ١٨٠٠، ولكن في معظم الأحوال كانت المسافات شاسعة والتمويل المتوافر محدودا جدا.

كانت الحاجة إلى الاتصالات في الولايات المتحدة ملحة جدا، كما كانت عليه الحال في أوروبا، ومع ذلك فقد طرقت خيارات أقل تكلفة. ففي العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان ثمة رجل يصعد كل يوم عمل إلى قمة قبة بورصة التجارة في وول ستريت، حيث كانت تعقد مناقصات بورصة نيويورك ومجلس البورصة، وهناك كان هذا الرجل يبرق أسعار افتتاح التداول إلى رجل آخر في مدينة جيرسي عبر نهر هدسون. ويرسل ذلك الأخير إشارة مقابلة إلى رجل آخر على الهضبة أو البرج التاليين. وهكذا كانت الأسعار تصل إلى فيلادلفيا في نحو ثلاثين دقيقة. كان هذا النظام غير ناجع في أفضل صوره، ولم يؤد ما هو مقصود منه في الحالات الجوية السيئة.

ومع تعاظم أهمية وول ستريت كسوق مالية وتفاقم الحاجة الماسة إلى التقارير الإخبارية عن أسعارها، فقد طبقت كل الوسائل الممكنة، وحتى في وول ستريت نفسها كان ثمة ضغط متواصل للحصول على التقارير الإخبارية بصورة فورية. وهذا يفسر تسمية المراسلين آنذاك بالعدائين Runners. وفي الأيام الأولى اعتمدت وول ستريت على الصبية الصغار للسعي ذهابا وإيابا بين السماسرة ومكاتب العملاء من جهة والبورصة من جهة أخرى ناقلين أوامر التداول وآخر الأسعار، (واليوم لاتزال قلة المراسلين الباقية تسمى «بالعدائين»، لكن أغلبهم من كبار السن وقد شارفوا على التقاعد، أما حركتهم فهي مشي الهوينى).

كان حل مشكلة الاتصالات وشيكا. فقد كان معلوما منذ القرن الثامن عشر أن التيار الإلكتروني يمكن أن ينتقل مسافات بعيدة بالأسلاك، وإذا تسنى ابتكار وسيلة للتحكم بانتظام في شدة التيار فسيمكن نقل المعلومات عبر هذه التقنية.

وجرت محاولات عدة للإفادة عن هذه الحقيقة. وفي العام ١٧٧٤ ابتكر نظام في جنيف بسويسرا باستخدام سلك واحد لكل حرف من الأبجدية. وتشحن الكهرباء المارة في السلك كرة البلسان التي تجذب جرسا فتقرعه. هذه المصلصلة الأبجدية Alphabetical Carillon أدت دور وسيلة الإيضاح Parlor Demonstration لكنها كانت تعاني قصورا كبيرا في التطبيق العملي.

ولم تبدأ رحلة ابتكار التلغراف (البرق) الكهربائي فعلا حتى أمكن زيادة فعالية المدخرات (البطاريات) والمغناطيس الكهربائي (الكهرطيس) في مطلع القرن التاسع عشر وانخفضت تكاليف الأسلاك بفضل الآلات الجديدة المصنعة للأسلاك. وعلى الرغم من أن ويليام فوثيرجيل كوك William Fothergill Cooke وتشارلز ويتستون Charles Wheatstone في إنجلترا قد وضعا نظاما عمليا للاستخدام التجاري فإن الأمريكي صمويل مورس Samuel Morse خرج بنظام لاقى قبولا عاما على مستوى العالم.

لقد تمرس مورس - وهو ابن جيديديا مورس، وزير وكاتب من نيوإنغلاند - في مجال الفن. لكنه بموهبته المحدودة في رسم الوجوه (البورتريهات)، صب جل اهتمامه على رسم اللوحات الكبيرة و«الفارقة» التي لم تكن موهبته فيها - مع ذلك - إلا موهبة عابرة في أفضل الحالات.

ولأنه لم يكن ثمة من يقصده طالبا فنه، بأنه بات يعاني طوال وقت الفراغ، فانكب على التفكير في الكهرباء بعد أن التقى، على متن إحدى السفن، تشارلز جاكسون الذي كان يجري أبحاثا في هذا الحقل في أوروبا. وسريعا ثارت في مخيلة مورس فكرة التلغراف. إذ قال حينها: «إذا أمكن إظهار أثر الكهرباء في أي جزء من الدارة فأنا لا أرى ما يمنع نقل المعلومات آنيا باستخدام الكهرباء».

لقد بدا أن مورس - الذي كان يجهل التقنية اللازمة لتنفيذ تلك الفكرة وحتى خلفيتها العلمية - اعتقد أنه صاحب الفضل في الابتكار ولم يعلم أن هذه الفكرة إنما ظهرت قبل ثمانين عاما. إن الفضل الوحيد الذي يمكن أن يعزى لمورس في

نظام التلغراف هو شيفرته عالية الكفاءة التي تعطي النقاط والقاطعات (*) وفق تواتر الحروف باللغة الإنجليزية (إذ كان يرمز للحرف E بنقطة واحدة «.» أما الحرف X فقد أعطي الرمز «- .. -»).

وبمساعدة من واحد من العلماء الأمريكيين البارزين - جوزيف هنري، وكان أستاذا في جامعة برنستون (ومن ثم أول مدير لمؤسسة سميثسونيان Smithsonian) صنع مورس أول نموذج عملي للتلغراف في قاعة في جامعة نيويورك. كان هذا النموذج مكونا من مدخرات وألف وسبعمائة قدم من الأسلاك الملفوفة في وشيعة حول القاعة، موصولة بكهرطيسات ومفاتيح في نهايتيها. وعند الضغط على المفتاح عند أحد الطرفين، تغلق الدارة ما يسمح للكهرباء بالانتقال عبر السلك وتفعيل المغناطيس في الناحية المقابلة فينضغط ذلك المفتاح نتيجة لذلك.

لقد بذل مورس جهدا دؤوبا في ابتكار أداة تسجيل يمكن بها «رؤية» الكهرباء، لكنه تبين أن شيفرته تلك كانت في غاية البساطة بحيث كان يمكن التعرف عليها بالأذن، وبالتالي كتابة الحروف بيد عامل تلغراف مدرب.

واتخذ مورس شركاء له - ليونارد جيل Leonard Gale، الأستاذ في جامعة نيويورك، وألفريد فيل Alfred Vail، وهو ميكانيكي بارع كان والده صاحب ورشة حديد مزدهرة - لمساعدته على تحسين نموذجه. وتقدموا بطلب قرض من الحكومة لبناء نظام له من الحجم ما يكفي للافادة من إمكاناته التكنولوجية. لكن الحكومة كدأبها لم تتبين الإمكانات التكنولوجية الكامنة في هذا النموذج، وفي ست سنوات لم يتقدم المشروع قيد أنملة، إلى أن اتخذوا لهم مشاركا آخر هو إف أو جي سميث (الذي عرف بين أصدقائه باسم فوغ)، وكان ذلك لأن سميث ما كان فقط عضوا في الكونجرس وإنما رئيس لجنة البيت الأبيض لشؤون التجارة أيضا.

وفي العام ١٨٤٣ نجح في الحصول على ٣٠ ألف دولار خصصها له الكونجرس بعد أن أدرجه في مشروع قانون قبل أن ترفع جلسة كثر فيها اللغط والتجاذبات الكلامية. ومن ثم منح نفسه عقد إنشاء خط التلغراف الذي يصل واشنطن ببالتيمور، وأنفق معظم المال في شراء أسلاك رديئة الصنعة وأعمال دفن الأسلاك. واستهل العمل بالمشروع مجددا، فمدت الأسلاك على أعمدة، وفي ٢٤ مايو ١٨٤٤ بعث صموئيل مورس من ميني الكابيتول رسالة مشفرة نصها «ذلك صنع الله!» (what hath god wrought). وكرر ألفريد فيل في بالتيمور الرسالة نفسها بحذافيرها.

(*) القاطعات: الخطوط الأفقية الصغيرة المستخدمة في الكتابة والطباعة (-)، تسمى بالعامية «شحطة» [المترجم].

وحالما تأكدت الفائدة العملية للتلغراف شاع استخدامه بسرعة باهرة. ومع نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر كانت كل المدن الأمريكية تقريبا متصلة بعضها ببعض بوساطة التلغراف، ووصل خط التلغراف سان فرانسيسكو في العام ١٨٦١. وعم التلغراف في القارة في أقل من عقدين من الزمن من رسالة مورس الشهيرة. وفي العام ١٨٦٦ نجح سيرس فيلد أخيرا في مد كيبل عبر المحيط الأطلسي يربط أوروبا وأمريكا باتصال فوري مباشر. وانقضى زمن عزلة أمريكا عن قلب العالم الغربي بعد ما ينوف على ٢٥٠ عاما.

وعندما توفي مورس في العام ١٨٧٢ - وقد ذاعت شهرته وحقق ثروة كبيرة - كان يمكن بعث رسالة تلغراف من سان فرانسيسكو إلى الهند في بضع ساعات. وقد كان إيصال هذه الرسالة يستغرق، في العام ١٨٤٤ ستة أشهر.

ويعود أحد أسباب انتشار التلغراف السريع جدا إلى إمكان استخدام خطوط السكك الحديد التي شهدت انتشارا سريعا أيضا. وساهم التلغراف بدوره كثيرا في زيادة كفاءة السكك الحديد. لقد كانت أكثر خطوط التلغراف الأولى وحيدة الاتجاه. ذلك أنه إذا كانت ثمة توقعات بوصول قطار ما فإن على القطار الذي لا يملك حق العبور الانتظار على سكة جانبية إلى أن يحصل على حق العبور. فإذا انقضى الوقت المحدد من دون ظهور القطار الآخر - خصوصا أن حالات كهذه كانت شائعة في أول عهد السكك الحديد، وكذلك كانت الحوادث أيضا - فكان على المرشد السير بضع مئات من الياردات في مقدمة القطار حاملا قنديلا للحيلولة من دون الاصطدام. وهذا ما حد سرعة القطار إلى ما دون سرعة المرشد.

وفي العام ١٨٥١ لاحظ أحد المهندسين على خط حديد إري - وقد غمره الاستياء في انتظار القطار المقبل - خط التلغراف الممتد على طول السكة وفكر في الأمر. إذ يمكن إرسال أنباء تأخر القطارات والحوادث الواقعة بالتلغراف مباشرة للحد من تأخر القطارات الأخرى على ذلك الخط. وفي بضع سنوات ابتُكر نظام إشارة محكم يسمح للسكك الحديد بتسريع رحلاتها وتحسين مستوى الأمان.

ولم يستفد قطاع في الاقتصاد الأمريكي النامي من التلغراف بقدر ما استفادت وول ستريت. ذلك أن السوق تبلغ أعظم إمكانات التوسع والكفاءة مع توافر تقنية الاتصال الآنية، وهكذا فقد حافظت بورصة فيلادلفيا وغيرها على مكانتها كأسواق للأوراق المالية. لكن التلغراف أدى سريعا إلى تهميشها.

فمنذ أن أتاح التلغراف الاتصالات الآنية صار في وسع تجار فيلادلفيا وما سواها مزاولة عملياتهم في سوق نيويورك باليسر نفسه الذي كانوا ينجزونها به في السوق المحلية، وشرعوا على الفور في ذلك لسبب وجيه هو أن أفضل الأسعار للباعة والمشترين هي تلك التي توفرها السوق الكبيرة.

كان ثمة إدراك تام لهذه الحقيقة آنذاك. وكتب جيمس كي ميديري في العام ١٨٧٠: «ينزع المال دائما إلى التراكم»، كما أن الأسهم والسندات والذهب تحتشد بمعدلات سريعة في تلك المواطن التي تسودها أعظم صور النشاط المالي. وكلما تعاظمت الثروة المتداولة صارت هذه السمة أكثر وضوحا. وسيرا على ذلك فقد أصبحت نيويورك تمثل للولايات المتحدة ما كانت تمثله لندن للعالم أجمع. وقد تبوأت هذه المدينة العالمية الكبرى - وكانت قد حققت لنفسها مكانة بارزة - وهي التي تقع على الساحل، مكانة مالية لا تضاهى على الإطلاق. لقد خلقت نقائضها التي جمعت بين الازدهار والكساد نقائض مماثلة في كل ولاية ومدينة وقرية على وجه البسيطة».

كما أثر التلغراف جذريا في وسيلة اتصال أخرى كانت في طور التشكل في الثلث الأوسط من القرن التاسع عشر: الصحيفة بشكلها المعاصر.

كانت ثمة صحف في المستعمرات الأمريكية نحو العام ١٦٩٠ حين نشر أحد اللندنيين - ويدعى بنجامين هاريس - والذي فرّ من إنجلترا بعد سجنه بتهمة نشر مواد إباحية - أول عدد من صحيفة تحمل عنوانا تعوزه اللياقة «الوقائع العامة: الأجنبية والمحلية» في ٢٥ سبتمبر ١٦٩٠ في بوسطن. وتعهد هاريس بإصدارها «مرة .. في الشيهر (هكذا) (*)، أو أن تصدر أكثر من مرة إذا وقعت أحداث كثيرة تتطلب ذلك. لكن العدد الأول - مع ذلك - كان العدد الأخير، لأن حاكم ماساتشوستس ومجلسها أوقفا الصحيفة. ومع ذلك فقد ظهرت الصحف ثانية في بوسطن وغيرها على الفور، وفي زمن الثورة انتشرت في كل مدن المستعمرات الرئيسة.

هذه الصحف الأولى من نوعها لم تكن تشترك مع لاحقاتها بكثير من السمات. فمن ناحية أولى، كانت الأخبار تستقصى بالوقع البطيء نفسه الذي كانت تنتقل به في القرن الثامن عشر، من دون أي صبغة من السرعة في نقل الخبر، باستثناء معظم الأنباء المهمة. وكانت تلك الصحف من ناحية أخرى باهظة الثمن. ولم تكن المطبعة المسطحة Flatbed التي عرفها بنجامين فرانكلين

(*) تعمدنا إضافة ياء إلى كلمة الشهر لنقل المعنى المراد باللغة الإنجليزية، حيث كتبت كلمة شهر Month على النحو التالي Moneth [المترجم].

(أو جتنبرغ بتعبير أكثر صلة بالموضوع) تنتج إلا عددا محدودا جدا من النسخ إذا لزم ذلك في عجالة، وقد ذهبت أغلب أعمال الطباعة - بأسلوب التعاقد - إلى إعلانات محامص القهوة والمكتبات.

إن أبرز ما يميز صحف عالم ما قبل الثورة الصناعية عن صحف اليوم هو السياسة. فقد كانت معظم الصحف ذات الطرح العام أدوات تغذي التحزب السياسي، فتكيل المديح لحزب ما وتصب جام سخطها على الأحزاب الأخرى. وهي لم تكن في الواقع إلا مجرد صفحة الافتتاحية منسوجة بطائفة من الأخبار التي ضمت إلى الأنباء الأخرى التي تغلب عليها درجة كبيرة من التحيز.

لكن أحد المهاجرين الإسكتلنديين إلى نيويورك - ويدعى جيمس جوردون بينيت - أحدث تغييرا جذريا في هذا المجال. كان بينيت - الذي ولد في العام ١٧٩٥ لإحدى العائلات الكاثوليكية القلائل في إسكتلندا - شخصا مميزا يتمتع بموهبة العمل الصحافي. وكان أيضا رجلا دميما جدا ذا عينين حولاوين. وعندما أجرى معه أحد الصحافيين لقاء في خمسينيات القرن التاسع عشر في مكتبه، المقابل لستي هول في نيويورك، ذكر أن بينيت: «نظر إلي بعين واحدة ونظر بالأخرى إلى ستي هول».

لقد دارت أولى مقالاته الصحافية حول معركة واترلو، وكان حينها في سن العشرين، وقد حصل على قسط جيد من التعليم في أبردين - وبعد أربع سنوات هاجر إلى الولايات المتحدة بعد أن تبينت له الفرص الكبيرة المتاحة هناك. وعمل في عدد من الصحف بين بوسطن وتشارلستون قبل أن يستقر به المطاف في نيويورك حيث بذل ثلاث محاولات لتأسيس صحيفة تدافع عن مبادئ جاكسون. لكن هذه المحاولات باءت بالفشل.

وكان البخار في هذه الأثناء يغير أيضا وجه قطاع الصحافة كغيره من كل نواحي الحياة الأخرى التي أصابتها يد التغيير في العقد الثالث من القرن التاسع عشر. فلقد استطاعت المطابع الدوارة الجديدة - وقد عملت بقوة البخار - أن تنتج آلاف النسخ من الصحيفة في الليلة الواحدة وبسعر أقل كثيرا من قبل. وارتأى بينيت أن يجرب شيئا جديدا. فشرع في ٦ مايو ١٨٣٥ - وكان لا يملك سوى رأسمال من ٥٠٠ دولار وقبو رطب وقوة عمله فقط - بنشر صحيفة نيويورك هيرالد New York Herald.

ونأى بهذه الصحيفة عن التحيز إلى أي حزب من الأحزاب في مقالاتها، وسعى إلى جعلها صحيفة رائدة في تقديم الخبر، وقد نجح في تسويقها إلى أعداد غفيرة من القراء وذلك بالمناداة عليها في الشوارع بثمن قدره سنت واحد

للنسخة، وذلك على يد جيش من باعة الصحف المتجولين Newsboys، وسيصبح ذلك خاصة مميزة لحياة المدن الأمريكية في الأعوام المائة المقبلة. ولم يكن بينيت هو من أبدع هذه الأفكار في الأصل. لكنه كان أول من حشدها معا وأفاد منها. كما أنه خرج بعدد من الابتكارات الصحافية الأخرى الرائعة. فقد كان أول من نشر تقريرا عن حالة الطقس وأول من تابع أخبار الرياضة بانتظام. كما كان أول من أولى اهتماما لأخبار الأعمال والتجارة وأسعار الأسهم في صحيفة ذات توجه عام. وبينما لم يكن يجمل بالصحف «الراقية» أن تتطرق إلى هذه المواضيع، فقد عمد بينيت عندما قتلت بنت هوى حسناء في أحد بيوت البغاء الراقية في نيويورك إلى نشر تفاصيل الحادثة بكل جوانبها.

وارتفعت مبيعات صحيفة هيرالد كثيرا، واضطرت الصحف الأخرى إلى مجاراتها خصوصا أن المدينة وأنحاء البلاد الأخرى قد ذهلت بقصة الخبر. وفي بضع سنوات أصبحت الهيرالد من أنجح صحف المدينة. وقصد بينيت إلى أوروبا حيث تعاقد مع مراسلين في لندن وروما وباريس لتزويد الهيرالد بتقارير إخبارية حصرية. كان أولئك أول مراسلين أجانب يعرفهم العالم. وقد سعى جاهدا في الكونغرس إلى اعتماد مبدأ إعطاء الصحف من خارج المدينة حقا أكبر في دخول القاعات الصحافية للكونغرس على غرار الصحف المحلية، وهذا ما آذن بولادة مؤسسات الصحافة في واشنطن. وكان بينيت أول من استخدم كلمة «تسريبات صحافية» Leak في وصف الأخبار التي يسربها السياسيون إلى المراسلين لأغراضهم الخاصة.

ومع بدء انتشار التلغراف في أنحاء البلاد، أفاد منه بينيت على الوجه الأمثل. ذلك أنه عندما اندلعت حرب المكسيك بعد عامين تماما من نجاح تجربة مورس، أسس بينيت «كونسورتيوم» Consortiom من الصحف لتمويل خدمة الأحصنة السريعة بين نيوأورلينز وتشارلستون التي كانت متصلة بنيويورك عبر التلغراف. كانت التقارير الصحافية المنشورة في صحف نيويورك تسبق وصول التقارير الرسمية إلى واشنطن بأيام.

وفي زمن الحرب الأهلية، كانت الهيرالد أكبر صحيفة في البلاد وأكثرها تأثيرا وانتشارا، لا تضاهيها بذلك أي صحيفة أخرى، وسارت كل الصحف الكبرى على خطاها، مما غير وجه قطاع الصحافة. ووصل حجم توزيعها اليومي إلى أربعمائة ألف نسخة أي ما يتجاوز بأضعاف توزيع الصحف الأمريكية مجتمعة لخمسين عاما خلت.

واليوم يعتمد ملايين الناس على الصحف للاطلاع على آخر أخبار هذا العالم المطرد نموا. لقد كتبت نورث أميركان ريفيو في العام ١٨٦٦ - أي قبل ثلاثة عقود فقط من إنشاء بينيت لصحيفة الهيرالد: «أن الصحيفة اليومية تعد عنصرا متجذرا في متطلبات الحضارة المعاصرة، إذ ليس المحرك البخاري أكثر أهمية منها في حياتنا. فالصحيفة تربط الفرد بمحيطه العام في الحياة اليومية للجنس البشري».

ولم يكن تأثير الصحف في مجال الإعلان أقل درجة من ذلك. ففي عصر ما قبل الصناعة كانت أعمال تجارة التجزئة - في واقع الحال - محدودة جدا، وتقتصر على بيع السلع محلية الصنع. لقد ساهمت السكك الحديد والتلغراف والصحف في توسيع نطاق التجارة والأعمال. وبدأ تجار المدن سريعا بالإفادة من الفرص الجديدة. وفي العام ١٨٤٦ افتتح إي تي ستيوارت، وهو مهاجر من أصل اسكتلندي - إيرلندي «قصر الرخام» Marble Palace في شارع ٢٨٠ برودواي في مدينة نيويورك. كان هذا القصر، الذي يقع إلى الشمال من ستي هول، أول بناء تجاري ذي واجهة رخامية ورواق مقبب ومرافق فارهة.

كانت الأسعار في مخزن ستيوارت متهاودة ومحددة، كما كانت ثمة تنزيلات تعلن في الصحف. كما تميزت تلك المخازن بما عرف «بالدخول من دون مراقبة» و«حرية الحركة» حيث سمح للزبائن بالفرجة بأنفسهم من دون أن يصحبهم عمال المخزن أينما تحركوا داخله. لقد جعل ستيوارت من التسوق - للمرة الأولى - بفضل رفاهية المكان وحرية الحركة داخل المخزن، تجربة ممتعة في التسرية عن النفس لمن توافر لديهم المال ووقت الفراغ للاستمتاع بها، وليس بحكم الضرورة والحاجة فقط. كانت مخازن الأقسام الجديدة تلك تقدم كل المستلزمات الجاهزة الملائمة لأسلوب حياة الطبقة الوسطى - الأثاث والستائر والسجاد والخزف الصيني والمطبوعات. وكانت الطبقة الوسطى الجديدة تشتري تلك السلع بكميات كبيرة لتزين منازلها على الطراز الفيكتوري الرفيع - حيث تحتشد العناصر وتتلاصق - وهو الطراز الذي بلغ أوج شعبيته في منتصف القرن.

وفي عقد الستينيات من القرن التاسع عشر - عندما افتتح ستيوارت «القصر الحديدي» Iron Palace - وهو من كبرى المنشآت الحديدية في العالم - على بعد ميل من مركز المدينة في برودواي والشارع التاسع، كان ستيوارت أكبر دافعي الضرائب الجمركية في البلاد، بعد أن ازدهرت أعماله في تجارة الجملة مع التجار المنتشرين في كل أرجاء البلاد.

وحتى في المناطق الريفية التي لم تكن قد بلغتها السكك الحديد بعد، فقد ساعدت التقنيات التجارية الجديدة على فتح أسواق جديدة. وأفاد الباعة الجوالون رويدا رويدا من الطرقات، بعد تجديدها، لبيع كل أنواع السلع المصنعة المتوافرة كالدلاء والأحواض والملابس والعدد والأدوات الخفيفة أو النثريات (*) لربات البيوت وهن ماضيات لبعض شأنهن. مما حد من الانعزالية التي ضربت أطنابها في المناطق الريفية الأمريكية في القرن التاسع عشر.

كما ساعد التجار الجدد أيضا على الترويج لعيد الميلاد (الكريسماس) كعطلة تتجاوز طابعها الديني في هذا البلد. ذلك أن أكثر البروتستانت الأمريكيين (من غير الأنغليكانيين) لم يعرفوا الاحتفال بعيد الميلاد أيام المستعمرات. ولكن مع الحراك الجديد الذي أدى إلى احتكاك العائلات البروتستانتية مع العائلات التي دأبت على الاحتفال بعيد الميلاد فقد بدأت كثير من الأسر الاحتفال بهذا اليوم بدافع من رغبة أطفالهم بذلك. وشرع الكتاب - من أمثال النيويوركي كلمنت كلارك مور (صاحب كتاب «زيارة القديس نيقولا»، واتفق أن كان القديس الرعائي لمدينة نيويورك، وقد نشره أول مرة في العام ١٨٢٣) وتشارلز ديكنز بالاحتفال بالجوانب غير الدينية لعيد الميلاد (كشجرة الميلاد، وقد جلبها إلى العالم الناطق بالإنجليزية الأمير ألبرت، ولاقت شيوعا منذ ذلك الحين)، كما ركز التجار - وهذا ديدنهم - جل اهتمامهم على العادة القديمة التي تمثلت في تبادل الهدايا في ذلك الوقت من السنة.

وفي منتصف القرن بدأ عيد الميلاد يتحول إلى أهم العطلات غير الدينية - كحاله اليوم - ليكون أعظم محفزات تجارة التجزئة ونموها.

وكان في السنوات السابقة للحرب الأهلية أيضا أن بدأت الثورة الصناعية تكسب الحياة اليومية شكلا طاغيا من الحداثة. وإلى جانب النقل السريع - بفضل السكك الحديد والمراكب البخارية، والاتصالات بفضل التلغراف والصحف - فقد انتشرت وسائل الراحة المنزلية أيضا بصورة ملحوظة.

(*) النثريات: كل ما هو معد للاستخدام المنزلي من أدوات صغيرة الحجم كالدبابيس والإبر والمقصات والأمشاط والعطور... إلخ [المترجم].

وكان آخر التطورات التي طرأت على التقنيات المنزلية قبل الثورة الصناعية استخدام المدخنة في أوج القرون الوسطى. كانت المواقد وسيلة التدفئة المستخدمة في المنازل حتى عشرينيات القرن التاسع عشر، وكانت الشموع تستخدم في الإنارة ليلا. وكانت المياه تنضح بالدلاء من الآبار أو الينابيع أو الأحواض، أما الطهو فكان يتم على مواقد مفتوحة.

وفي العقد العاشر من القرن الثامن عشر وجد بريطاني يدعى ويليام مردوك أن الفحم بعد أن يسخن يعطي غازا يطلق باحتراقه لهبا أصفر فاقعا. وظهر مصباح الغاز في فيلادلفيا في العام ١٧٩٦. وأصدرت بالتيمور تعميما في العام ١٨١٦ يشجع على استخدام مصباح الغاز في إنارة الشوارع، وعمت الفكرة سريعا المدن الأمريكية الأخرى. وفي العقد الرابع من القرن التاسع عشر أنيرت الشوارع والطرقات الرئيسة في المدن الأمريكية بفضل شبكة من الأنابيب الممدودة تحت الأرض، والتي وفرت الغاز من محطات الغاز المحلية. ومع بدء انقشاع الظلام الدامس الذي غرقت فيه المدن، شرعت النشاطات الليلية في الانتشار كثيرا في المدن.

ومع أن الناس رحبوا بمصدر الإنارة الجديد في الشوارع، فقد كانوا أكثر حذرا في إدخاله إلى منازلهم خشية الاختناق والانفجار. كانت مخاوفهم لا أساس لها إطلاقا، لكن مزايا الإنارة بالغاز مقارنة بضوء الشموع تغلبت على تلك المخاوف، وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر ملأ حسيسها الخافت ورائحتها الرطبة غير المألوفة منازل الطبقتين الوسطى والعليا. وقد ذكر أحد أبناء نيويورك في عام ١٨٥١ أن «الغاز يعتبر اليوم من أساسيات الحياة التي لا غنى للمدينة عنها.. بحيث إنه لم يكن يقام منزل للسكن المريح من دون وجود أساليب الإنارة بالغاز».

ولأول مرة في التاريخ، صارت الإضاءة الداخلية رخيصة الثمن، فأمكن استخدامها على نطاق واسع وبدأ الناس يطيلون السهر والمطالعة لساعات متأخرة من الليل. وارتفعت كثيرا مبيعات الكتب والمجلات والصحف جميعا في ذلك الوقت، تماما كما كانت حال الموسيقى الصحائفية (*).

كما زاد من النشاط الليلي انتشار وسائل التدفئة المركزية. وجعل انخفاض أسعار تمديدات الأنابيب وقنوات التدفئة تلك الوسائل في متناول الناس، وبدأت أنظمة تسخين الهواء بالظهور في المنازل في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر.

(*) الموسيقى الصحائفية Sheet Music: موسيقى مطبوعة على صحائف عريضة غير مجلدة [المترجم].

وفي ستينيات ذلك القرن كانت المشعات البخارية تحل سريعا مكان أفران تسخين الهواء البدائية، وبدأت تتوطد العلاقة الحميمة بين الأمريكيين والتدفئة المركزية. وغالبا ما أصاب الهلع الزوار الأجانب. فقد كتب توماس جولي جراتان - وكان قنصل بريطانيا في بوسطن - «كانت وسائل التدفئة في كثير من البيوت الفارهة مصدر قلق عظيم للأشخاص الذين لم يألفوها، ومحنة قاضية لكل من ألفها، فالفرن الكبير يطلق في اليوم والليلة تيارات من الهواء الساخن عبر الفتحات والأنابيب، فهي تلفح المرء لحظة يفتح الباب له للدخول، وتندفع خلفه عندما يدلف ثانية، وهو يتصبب عرقا وعليه آثار أشعة الشمس الحارقة إلى الهواء البارد المنعش». وقد تبين أيضا تفوق أفران الطهي الحديد على الأفران (الوجاقات) العادية، فسهلت حياة النساء وانتشرت على نطاق واسع.

وعلى الرغم من كل هذه التحسينات، فإن تدبير شؤون المنزل ظل يتطلب كثير جهد، وكانت المنازل الكبيرة تتطلب كثيرا من الخدم لتدبير شؤونها كما يرام. كان هناك في السابق «نقص في الخدم» في مطلع القرن وذلك مع زيادة عدد العائلات الراغبة في تشغيلهم إلى مستويات فاقت أعدادهم. لكن مع مغادرة الشابات مزرعة العائلة قاصدات المدن، وزيادة معدلات الهجرة الخارجية، خصوصا في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، بدأت أجور خدم المنازل تتراجع بصورة حادة. وأصبح في وسع العائلات متوسطة الدخل تشغيل الخدم لمساعدة ربة المنزل.

وفي منتصف القرن كان يعمل لدى العائلة النموذجية من الطبقة الوسطى العليا Upper-middle class طاه وساق يؤدي كثيرا من الأعمال المجهدة مثل جرف الفحم، إلى جانب وقوفه متأهبا بالقرب من المائدة في أوقات الطعام، وخادمة لتنظيف المنزل. أما الطبقة الأكثر ثراء فكانت تشغل خادمة تعمل في الغرف العلوية للمنزل وعاملة غسل وشغال كان يؤدي الأعمال المجهدة، وحوذي ومربية للأطفال. وكان العامل المنزلي الماهر - كالطباخ الجيد - يكسب ما بين ٦ و٧ دولارات في الأسبوع، بالإضافة إلى ما يخصص له من سكن وطعام، ويعتبر هذا أجرا ممتازا في ذلك الوقت.

وكان الخدم الأكفاء - في كثير من المنازل - يعدون من أفراد العائلة الذين لا يمكن الاستغناء عنهم، ويلقون احتراما ومودة عظيمين. وفي ظل هذه الظروف، كانت الخدمة في المنازل - خصوصا للنساء غير المتزوجات - تعدّ

من ضروب الحياة المنعمة بالمقارنة مع البديل المتاح: العمل في أحد المصانع المحدثة والسكن في حجرة أو بعض حجرة في الأحياء الفقيرة المكتظة والصاخبة التي كانت تزحف بسرعة في المدن الشمالية في تلك الفترة. وعلى الرغم من الانتشار الواسع للصناعة في الفترة اللاحقة من القرن التاسع عشر، فقد كانت الخدمة المنزلية في العام ١٩٠٠ لا تزال أكبر فئات العمالة وفق مكتب الإحصاء الأمريكي.

ومع توسع المدن المتفاوت في العقود الأولى من القرن التاسع عشر زادت حدة مشكلة توفير المياه لقاطنيها وتصريف مياه الصرف الصحي. وفي السنوات الأولى من القرن كان لدى العائلات المقتدرة براميل وخزانات لمياه المطر تغذيها المياه النازلة من سطوح المنازل، أما العائلات الأخرى فكانت مضطرة إلى نضح المياه من أقرب الآبار. هذه المياه كانت في أغلب الأحيان ملوثة إلى درجة كبيرة بمياه الصرف الصحي المتسربة من دورات المياه ومن القلل الموضوعة في الحجرات وكانت تفرغ في الشوارع. ومع عدم وعي الناس بذلك آنذاك، فقد تحول هذا إلى مصدر لأوبئة متعاقبة من أمراض كالحمى الصفراء والكوليرا التي ضربت المدن الأمريكية حينذاك.

وكانت فيلادلفيا أول مدينة تنشئ خزانا حديثا للمياه أمكن توصيله عبر أنابيب إلى المنازل وتصريف المياه القذرة عبر قنوات الصرف الصحي. وفي العام ١٨٣٢ زودت بهذا النظام أول أنواع المنازل المزودة بحمامات. أما نيويورك – وهي محاطة بمياه البحر – فكانت تعاني مشكلة تكنولوجية أشد. ومع ذلك فقد دشنت نظام كروتون Croton في ٤ يوليو ١٨٤٢ بعد إنشاء قناطر مائية بطول خمسة وأربعين ميلا لجر المياه من نهر كروتون في إقليم ويستشستر.

كان فيليب هون مشدوها. فكتب بعد شهور عدة في مذكراته أن «ليس من حديث يشغل التفكير في نيويورك إلا نهر كروتون. فالنوافير والقناطر المائية والصنابير وخراطيم المياه تشد انتباهنا وتعيق سيرنا في الشوارع. الماء! الماء ! هو الكلمة الشائعة التي تتردد في كل أنحاء المدينة. وتطلق في الحشود شعورا من السعادة والابتهاج».

وقد اعترى جورج تيمبلتون شرونغ شعور بالحماس عندما أوصل والده مياه نهر كروتون إلى منزله في شارع غرينتش في العام ١٨٤٣. ولم يعد الاستحمام يتطلب تسخين الماء على موقد وصبه في حوض الحمام الذي يبلغ الخصر طولا،

والذي كان يوضع في المطبخ لهذا الغرض. فكتب تغمره السعادة في مفكرته: «لقد عشت حياة كائن برمائي في الاسبوع المنصرم».. «فكنت أخفق في حوض الاستحمام كل ليلة وأخرج باكتشافات جديدة في فن الاستحمام وأسراره». وكان الاستحمام «بالدش» (المشن) رأسا على عقب أحدث تلك الفنون.

أما بوسطن، التي كانت تحرص على قطع السبيل على الناس بالانغماس في هذه المتع يوم العطلة الدينية، فقد حظرت الاستحمام في أيام الآحاد.

وقبل مطلع القرن التاسع عشر قلما كان الناس في الولايات المتحدة - وحتى أولئك الذين عرف عنهم ولعهم بالترحال - يمضون أبعد من خمسين ميلا عن مسقط رأسهم، وهم إن فعلوا فإنهم ما كانوا يعودون إلى مسقط رأسهم ثانية. وحينذاك، وفي أقل من جيل واحد أصبح ممكنا السفر مئات الأميال في اليوم وتسلم مكالمات فورية من قوم على مبعدة ألف ميل، وقراءة أخبار ما يجري من أحداث، حول العالم. لقد صار متيسرا الحصول على الماء الساخن من الصنبور، والهواء الدافئ في الليالي الباردة، وقراءة كتاب في الليل من دون ألم في العيون.

هذه المعجزات تحققت في حياة البشر اليومية وبدأت تتراكم بعضها فوق بعض في العقود الأولى من القرن التاسع عشر - السكك الحديد والتلغراف والصحف والتدفئة والإنارة والماء الجاري - وأشاعت حسا من التفاؤل والإيمان بالتقدم البشري لم يشعر به أحد من قبل. إن الاعتقاد أن كل شيء صار ممكنا طبع ما سيعرف في ما بعد بالعصر الفيكتوري في عموم العالم الغربي. لكن في الولايات المتحدة التي كانت لاتزال آنذاك في طور التشكل، وبفضل نموها الاقتصادي الذي فاق سرعة النمو الاقتصادي في أي من بلدان العالم المتقدم، فإن هذا الشعور كان في أسمى صوره.

ولم نفقد هذا الشعور إطلاقا، حتى في أحلك الظروف التي يخبئها المستقبل.

15

الحيتان والخشب والجليد والذهب

«يمِّموا وجوهكم غربا!»

جون سول

على الرغم من أن مصباح الغاز كان ينشر نوره في المدن مع مطلع العقد الثالث من القرن التاسع عشر، فإنه لم يكن معروفا في الأرياف، حيث النسبة الأغلب من الأمريكيين. كان غاز الفحم يتطلب معالجة صناعية مكثفة، إلى جانب ما يكتنفها من فوضى وما تطلقه من رائحة وما يترتب عليها من مخاطر. وكان الغاز يمرر عبر أنابيب من محطات الغاز مباشرة إلى المستخدمين. وبسبب ارتفاع تكلفة البنية الأساسية اللازمة، فلم تتسن إقامة محطات الغاز إلا في المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة. لكن الإقبال على المطالعة والأنشطة المسائية الأخرى اقترن بزيادة الطلب على الإنارة الصناعية في المناطق الريفية أيضا. وكان زيت الحيتان كفيلا بتلبية هذا الطلب على الرغم من زيادته المطردة.

لقد دأب الإنسان على صيد الحيتان منذ العصر الحجري الحديث، كما مارست صيد الحيتان شعوب الباسك والنرويج والأراضي الواطئة (هولندا) واسكتلندا جميعا. وفي غابر

الأيام، كان الصيد يجري قبالة السواحل وتقطر الحيتان بعد صيدها إلى اليابسة لمعالجتها. لكنه مع تناقص الحيتان في المناطق المقابلة للسواحل توغل الأوروبيون أبعد في عرض البحر بحثا عن الحيتان.

كانت الحيتان مصدرا للكثير من المنتجات. فإلى جانب لحومها كان دهن الحيتان يعطي بعد معالجته زيتا يمكن استخدامه وقودا عالي الجودة في المصابيح ومادة تزييت للآلات. كما أن البلين (*) baleen وهو بنية لدنة ذات حواف fringed - كان طولها يصل إلى ١٢ قدما، وكانت تقوم مقام الأسنان لدى معظم الحيتان العملاقة - وفرت مصدرا أساسيا لعظم الحوت الذي يجمع بين خصائص الصلابة والمرونة التي كانت عوامل مهمة في صناعة مشدّات الخصر وسياط العربات وكثير من الاستخدامات الأخرى.

وقد بدأ صيد الحيتان في نيو إنغلاند في العام ١٦٤٥. حيث كان صيادو الحيتان الأوائل يسعون أساسا وراء ما يعرف بالحوت المثالي (**) Right Whale، وقد أخذ اسمه هذا من وفرته وسهولة صيده مقارنة بالحيتان الأخرى، كما أنه يطفو على الماء بعد قتله. لذلك فقد كان صيده هو الخيار المثالي للصيادين. وذات يوم في العام ١٧١٢ جرفت رياح عاصفة بحرية أحد مراكب صيد الحيتان بعيدا من الشاطئ إلى عرض البحر، فتمكن طاقم المركب من اصطياد حوت عنبر والعودة به إلى الشاطئ بسلام.

ولم تكن حيتان العنبر كغيرها من الحيتان. ذلك أنها ذات أسنان - لا بلين - وتقتات أساسا على الحبار العظيم الذي يكثر في الأعماق. كما أن زيتها يفوق جودة زيت الحيتان الأخرى ولديها في رؤوسها الكبيرة - جزء من نظام الأمواج الصوتية - جيب واسع مملوء بالعنبر، وهي مادة شمعية كانت تصنع منها أجود أنواع الشموع.

كانت حيتان العنبر تدر أرباحا طائلة. لذلك سعى سكان نيو إنغلاند إلى التخصص في تجارتها وبناء سفن صيد الحيتان القادرة على بلوغ المحيط سعيا وراء تلك الحيتان في اللجة العميقة. وفي العام ١٧٦٥ كانت سفن الصيد من نيو إنغلاند تمخر عباب المحيط، وكانت تكثر قبالة ساحل البرازيل منذ ذلك الحين. وفي سبعينيات القرن الثامن عشر كانت نيو إنغلاند تصدر ما بين ثلاثمائة وأربعمائة ألف رطل سنويا من شموع العنبر.

(*) البلين: عظم فك الحوت [المترجم].

(**) الحوت المثالي أو الصحيح: هي تسمية عامية أطلقها البحارة على هذا النوع من الفصيلة الحوتية نظرا إلى القيمة الاقتصادية الكبيرة لزيوتها وعظامها، لذلك كانت الاختيار الصحيح للصيادين، أو اختيار الصيادين المثالي [المترجم].

وقد شجعت الحكومة البريطانية صيد الحيتان، فكانت تقدم مكافآت لسفن الصيد التي يتجاوز وزنها مائتي طن. لكن الصناعة أصابت ازدهارا بعد الاستقلال أيضا. وفي القرن التاسع عشر كانت سفن صيد الحيتان تجوب محيطات العالم، وكانت رحلات الصيد تستغرق سنتين، وأحيانا أربع سنوات. وفي العام ١٨٠٠ كان ثمة ثلاثمائة مركب صيد تعمل في تلك المرافئ في نيو إنغلاند وماريل هيد. وفي أربعينيات القرن التاسع عشر كان ثمة أكثر من ٧٠٠ سفينة صيد أمريكية تجوب البحار بحثا عن الحيتان وتجلب الازدهار الاقتصادي لموانئها، حيث كانت السفينة الواحدة تفرغ نحو مائتي برميل من الزيت بعد أن تقفل عائدة من رحلاتها. وهكذا قامت كثير من ثروات نيو إنغلاند في مطلع القرن التاسع عشر على صيد الحيتان.

ولسوء الطالع، كان أبناء نيو إنغلاند بارعين جدا في صيد الحيتان فاصطادوا منها أعدادا فاقت معدلات تكاثر تلك الكائنات الثديية العملاقة. ومع تراجع أعداد كثير من أصناف الكائنات الحية في العالم، أصبحت رحلات الصيد تستغرق زمنا أطول، ذلك أن سفينة صيد أمريكية كانت أول من عثر على البحارة المتمردين من طاقم باونتي Bounty على جزيرة بيتكيرن Pitcairn Island في العام ١٨٠٨. وارتفع سعر زيت الحيتان باطراد بسبب زيادة الطلب بمعدلات أكبر من العرض.

ومع ذلك فإن من مزايا اقتصاد السوق الحر التي لم تنل حظها من التقدير آلية تجاوبه الكفؤ مع حالات النقص والعجز. إذ ترتفع الأسعار عند زيادة الطلب على العرض، وتُحدث زيادة السعر بالنتيجة حرصا أكبر على الموارد النادرة وسعيا محموما إلى إيجاد موارد إضافية أو بدائل تسمح بالإفادة من ارتفاع الأسعار. لقد كتب أحد محرري الصحف آنذاك عن «الحماس الشديد الذي تقبل فيه الفطنة الأمريكية على كل فرع صناعي يبشر بأرباح معتبرة».

ومع ارتفاع سعر زيت الحوت - بلغ ٢,٥ دولار للغالون في خمسينيات القرن التاسع عشر، عندما كانت خمسة دولارات أسبوعيا تعد أجرا جيدا للأيدي الماهرة - زادت الحاجة إلى زيوت الإنارة ومواد التزييت أيضا. ويعتبر الكامفين Camphene من مواد الإنارة عالية الجودة، لكن من مثالبها قابليتها للانفجار. لقد استقطر قار الفحم - وهو يتخلف عن عملية استخلاص غاز الإنارة من الفحم - إلى كيروسين في خمسينيات القرن التاسع عشر، لكن هذه العملية ليست سهلة إطلاقا كما أنها مكلفة جدا. ومع ذلك كان في آخر خمسينيات ذلك القرن أن أنتج أحد المعامل في مدينة نيويورك خمسة آلاف غالون من الكيروسين يوميا من قار الفحم، وكانت الحاجة ماسة جدا، وكان سعر زيت الحيتان مرتفعا جدا.

سيثبت أن قار الفحم - على الرغم من استخدامه فترة وجيزة مصدرا للكيروسين - سيشكل مصدرا غنيا للمواد الكيماوية ذات الاستخدامات الاقتصادية الأخرى، خصوصا مبيدات الحشرات واللدائن (البلاستيك) والأصباغ والأدوية. وسيكون أساسا لصناعة جديدة قائمة بذاتها - وهي المركبات الكيماوية - التي أصابت ازدهارا في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت أصباغ الأنيلين Aniline - التي اكتشفت في العام ١٨٥٦ على يد الإنجليزي ويليام هنري بيركين، وكان له من العمر آنذاك ١٨ عاما - أولى الكيماويات المشتقة من قار الفحم التي توضع في الاستخدام التجاري. وسرعان ما قوضت سوق الأصباغ النباتية المشتقة من نباتات من قبيل النيلة والفوّة (*).

وقدم الحل لمشكلة توفير مصدر جيد ورخيص للإنارة مادة لم تخطر على بال إطلاقا، ألا وهي زيت الصخر Rock oil. فالبترول - ومعناه زيت الصخر في اللاتينية - كان معروفا منذ أقدم الأزمان، لكنه كان مادة غريبة تثير الفضول وتلفت النظر. كانت تستخدم أساسا كعلاج لجميع الأمراض وقد ثبت لاحقا أن جميع أنواع الأدوية غير مستساغة الطعم - وهذا أيضا حال النفط الخام - والتي تفقد خصائصها السمية عندما تؤخذ بجرع صغيرة ولكنها تتمتع بخصائص علاجية في مرحلة زمنية أو أخرى. ففي كثير من مناطق العالم يندفع النفط خارجا من الأرض من تلقاء نفسه ويمكن قشطه من البرك المتشكلة أو نضحه بالخرق أو قطع الثياب.

وفي العام ١٨٥٣ كان أحد خريجي جامعة دارتموث - ويدعى جورج بيسل - في زيارة إلى مدرسته التي تخرج فيها، ولمح في مكتب أحد أساتذته قارورة من «زيت الصخور» أحضرت من بنسلفانيا الغربية. وقد علم أن تلك المادة كانت قابلة للاشتعال، ففكر على الفور في تحويلها إلى مادة للإنارة. وشكل تجمعا صغيرا من المستثمرين وطلب إلى أحد أبرز كيميائي البلد وهو الأستاذ بين مين سيليمان الابن من جامعة ييل، أن يدرس الفرص الكامنة. وأورد سيليمان أن زيت الصخور يمكن تفكيكه بسهولة إلى عدد من المركبات ومنها الكيروسين بعد تسخينه. ونقل عن سيليمان قوله: «أيها السادة، لقد بدا لي أن ثمة ما يدعو كثيرا إلى التفاؤل في القول إن شركتكم قد وضعت يدها على مادة خام يمكن منها تصنيع طائفة من المنتجات ذات القيمة العالية وذلك عبر معالجة بسيطة غير مكلفة».

(*) الفوة: نبات صبغي [المترجم].

لكن بينما بيسل ومشاركوه المستثمرون - وسينضم إليهم سيليمان نفسه بعد مدة قصيرة، بعد أن يشتري لنفسه مائتي سهم في الشركة - يعلمون الآن أن في مقدورهم تصنيع سلعة ستلقى رواجا كبيرا من زيت الصخر، كانت مصادر زيت الصخر لاتزال آنذاك محدودة جدا. إذ لا يمكن أن تقوم صناعة ما على الكميات التي تجمع من سطوح برك النفط. ومع ذلك فقد خطرت لبيسل فكرة مفاجئة أخرى. إذ بينما كان يتفيأ تحت ظلّة أحد متاجر الأدوية في مدينة نيويورك، في أحد أيام الصيف الحارة في العام ١٨٥٦، لمح إعلانا لدواء مرخص تجاريا (ببراءة اختراع) مصنوع من زيت الصخر (النفط). وتبدو في الإعلان عدة حفارات كتلك التي تستخدم في استخراج الملح. وتصادف أن زيت الصخر المستخدم في الدواء إنما كان مصدره النفط الناتج ثانويا عن عملية التنقيب عن الملح. وتساءل بيسل إن كان بالإمكان استخدام تقنية الحفر للبحث عن النفط.

وأرسلت الشركة رجلا اسمه أدوين دريك Edwin Drake إلى شمال غربي بنسلفانيا، حيث كان مصدر معظم زيت الصخر في الولايات المتحدة، ووجد دريك أخيرا - وقد بذل جهدا غير يسير - رجالا يتقنون التنقيب عن الملح ولديهم الرغبة في التنقيب عن النفط، وكانت فكرة التنقيب عن النفط آنذاك مستهجنة. وفي ٢٧ أغسطس ١٨٥٩ اندفع النفط من أول بئر في العالم، بعمق ستة وستين مترا بالقرب من تيتوسفيل. لقد ثبت دريك مضخة على البئر وشرع بنضح ما كان يبدو كميات لا تنضب من زيت الصخر. لكن أكبر التحديات لم يكن العثور على النفط وإنما تأمين العدد الكافي من البراميل لتخزينه.

كان الأستاذ سيليمان محقا من دون أن يدرك ذلك. ففي غضون قرن، سيصبح النفط أساس عمل الاقتصاد وستجيش الجيوش والقوات العسكرية لوضع اليد على مصادره أو حمايتها.

ومن المصادر الوفيرة الأخرى التي حفزت الاقتصاد الأمريكي في سنوات ما قبل الحرب الأهلية غابات البلاد التي لا تنضب. وقد تنبأ توماس جيفرسون أنه سينقضي ألف عام قبل أن ينتهي زحف التخوم (البرية) إلى المحيط الهادئ، لكن حتى في زمن جيفرسون، انضوت كل الولايات التي تقع شرقي الميسيسبي - ما عدا ثلاث منها - في الاتحاد وبدأت أعمال اقتلاع الغابات الشرقية بسرعة مذهلة. ولم يكن ممكنا الاستفادة من إنتاجية المزارع الخصبة في الغرب الأوسط إلا بعد إزالة الأشجار، وارتفع الطلب على الخشب بمعدلات متزايدة مع نمو عدد السكان بمقدار الثلث كل عشر سنوات، وذلك من ٥,٣ مليون في العام ١٨٠٠ إلى ٣١,٤ في العام ١٨٦٠.

كانت الأرقام المسجلة مذهلة. ففي العام ١٨٢٠ لم تكن ميتشيغان - إذا جاز القول - مأهولة بالأوروبيين. وفي العام ١٨٩٧ بلغت صادراتها من خشب الصنوبر الأبيض ١٦٠ مليار قدم مسطحة، فلم يبق إلا ٦ مليارات. وشهدت الولايات واحدة عقب الأخرى من عمليات مماثلة لإزالة الغابات.

لكن خشب الوقود لم يكن - في واقع الأمر - الاستخدام الوحيد لعمليات قطع الأخشاب الجارية على أساس تجاري في تلك السنوات. وبقي الخشب مصدر الوقود الأساسي في الولايات المتحدة الغنية بغاباتها حتى بعد سنوات طويلة من إبدال الفحم به في أوروبا الفقيرة بالغابات. لقد زاد عدد المراكب البخارية وقاطرات السكك الحديد - بعد العام ١٨٣٠ - كثيرا من الطلب على الخشب كوقود. وقد صممت المداخن العملاقة التي ميزت القاطرات الأمريكية في تلك الفترة، التي أخذت شكل مخاريط مقلوبة لاحتواء عادم اللهب المنطلق من الأفران حيث يحترق الخشب.

وكان لإنتاج خشب الوقود أثر سلبي على الأرض يتجاوز الأثر الذي خلفته أعمال قطع الأشجار للحصول على خشبها. فقد أدت أعمال القطع الأخيرة إلى تجريد نحو ٢٥ ألف ميل مربع من الغابات، أما أعمال القطع للحصول على خشب الوقود فقد عرت مائتي ألف ميل مربع كاملة بين العامي ١٨١١ و١٨٦٧، أي ما يكفي لصناعة نحو خمسة مليارات كرد (*) من خشب التدفئة. (لكي نتخيل مقدار تلك الأخشاب، يمكن القول إن خمسة مليارات كرد - مرصوفة جيدا - تكفي لتغطية ولاية كونيكتيكت بأكملها بطبقة عمقها أربعة أقدام).

لقد كان أثر القطع الجائر للغابات هذا - ولا داعي للقول - في النظام البيئي الطبيعي بالغا جدا. لكن الإنتاج الزراعي زاد بمعدلات عالية جدا مع تحول الغابات إلى حقول زراعية. ولم يجد معظم الناس غضاضة أيا كانت في عملية التحول تلك. وكتب زائر لأوهايو الجنوبية في العام ١٨٢٣، وذلك بعد عشرين سنة فقط من اكتساب أوهايو صفة الولاية: «لم تقع عيناي على أبهج من هذا الحقل. ثلاثمائة فدان من الذرة المتماوجة.. وأولئك الرجال الخمسة عشر أو العشرون المنتشرون خلالها.. منكبين جميعا على العمل. أما الأكثر غرابة فهو أن يأتي ذلك كما كان الواقع من غابة طبيعية لا تتخللها إلا أكواخ متفرقة هنا وهناك وبقع صغيرة من الأرض المجردة من الأشجار التي حلت بها طلائع المستوطنين».

(*) الكرد: مقياس للحطب يعادل ١٢٨ قدما مكعبة [المترجم].

كان ثمة اعتقاد غالب آنذاك بأن هذا التغيير في المشهد الطبيعي إنما جاء بأمر إلهي، ذلك أن سفر التكوين حث البشر على «إعمار الأرض وحرثها». وباستثناء بعض الأصوات القليلة الفردية، مثل جورج بيركينز مارش الذي نشر كتاب «الإنسان والطبيعة Men and Nature في العام ١٨٦٤، فإن إنشاء حدائق المدن الكبرى في المدن المتوسعة سريعا أو ما يسمى اليوم بالحركة البيئية Environmental Movement لم يكن معروفا آنذاك.

لقد حرض إنتاج الذرة المتصاعد في أوهايو صناعة تعليب اللحوم، التي تركزت في سينسيناتي إلى أن تفوقت عليها شيكاغو في العام ١٨٦٠، وفي العام ١٨٣٣ كانت سينسيناتي قد أنتجت لحوم خمسة وثمانين ألف خنزير. ووصل إنتاجها بعد خمسة عشر عاما إلى ٥٠٠ ألف. إن نمو الإنتاج الزراعي الأمريكي في حقبة ما قبل الحرب الأهلية كان غير مسبوق في التاريخ الاقتصادي للعالم. على الرغم من عدم وجود إحصاءات رسمية قبل العام ١٨٣٩ فقد ارتفع إنتاج الذرة من ٣٧٨ مليون «شوال» (*) ذلك العام إلى ٨٣٩ مليونا بعد عشرين عاما. أما إنتاج القمح فارتفع من ٨٥ مليون شوال إلى ١٧٣ مليونا. لكن مع توسع مساحة الأراضي الزراعية المنتجة في الولايات المتحدة، فإن تعهد الأمريكيين للأراضي الزراعية لم يشهد تحسنا يذكر، وفق معايير العصر الاستيطاني. لا بل إنه قد تراجع في الواقع.

في الأيام الأولى للاستيطان - عندما كان عدد السكان لايزال قليلا جدا - جهزت أفضل أنواع الأراضي الزراعية، بينما أهملت المنحدرات والأراضي السبخة فبقيت على حالها. ولم يكن الحت وانجراف التربة مشكلة ظاهرة إلا في الجنوب، حيث كثرت المزارع وهيمن محصول واحد على زراعة المنطقة. لقد رأى باتريك هنري - في فترة تعود إلى ثمانينيات القرن الثامن عشر - أن المواطن الصالح هو ذاك الذي يردم العدد الأكبر من الأخاديد.

ولأن الأراضي كانت متوافرة بكثرة لا تعرف حدا، فإن القيمة المخصصة لوحدة الأرض كانت متدنية. وهذا بدهي، على الأقل في الأجل القصير (وبناء على ملاحظة اللورد كينز (**) Keynes فإننا جميعا في عداد الموتى على الأجل الطويل). إذ ينصب الاهتمام دائما على الاقتصاد في الموارد النادرة، بينما تستخدم الموارد الوفيرة من دون حساب أو بإسراف. كانت رعاية الأرض عملا لا غنى عنه

(*) شوال: مكيال للحبوب يساوي ٣٢٠٥ لترات [المترجم].
(**) جون مينارد كينز [المترجم].

في أوروبا حيث لم يكن ثمة المزيد من الأراضي لاستغلاله. أما في أمريكا فإن الأراضي البكر الجديدة - التي كانت متوافرة من دون مقابل لمن شاء أن يضع يده عليها - لم تكن أبعد من مسير بضعة تلال أو ديان، فكان المستوطنون دائما ينتقلون إلى هذه الأراضي. وكان هذا دأبهم طوال ثلاثمائة عام وبإقبال مطرد.

أما العمل - ذلك المورد النادر والمكلف في أمريكا ما قبل الحرب الأهلية، كحاله في الحقبة الاستيطانية - فكان موردا عليه الكثير من الطلب. وأوجدت روح الابتكار الأمريكية كثيرا من الطرائق والوسائل لرفع إنتاجية الزراعة في الولايات المتحدة. ولم تختلف المحاريث التي تعود إلى أيام الحقبة الاستيطانية كثيرا عن تلك التي كانت تستخدم في أوروبا القرون الوسطى، وكانت تصنع من الخشب. وقد كان أداؤها جيدا في التربة السطحية في المناطق الشرقية في الولايات المتحدة، لكنها كانت عديمة الفائدة في التربة العميقة الخصبة في المناطق النامية في الغرب الأوسط.

لقد درس توماس جيفرسون المحراث وحاول ابتكار محراث أفضل. وفي العام ١٧٩٧ بدأ تشارلز نيوبولد تصنيع المحاريث من الحديد الصلب، وفي العام ١٨١٤ صمم جيترود وود محراثا بأجزاء يمكن تعديل مواضعها، مما جعل إصلاحه عملا أسهل من ذي قبل. لكن المحاريث الحديد نفسها كانت عديمة الفائدة في كثير من مناطق الغرب الأوسط؛ لأنه لم يتسن قلب التربة التي كانت تعود إلى حالتها الأولى بعد أن يتجاوزها المحراث.

أحد الحدادين ويدعى جون دير Deere كان من فيرمونت وانضم إلى النازحين إلى نيو إنغلاند واستقر في حاضرة ذات اسم غريب: جراند ديتور(*) بإيلينوي. وهناك بينما كان منكبا على إصلاح محاريث عاطلة للفلاحين بدأ تجريب تصاميم جديدة. وفي العام ١٨٣٧ صنع محراثا باستخدام قطعة من نصل منشار دائري فولاذي، وقد أبلى بلاء حسنا في التربة القاسية في المنطقة الغربية الوسطى، إذ شقت الشفرة الأرض بإتقان ولم ترتد التربة إلى سابق عهدها.

وعلى الفور انتقل دير إلى أعمال التصنيع، فأنشأ مصنعا في مولين بإيلينوي لإنتاج المحاريث الجديدة التي ستنتشر سريعا عبر حزام المزارع المتنامي. وكان شعار الشركة الذي يتحدث عن مؤسسها: «ذاك الذي قدم للعالم المحراث الفولاذي» سيظل قيد الاستخدام حتى منتصف القرن العشرين، بعد سنوات طويلة من انتهاء العمل بالمحراث الذي يجره حصان واحد في المزارع الأمريكية.

(*) وتعني الانعطاف الكبير [المترجم].

لكن ليس ثمة من بذل كثيرا في سبيل تطوير الزراعة الأمريكية من سايروس مكورميك. فالفطنة الأمريكية لم تكن حكرا على نيو إنغلاند، حيث كان سايروس مكورميك من أبناء فيرجينيا، إقليم روكبريدج في وادي شيناندوا الذي ناصر الجنوب ودافع عن السود المستعبدين حتى نهاية الحرب الأهلية. وعلى غرار والد إيلي ويتني، كان والد مكورميك مزارعا وعامل ميكانيك، يصنع المعدات للمزارعين ويصلحها. وكويتني كان مكورميك صفاحا (سمكريا) بالوراثة. وقد بدأ مكورميك - الذي كان يعمل في مزرعة والده ذات الألف ومائتي فدان - التفكير في وسائل حصاد القمح. كان الحصاد حتى ذلك الحين من المشكلات التي تعترض إنتاج القمح، ذلك أن ثمة فترة محدودة جدا بعد نضج القمح يمكن خلالها حصاده بأحسن ما يرام. إن العامل المزود بمنجل وهزازة cradle لم يكن في استطاعته أن يحصد إلا فدانا واحدا من القمح يوميا. ولم يكن من المجدي - كما تبين - زراعة القمح بكميات لا تقدر الأيدي العاملة على حصادها.

لقد جزأ مكورميك عملية حصاد القمح إلى مراحلها المنفصلة، وابتكر أداة ميكانيكية لأداء كل مرحلة. ومن ثم صمم آلة قادرة على إنجاز تلك المراحل جميعها. وعندما بلغ الثانية والعشرين كان قد خرج بنموذج أولي عملي لحصادة آلية تستمد طاقتها من دولاب يعرف بدولاب التوجيه أو مقود الثور، الذي ينتهي إلى ملامسة الأرض عندما تتحرك الآلة خلف الحصان. وفي الواقع كان المزارعون غير واثقين أول الأمر من نجاعته. ولم يبع مكورميك آلة واحدة في عشر سنين، وفي العام ١٨٤٢ لم يبع إلا سبعا. ولكن في أعقاب فشل أعمال الحصاد في بريطانيا في العام ١٨٤٥ عندما ألغت بريطانيا العظمى «قوانين الذرة» Corn Laws التي كانت تحمي المزارعين البريطانيين من المنافسة الدولية، تصاعد الطلب على القمح الأمريكي سريعا، واقتنص مكورميك هذه الفرصة. وأنشأ مصنعا في شيكاغو - ولم يمض على تأسيسه آنذاك عشرون سنة - وبدأ إنتاج الحصادات لسوق الاستهلاك الكبير. وفي خمس سنوات باع خمسة آلاف منها. وفي العام ١٨٦٠ صار مكورميك رجلا عظيم الثراء، وقدرت إحصاءات ذلك العام أملاكه الشخصية بنحو ٢٧٨ ألف دولار وعقارات بقيمة ١,٧٥ مليون دولار.

وبفضل حصادة مكورميك صار في الإمكان حصاد ثمانية أفدنة - وليس فدانا واحدا - يوميا ليصبح الغرب الأوسط في أمريكا سلة خبز العالم. وفي العام ١٨٣٩ لم تصدر شيكاغو - التي كانت في أول عهدها ذلك الحين - أكثر من ثمانين شوالا فقط من القمح. وبعد عشر سنوات صدرت شيكاغو مليوني شوال من القمح.

ولم تزد حصادة مكورميك فقط محاصيل الحبوب الأمريكية بنسبة كبيرة ولكنها غيرت أيضا من وسائل عيش الأمريكيين. ذلك أن ابتكار الحصادة وما تبعها من المعدات الزراعية الآلية التي لا تحصى، أدى إلى تناقص نسبة العمال الزراعيين الأمريكيين بمعدلات مطردة، وفي المقابل كان الناتج الزراعي يشهد نموا مستمرا.

وهكذا ساعدت حصادة مكورميك كثيرا على تأمين العمالة اللازمة للتوسع الصناعي العظيم الذي شهدته أمريكا في أعقاب الحرب الأهلية.

وفي العام ١٨٥١ عرض مكورميك حصادته في المعرض الكبير Great Exposition في لندن، وكان أول معرض عالمي ومن الأحداث المحورية التي شكلت وجهة القرن التاسع عشر. في البداية ساور الناس شعور من الشك والارتياب. وأطلقت التايمز اللندنية - وهي معروفة بكرهها للأجانب - على آلة مكورميك الوصف التالي: «صليب وسط آلة طائرة وعربة يد ومركبة جياد.. اختراع أمريكي مبالغ فيه، عظيم الحجم وغير عملي.. وغير مألوف وعصي على الفهم».

وبعد تجريبها في أحد حقول القمح الإنجليزية - مع ذلك - عدلت التايمز عن رأيها تماما. فكتبت في ٩ يونيو ١٨٥١ أن «آلة الحصاد القادمة من الولايات المتحدة.. هي أفضل مساهمة تأتينا من الخارج وتضاف إلى حصيلة معرفتنا السابقة.. إن قيمتها لتعادل قيمة المعرض أجمع».

كما ذهلت الحشود المجتمعة في كريستال بالاس Crystal Palace في لندن ذلك الصيف أيضا بالابتكارات الميكانيكية الأخرى، وذهبت جوائز المعرض إلى المنتجات الأمريكية من محاريث ومسدسات كولت (*) ومنتجات المطاط من شركة جودبير Goodyear، وآلة الخياطة من شركة إلياس هو Elias Howe.

لقد ساعد آخر تلك الابتكارات - بعد أن أعاد إسحق سينجر تصميمه لزيادة إمكاناته وقدرته على أداء مختلف المهمات - على تحسين عمل ربات البيوت وخفض كثيرا من تكاليف الملابس الجاهزة. ذلك أن القميص المخيط يدويا كانت خياطته تستغرق أكثر من أربع عشرة ساعة. وبفضل آلة الخياطة الجديدة صار في استطاعة الخياط الفروغ من قميص واحد في نحو ساعة من الزمن.

وقد خشي كثير من عمال الملابس - كان ثمة أكثر من خمسة آلاف في مدينة نيويورك وحدها في العام ١٨٥٣ - أن تقطع آلة الخياطة أرزاقهم، لكن ما حدث كان عكس ذلك تماما. فمع تراجع أسعار الملابس الجاهزة بفضل آلة الخياطة

(*) مسدسات ذات حجرات دوارة [المترجم].

عوض الطلب المتزايد عليها قدرا كبيرا من الانخفاضات السعرية. وهذا يبرر التحسن الهائل الذي أحدثته الآلة في مقدرات عمال العالم - إذا لم تقوضها - على الأقل في الأجل الطويل. وفي الأجل القصير - بالطبع - حيث تدمر التقنية الجديدة أحيانا الفرص المتاحة للمهارات والخبرات القديمة، إذ إن الأثر السلبي الاقتصادي قد يكون فادحا على كل فئات العمال. إن الأغنية الشعبية الشهيرة «كان جون هنري حفار طرق» (*)، التي تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، تلخص هذه المشكلة تماما في قالب فني.

في مطلع القرن التاسع عشر نشأت في البلد صناعة أخرى أساسية ساعدت على تحريض التجارة مع دول العالم أجمع وفرضت احتكارا كاملا تقريبا عليها، وهي صناعة استمرت عقودا قبل أن تبطلها يد التقنية الحديثة: إنها تجارة الجليد.

لقد كان الجليد في نيو إنغلاند متوافرا مجانا لمن أراد أن يحصل عليه في أيام معينة من السنة، وسلعة ثمينة في الأيام الأخرى وكذلك في المناطق الحارة من العالم. إن فطنة فريدريك تيودور من ماساتشوستس ساعدته على إدراك فرصة تحقيق الأرباح من خلال توجيه عرض الجليد الذي لا ينضب في وقت الشتاء في نيو إنغلاند لمقابلة الطلب الهائل عليه في وقت الصيف وفي المناطق الاستوائية.

كانت تجارة الجليد - غير المألوفة - معروفة في روما القديمة حينما كان الثلج يستجلب من قمم جبال الأبيين Apennines الشاهقة إلى موائد الأغنياء. وحفر مزارعو نيو إنغلاند حجرات من الجليد في الأرض حيث خزنوا قطع الجليد المأخوذة من سطوح البرك خلال فصل الشتاء. وكان يعزل بالقش لاستخدامه في فصل الصيف في حفظ الأغذية التي تفسد سريعا - كالحليب - مبردة. واعتقد تيودور أنه سيحقق أرباحا بجلب هذا الجليد إلى بقاع العالم التي لم تعرف الجليد. لقد كان - إذا جاز القول - الرجل الوحيد الذي فكر في عمل ذلك.

وفي ١٣ فبراير ١٨٠٦ أبحرت سفينة استأجرها تيودور - واسمها فافوريت Favorite- من مرفأ بوسطن. وأوردت صحيفة بوسطن غازيت Boston Gazette ما يلي: «ليس من باب الدعابة. لقد أبحرت سفينة تحمل ٨٠ طنا من الجليد من هذا الميناء قاصدة المارتينيك. نأمل ألا يتحول ذلك إلى مضاربة شكسة».

(*) عنوانها الأصلي John Henry Was a Steel Driving Man، وحفار الطرق هذا كان يستخدم مطرقة فولاذية عظيمة [المترجم].

ولسوء حظ تيودور، فقد انقلب ذلك إلى مضاربة شكسة. إذ لم تكن هناك من غرف باردة في المارتينيك لحفظ ما تبقى من الجليد في هذه الرحلة، ولم يكن تيودور قد تعلم آنذاك عزل الجليد كي لا يذوب على ظهر السفينة. كما أن سكان المارتينيك - الذين عاشوا من دون جليد طوال قرنين تقريبا - لم يعلموا ماذا يصنعون به، لذلك نظروا إليه بدافع الفضول وحب الاستطلاع.

وفي العقود الثلاثة اللاحقة، جاهد تيودور لتعلم فنون تجارة الجليد، فأنشأ مخازن للجليد في الأسواق التي يتوقع أن يزدهر فيها الطلب على الجليد، فأتقن فنون العزل وقدم النصح والإرشاد لزبائنه. وتحول جمع الجليد من برك وأنهار نيو إنغلاند آنذاك إلى عمل روتيني.. فكان له أدواته الخاصة لقطع الجليد ونقله إلى مخازنه المتزايدة عددا على الشاطئ.

ومن الأمثلة الممتازة عن التآزر الاقتصادي Economic Synergy أن أفضل مواد عزل الجليد كانت تلك النواتج الكريهة المتخلفة عن صناعة الخشب، أي نشارة الخشب. كانت هذه النشارة تطرح في الماضي في أقرب مجاري الأنهار لتحملها المياه بعيدا - حيث سببت كثيرا انقطاع الأنهار والفيضانات - وصارت تباع اليوم إلى تجار الجليد بسعر ٢,٥ دولار للكرد الواحد.

وفي ثلاثينيات القرن الثامن عشر أصبح الجليد من الصادرات الأمريكية عالية الربح. وكان الجليد الأمريكي يشحن في العام ١٨٣٣ إلى مناطق بعيدة وصولا إلى كلكتا، حينما بلغت سفينة توسكاني Tuscany التي أبحرت من بوسطن في ١٢ مايو إلى مصب نهر الجانج في ٥ سبتمبر. إن كلكتا - وهي من أحر مدن العالم وأكثرها رطوبة - كانت حينذاك عاصمة الهند البريطانية، وهي تبعد ٩٠ ميلا من أعالي نهر هوغلي Hooghly، وانتظر السكان وصول الجليد بلهفة وترقب. كما طالبت صحيفة «إنديا غازيت» أن يدخل الجليد من دون تعريفة جمركية، وأن يجاز للسفينة تفريغ الجليد في برودة المساء. واستجابت السلطات سريعا لهذه المطالب. واستطاع فريدريك تيودور نقل مائة طن من الجليد إلى كلكتا وأقبل البريطانيون هناك ممتنين فاشتروا الجليد كله، مما أكسب المستثمرين الأمريكيين أرباحا قدرت بنحو ١٠ آلاف دولار.

وفي خمسينيات القرن التاسع عشر كان الجليد الأمريكي يصدر بانتظام إلى كل المرافئ الاستوائية، ومنها ريو دي جانيرو وبومباي ومادراس وهونغ كونغ وباتافيا (واسمها اليوم جاكرتا). وفي العام ١٨٤٧ نقل ثلاثة وعشرون ألف طن من الجليد من بوسطن إلى المرافئ الأجنبية على متن خمس وعشرين سفينة، بينما شحن اثنان وخمسون ألف طن إلى موانئ أمريكا الجنوبية.

وبدأت المدن الأخرى التي تهيأت لها سبل الحصول على الجليد تشهد ميلاد تجارة الجليد. وكان على ضفاف نهر هدسون ١٣٥ مخزن جليد يكفي كل منها لتخزين آلاف الأطنان. وأصبحت صناديق الجليد من الأدوات المنزلية الأساسية في مساكن الطبقتين الوسطى والعليا في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وصار توزيع الجليد اليومي جزءا من الحياة اليومية. ووجد بائع الثلج وعربة الثلج طريقهما إلى الفن الشعبي والأسطورة في أمريكا، وصار ولع الأمريكيين بالمشروبات المثلجة والحلويات المجمدة على أشده، ولايزال ذلك هو ما يميز الأمريكيين في عيون الأوروبيين، وخصوصا البريطانيين.

ولقد قدر حجم تجارة الجليد في العام ١٨٨٠ بثمانية ملايين طن سنويا، وكانت الشتاءات الدافئة تقابل بتحذيرات الصحف من «نقص حاد في الجليد» في الصيف التالي مما كان يدفع الأسعار إلى الارتفاع سريعا. وقضى التبريد الآلي على هذه التجارة مع المدن الأجنبية النائية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، حين لم تعد قادرة على منافسة الجليد المصنوع محليا. لكن تجارة الجليد المحلية ظلت في حالة توسع حتى القرن العشرين، عندما بدأت الثلاجة المنزلية تأخذ مكان بائع الثلج.

إن الكساد العميق الذي بدأ في العام ١٨٣٧ قد شرع في الانحسار في منتصف الأربعينيات من القرن التاسع عشر، أما إيرادات الحكومة الفدرالية - وهو مؤشر للنشاط الاقتصادي - فقد بلغت مستوى جد متدن هو ٨,٣ مليون دولار في العام ١٨٣٤ وهو أدنى مستوى منذ عقود. لكنها قفزت في العام التالي إلى ٢٩ مليون دولار. ولقد حرضت «حرب المكسيك» آنذاك - وقد اندلعت في العام ١٨٤٦ - الاقتصاد كثيرا، وهذا حال الحروب دائما. وعاد الازدهار من جديد، وقد أضافت حرب المكسيك - بالطبع - أراضي جديدة شاسعة للولايات المتحدة بعد أن تنازلت المكسيك عن مطالباتها بتكساس شمال ريوغراند، كما تنازلت أيضا عن نحو مليون ميل مربع مما يعرف اليوم بأريزونا

وأوتاه ونيفادا وكاليفورنيا وأجزاء من كولورادو ويومينغ ونيومكسيكو في مطلع العام ١٨٤٨ مقابل ١٥ مليون دولار، وإعفاء الولايات المتحدة لعدة ملايين من الدولارات كانت المكسيك مدينة بها لمواطنين أمريكيين.

وفي السنة نفسها أبرم اتفاق مع بريطانيا العظمى على تقسيم أراضي أوريغون على خط الطول التاسع والأربعين. وصارت للولايات المتحدة الآن شواطئ على المحيط الهادي بطول شواطئها على المحيط الأطلسي تقريبا. لكن كثيرا من الأراضي التي تقع غرب تكساس والولايات المتخامة للمسيسيبي كانت غير مأهولة وغير معروفة إطلاقا.

حتى قبل طرح المعاهدة التي أنهت حرب المكسيك على طاولة المفاوضات، وقع حادث سيؤثر كثيرا في الولايات المتحدة في منطقة كانت لاتزال حينها أرضا مكسيكية. ذلك أن الذهب اكتشف في سترز ميل Sutter's Mill في كاليفورنيا.

وفي ٢٤ يناير ١٨٤٨ كان رجل يدعى جيمس مارشال يعاين تدفق المياه إلى المنشرة التي فرغ من بنائها على الفور لرب عمله جون ستر على النهر الأمريكي American River، غير بعيد عن مدينة ساكرامانتو الحالية. وقد حول المياه إلى مجرى القناة المائية في الليلة الماضية لتنظيفها من الركام والعوائق وقد شد انتباهه شيء «بشكل البرغوث وبنصف حجمه». وتذكر في ما بعد قائلا: «لقد زاد ذلك خفاق قلبي لأني كنت واثقا بأنه الذهب». والتفت إلى عماله قائلا: «يا رفاق، أقسم بالله أني وقعت على منجم ذهب».

لقد كان جنون الذهب في كاليفورنيا الأول في سلسلة من موجات جنون الذهب في الولايات المتحدة. لقد عثر شاب صغير اسمه كونراد ريد على شذرة كبيرة من الذهب - بلغ وزنها سبعة عشر رطلا - في نهير في مزرعة والده في إقليم كاونتي بكارولينا الشمالية، في العام ١٧٩٩ ومع ذيوع الخبر انطلق الناس يبحثون عن الذهب في العقود اللاحقة، ذلك أن أولى القطع النقدية الذهبية التي صدرت في أمريكا إنما سكت هناك في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وذلك في دار سك خاصة أسسها كريستوفر بتشلر - وهو مهاجر ألماني - في إقليم روثفورد. لقد حظر الدستور على الولايات ضرب النقد، لكنه لم يكن ينكر ذلك على الأفراد على الرغم من

أن القطع النقدية ليست بالطبع نقدا قانونيا Legal Tender (*). وقد كانت القطع النقدية التي سكها بيشلر في فئات دولار و٢,٥ دولار و٥ دولارات مضروبة بنزاهة وإتقان، واكتسبت شعبية كبيرة في اقتصاد الجنوب، المتعطش للعملة المعدنية، في فترة ما قبل الحرب.

لكن جنون الذهب في كاليفورنيا كان يختلف بنطاقه كلية عن جنون الذهب الذي شهدته كارولينا الشمالية. ففي العام ١٨٤٧ أنتجت الولايات المتحدة ٤٣ ألف أوقية من الذهب، كان معظمها ناتجا ثانويا لعمليات التنقيب عن المعادن الأساسية (**). وقد أنتج في العام ١٨٤٨ أكثر من عشرة أضعاف ذلك بفضل إنتاج كاليفورنيا، وفي العام ١٨٤٩ وصل إنتاجها إلى ١,٩٣,٥ مليون أوقية. وفي العام ١٨٥٣ أنتجت كاليفورنيا أكثر من ٣ ملايين أوقية قدرت قيمتها بنحو ٦٥ مليون دولار، أي أكثر من الإيرادات الفدرالية الإجمالية ذلك العام بنحو ٤ ملايين دولار.

إن الذهب مادة عجيبة. فهو يعد من العناصر الثقيلة من ناحية؛ ذلك أن السنتيمتر المربع من الماء يزن غراما واحدا. وبالتالي فإن القدم المربعة من الماء تزن ٦٢,٤٣ رطل. وأن القدم المربعة من الغرانيت تزن نحو ١٧٠ رطلا. أما وزن الذهب فهو ١٢٠٠ رطل للقدم المربعة. ومن ناحية أخرى، يعد الذهب عنصرا كيماويا خاملا لا يتفاعل مع العناصر الأخرى ولذلك لا يفقد بريقه. لذلك يوجد الذهب في الطبيعة بحالته النقية وأحيانا على شكل قشور صغيرة أو تراب، ويكون في الأغلب مطمورا في الصخر كالوارتز، وأحيانا يتجمع في شذرات كبيرة من الذهب الخالص.

وعندما تنفصل شذرات الذهب وقشوره وترابه بفعل الحت عن حواف الهضاب فإنها تنجرف مع مياه الأنهار. لكن ثقل الذهب يجعله ينزع نحو الرسوب عند تباطؤ حركة التيار، كما يحدث في الدوامات أو في داخل حنيات النهر، حيث يأخذ الذهب في التجمع في تلك المواضع.

وبالتالي فإن الذهب - وعلى خلاف كل المعادن الأخرى عموما - يمكن التنقيب عنه والعثور عليه من دون إنفاق كثير من المال. في الأيام الأولى من جنون الذهب لم يكن المنقبون في حاجة إلا إلى بضع أدوات ومجرفة والعزيمة

(*) النقد القانوني: هو النقد المقبول في التداول بقوة القانون، التي تفرض على جميع الأطراف قبوله في التعامل بيعا أو شراء [المترجم].

(**) أو المعادن الخسيسة [المترجم].

على العمل الدؤوب. وفي العام ١٨٤٨ لم تكن ثمة قلة من الرجال الراغبين في ذلك وخصوصا أولئك المستعدين لهجر أعمالهم الرتيبة - التي تؤمن لهم مع ذلك دخلا ثابتا - كمزارعين ومدرسين وموظفي مصارف وآلاف من الأعمال الأخرى، والمضي بحثا عن الثراء السريع في حقول ذهب كاليفورنيا.

وكانت النتيجة واحدة من أكبر هجرات القرن التاسع عشر، لا بل القرون جميعا. ومع ذيوع الخبر - بعد أن باءت بفشل ذريع محاولة جيمس مارشال وجون ستر التكتم على الخبر، بالطبع - هجرت مدن بأكملها حينما اندفع الرجال إلى الحقول. وقد خلت سان فرانسيسكو تماما من ساكنيها - وكانت آنذاك قرية لا يتجاوز عدد سكانها ألف نسمة - وغص ميناؤها بالسفن الراسية التي هجرها ركابها ومضوا بحثا عن الذهب. ومع انتشار الخبر في أرجاء أخرى، وصلت الموجة ذاتها إلى هاواي وأريغون وأمريكا الجنوبية وأستراليا والصين فيمم الآلاف من الرجال وجوههم قبل كاليفورنيا.

وقد مر وقت طويل قبل أن يبلغ الخبر الساحل الشرقي، ولم تصل شائعات الذهب الكاليفورني إلا في أواخر الصيف. ولم يذع الخبر رسميا إلا في ٨ ديسمبر. وفي ذلك اليوم أرسل الرئيس جيمس تي بولك إلى الكونغرس خطابا يعلمه فيه بفورة الذهب، وأرفق بالخطاب دليلا أراد به لفت انتباه الجميع: شذرة من الذهب زنتها عشرون رطلا كاملة. وبما أن قيمة الرطل الواحد من الذهب كانت ٢٠,٦٦ دولار - وهو سعر التحويل الرسمي بين دولار الولايات المتحدة والذهب منذ العام ١٨٣٧ - فقد بلغت قيمة تلك الشذرة نحو ٤,٨٠٠ دولار. وكان ذلك المبلغ في العام ١٨٤٨ كافيا لأسرة كبيرة كي تعيش في رخاء الطبقة فوق الوسطى لعام كامل أو يزيد. وكانت النتيجة شيئا أقرب إلى السعار الجماعي. ففي العام ١٨٤٩ توجه نحو تسعين ألف أمريكي إلى كاليفورنيا وتبعهم ما يقارب ذلك العدد أيضا في العام ١٨٥٠. وهذا العدد يقل كثيرا عن ١ في المائة من عدد السكان. وكان معظمهم - ولا غرابة في ذلك - من الرجال. وعندما أصبحت كاليفورنيا ولاية بعد أقل من ثلاث سنين من جنون الذهب، كان عدد الذكور يشكل نسبة ٩٢ في المائة من سكانها.

ولم تكن تلك رحلة سهلة. ففي العام ١٨٤٩ لم تكن ثمة إلا ثلاث طرق لبلوغ كاليفورنيا من الجهة الشرقية للولايات المتحدة. وإحدى هذه الطرق كانت طريقا برية، وكانت الرحلة تستغرق ستة أشهر عبر الأراضي غير

المأهولة والخطرة أحيانا. وطريق أخرى كانت تستدعي الالتفاف حول رأس هورن Cape Horn بالسفينة، وكانت الرحلة تستغرق نحو ستة أشهر أيضا. كما أنها كانت أقل مشقة وأكثر كلفة بالمقابل. أما الطريق الثالثة فكانت تمر عبر بنما. وبدأت السفن البخارية بالعبور إلى بنما بصورة منتظمة، وكان حينها على المسافرين أن يشقوا طريقهم عبر برزخ يرشح بمياه الأمطار وتكثر فيه ناقلات الحمى إلى المحيط الهادئ آملين بالعثور على ناقلة في الشمال تقلهم إلى كاليفورنيا، كالسفينة البخارية كاليفورنيا California، التي كانت ترسل في رحلات إلى رأس القرن ومنه لهذا الغرض.

إن الرحلة عبر بنما لا تستغرق نظريا أكثر من سبعين يوما - وهي مدة ليست بالطويلة - لكن التوقف في مدينة بنما كان يستغرق عدة أسابيع. وقد وجد أودغين ميلز - الذي سيحقق ثروة من العمل المصرفي في زمن جنون الذهب - ثلاثة آلاف شخص ينتظرون سفينة تقلهم إلى حقول الذهب، من دون أن تكون هناك سفينة متجهة إلى الشمال إطلاقا. وفي آخر المطاف استقل سفينة إلى الجنوب بحثا عن سفينة يستأجرها، وكان عليه أن يمضي بعيدا حتى كالارو في البيرو ليعثر على واحدة. وانتهت رحلته من نيويورك إلى كاليفورنيا في ستة أشهر أيضا.

إذا تأملناه من منظور سياسي، فإن جنون ذهب كاليفورنيا أدى إلى دفع مركز الثقل في البلاد بشدة نحو الغرب. ففي العام ١٨٥٠ كانت نقطة تركز سكان الولايات المتحدة - شرقي بالتيمور في العام ١٧٩٠ - تقع قرب باركرزبرغ في فيرجينيا (هي اليوم فيرجينيا الغربية). لكن في العام ١٨٥١ عندما كان جنون الذهب لايزال وباء متفشيا كتب جون إل بي سول في صحيفة تيرهوت إكسبرس: «يمموا وجوهكم غربا!». وهي عبارة اقتبسها هوراس جريلي على الفور وصارت تنسب إليه منذ ذلك الحين.

وهكذا أصبحت روابط الولايات المتحدة مع ولايتها الجديدة النائية - التي تقع على بعد ألف ميل غرب الحدود الغربية لتكساس - الشغل الشاغل آنذاك. لقد بدأ بناء سفن القلبر Clipper Ships، وكانت سرعتها ميزتها الأساسية، (بينما كان عدم توافر مساحات الشحن من أوجه قصورنا الأساسية) في مسافن (*) بوسطن ونيويورك بأعداد متزايدة لحمل الناس

(*) المسافن: مواضع بناء السفن [المترجم].

إلى كاليفورنيا وتقليص الزمن اللازم للالتفاف حول رأس القرن. وقد أنجزت سفينة فلايينغ كلاود (الغيمة الطائرة) - وكانت بالفعل اسما على مسمى - الرحلة من نيويورك إلى سان فرانسيسكو في زمن قياسي بلغ تسعة وثمانين يوما، وهي نصف المدة التي كانت تستغرقها السفن الشراعية العادية. وفي العام ١٨٥٣ وضعت قيد الاستخدام نحو ١٢٠ سفينة قلبر. لكن مد السكك الحديد عبر بنما وتقديم خدمة السفن البخارية الأكثر كفاءة وأمانا في الشطر الباسيفيكي من مسار الرحلة، جعل سفن القلبر عاجزة عن المنافسة، وبدأت أعداد السفن قيد الإنشاء تتناقص سريعا، حتى أن آخر سفينة سلكت هذه الطريق إنما شوهدت في العام ١٨٥٩.

لقد ظهرت الحاجة الملحة أيضا إلى ضرورة شق طريق عبر الأراضي الأمريكية نفسها. وفي العام ١٨٥٣ اشترت الولايات المتحدة ٢٩ ألف ميل مربع من المكسيك في ما بات يعرف اليوم بأريزونا، لأنه كان ثمة اعتقاد حينذاك أن هذه الأراضي ستكون أفضل طريق تمر عبرها السكك الحديد في مناطق الجنوب. وفي العام ١٨٦٠ قلل قطار بوني إكسبرس Pony Express زمن الاتصال بكاليفورنيا بنحو عشرة أيام، وفي العام ١٨٦١ قلصت خطوط التلغراف ذلك الزمن إلى دقائق معدودات.

لقد كان أثر جنون الذهب الذي شهدته كاليفورنيا في الاقتصاد الأمريكي كبيرا كأثره في السياسة الأمريكية.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، كان الذهب يتداول كنقد. وبعد انتهاء الحروب النابليونية في العام ١٨٢١ انتهجت المملكة العظمى معيار الذهب. وقد كان ذلك يعني أن مصرف إنجلترا كان مستعدا لشراء أو بيع كميات غير محددة من الجنيه الاسترليني مقابل الذهب بسعر تبادل قدره ٣ جنيهات و١٧ شلنا و١٠,٥ بنس للأوقية الواحدة، هذه النسبة وضعت قبل أكثر من قرن من ذلك التاريخ على يد السير إسحق نيوتن، الذي اختير من بين الجميع ليشغل منصب «القائم على مسكوكات الملك». هذا المنصب كان يوفر لشاغله تعويضا حسنا، لكنه في الوقت نفسه لم يكن يتطلب حضورا يذكر من شاغله.

ولأن المملكة المتحدة كانت تهيمن على اقتصاد العالم وتجارته في القرن التاسع عشر؛ ولأن مصرف إنجلترا كان - في واقع الحال - المصرف المركزي للعالم فإن معظم الدول التجارية الكبرى ربطت عملاتها بالذهب من دون تردد.

كانت التجارة العالمية تتم على أساس معدن الذهب أو الجنيه الاسترليني، لكنه وبينما كانت الولايات المتحدة تعتمد في علاقاتها الخارجية على معيار الذهب، فقد استمرت في الداخل الاضطرابات النقدية، لا بل إنها تصاعدت. وفي خمسينيات القرن التاسع عشر كان ثمة أكثر من سبعة آلاف نوع من الأوراق النقدية المصرفية (البنكنوت) في التداول - بغض النظر عن درجة قبولها في التداول - وأكثر من خمسة آلاف منها كانت مزورة أو لا تخلو من الاحتيال.

ومع حلول العام ١٨٦٠ كان ثمة أكثر من مائتي مصرف تزاول عملها في الولايات المتحدة. كان بعضها كبيرا وينتهج سياسات محافظة ويتمتع بالاستقرار المالي، وقد اتخذ مقره في المدن الشرقية الكبرى. ومعظمها مع ذلك كان يمارس عمله في المدن الصغيرة ويعتمد على الاقتصادات المحلية. كما أن بعضها كان يعرف باسم «المصارف المريبة Wildcat Banks لأن مقراتها الرئيسة - وهي الموضع الوحيد الذي فيه استردادها بالذهب والفضة - كانت واقعة في «مناطق مخالفة» يصعب الوصول إليها، عن قصد من أصحابها.

ومع تدفق ذهب كاليفورنيا إلى الاقتصاد الأمريكي، ارتفع عرض النقد بصورة واضحة. وكثرت أعمال ضرب القطع النقدية على يد الحكومة الفدرالية، كما ازداد إصدار الأوراق النقدية المصرفية (البنكنوت) على أساس احتياطيات الذهب. ولأنه لم يكن ثمة مصرف مركزي في البلد، فلم تكن هناك آلية لتنظيم عرض النقد والرقابة عليه أو استخدام السياسة النقدية لضبط ما أطلق عليه آلان غرينسبان (*) في عبارته الشهيرة: «الوفرة غير العقلانية». وكانت النتيجة طفرة هائلة، لم تدم طويلا.

في العام ١٨٥٠ لم يكن طول خطوط السكك الحديد مجتمعة يتجاوز ٩ آلاف ميل، لكن هذا الرقم وصل إلى ٣٠,٦٢٦ ألف ميل بعد عقد من الزمن. وارتفع إنتاج تماسيح الحديد (**) من ٦٣ ألف طن في العام ١٨٥٠ إلى ٨٨٣ ألف طن بعد ست سنوات فقط. وبدأ فلز الحديد يتدفق بكميات متزايدة من ماركيت آيرون رينج Market Iron Range في شبه جزيرة ميتشيغان العليا، وهي أول مكامن فلز الحديد التي تكتشف حول البحيرات العظمى، والتي سيتبين في

(*) آلان جرينسبان (١٩٢٦ -) رئيس مصرف الاحتياطي الفدرالي (المصرف المركزي للولايات المتحدة) بين العامي ١٩٨٧ - ٢٠٠٦ [المترجم].

(*) تماسيح الحديد: الحديد الخام عند خروجه من أتون الصهر [المترجم].

نصف القرن القادم أنها أكبر مكامن الحديد وأغناها في العالم أجمع. وتضاعف في تلك السنوات إنتاج الفحم، الذي بدأ من فوره يحل محل الخشب كمصدر رئيس للوقود في قطاعات النقل والصناعة الأمريكية.

وقد تدفق رأس المال - كما هي الحال دائما كلما أصاب الاقتصاد الأمريكي ازدهارا - من أوروبا لتمويل التنمية. فبلغت قيمة الأوراق المالية بحيازة الأجانب في العام ١٨٤٧ نحو ١٩٣,٧ مليون دولار. وارتفعت قيمة تلك الأوراق بعد عقد من الزمن إلى ٣٨٣,٣ مليون دولار.

كثير من رأس المال الجديد هذا كان يتداول في وول ستريت، التي رسخت موقعها كمركز مالي للولايات المتحدة في خمسينيات القرن التاسع عشر. وكتب لويسفيل كوريير في العام ١٨٥٧ «كل سكنة في هذا الكيان المالي العظيم كان أثرها يستشعر في كل أنحاء البلاد من مين Maine إلى فلوريدا Florida، ومن ضفة الأطلسي إلى ضفة الهادي». وأودعت المصارف العاملة خارج ولاياتها الأصلية - وعلى الفور - مبالغ طائلة في مصارف مدينة نيويورك لتسهيل الاحتياجات التجارية لعملائها في نيويورك، مع شروع المدينة في الهيمنة على تجارة القطن - في مناطق الجنوب وتجارة القمح في المنطقة الغربية الوسطى - مع أوروبا. وافتتح سبعة وعشرون مصرفا جديدا في نيويورك وحدها في الفترة ما بين ١٨٥١ و١٨٥٣ فقط.

ومع التوسع السريع الذي أصابه الاقتصاد الأمريكي في مطلع الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كانت ذروة النشاط - كما الحال دائما - أكثر وضوحا في سوق نيويورك المالية. وافتتحت بورصات جديدة لتنظيم تداول الأسهم الصغيرة Penny Stocks التي لا تقبل بورصة نيويورك ومجلس البورصة التعامل بها، وقد بلغ عدد الشركات المؤسسة في الخمسينيات من القرن التاسع عشر ما يساوي عدد الشركات التي أسست في النصف الأول من القرن. ومع حلول العام ١٨٥٦ كان ثمة ٣٦٠ سهما لشركات السكك الحديد و٩٨٥ سهما للمصارف و٧٥ سهما لشركات التأمين قيد التداول المنظم في وول ستريت، مع ارتفاع وسطي حجم التداول في وول ستريت بعشرة أضعاف.

وفي العام ١٨٥٧ بدأت الطفرة الاقتصادية تفقد زخمها. واستقر إنتاج الذهب في كاليفورنيا. كما أن حرب القرم وتراجع إنتاج المحاصيل الزراعية في أوروبا - التي طالما حرضت الطلب على الصادرات

الأمريكية - قد انتهت. وصارت موانئ نيويورك آنذاك مكتظة بالسفن التي لا تجد حمولة تنقلها. وبقي ستة آلاف نول نسيج في نيو إنغلاند ذلك الصيف من دون عمل.

وفي ٢٧ يونيو من ذلك العام كتب جيمس جوردون بينيت في صحيفة الهيرالد «هل يمكن أن ينتهي كل هذا إلا بانهيار شامل كذلك الذي وقع في العام ١٨٣٧، باستثناء أن ذلك الانهيار كان واسع النطاق؟». إن الفساد الإداري والإفلاس العام والفقاعات الورقية في كل صورها وملايين الدولارات - المخلقة أو المقترضة - التي ذهبت للإنفاق على بناء المساكن المترفة أو شراء الأثاث المبهرج، ومئات الألوف من قصص التفاخر المبتذل بين محدثي النعمة المتأنقين في اقتناء الحرير والرباطات والماس وجميع ضروب الأناقة المتكلفة والمكلفة.. ليست إلا غيضا من فيض الشرور الصارخة التي ميزت ذلك العصر».

وفي أواخر الصيف بدأت الأسعار في وول ستريت تعكس واقع الاقتصاد الوطني الواهن. وشرعت المصارف وبيوت السمسرة الضعيفة بالانهيار. وعندما غرقت السفينة التجارية «سنترال أمريكا» Central America قبالة سواحل كارولينا الشمالية في إعصار ضربها في ١٢ سبتمبر، أغرقت معها ٤٠٠ مسافر. لكن مصدر القلق الأكبر الذي اعترى قطاع الأسواق كان غرق ١,٦ مليون دولار من ذهب كاليفورنيا مع السفينة أيضا، وعصف الرعب بوول ستريت. وفي الحال انتقلت موجة الهلع إلى أوروبا في أول حوادث انهيار الأسواق الحقيقية في العالم، وكان هذا إشارة دامغة إلى الأهمية المتعاظمة للاقتصاد الأمريكي بالنسبة إلى العالم أجمع. وفي منتصف أكتوبر علق معظم مصارف البلاد - وكل المصارف الكبرى في مدينة نيويورك - الدفع بالنقد المعدني (الذهب والفضة). وكان ذلك مؤقتا إلى أن استعادت المصارف احتياطياتها واستدعت قروضها فاستأنف معظمها الدفع بالذهب والفضة في ديسمبر، لكن الاقتصاد سيتمرغ أيضا في كساد جديد في السنوات الثلاث التالية. كما تراجعت الإيرادات الفدرالية بمقدار الثلث بين العامين ١٨٥٧ - ١٨٥٨.

لقد أثبت الاقتصاد الأمريكي في العقود الستة الأولى من تبني الدستور أنه من عجائب العالم. فقد تضاعفت مساحته ثلاثة أضعاف، وارتفع عدد سكانه ثمانية أضعاف. لكن حجم الاقتصاد ارتفع ثمانية عشر ضعفا أو يزيد. وتوسعت

مجموعة من الولايات الصغيرة - التي غلبت على اقتصاداتها الصفة الزراعية - على مساحة غطت نصف القارة. ونمت الصناعات الأمريكية من العدم لتصبح من المراكز الصناعية الرائدة على مستوى العالم. ومدت شبكات الطرق والاتصالات فأصبحت الأكبر على وجه المعمورة.

لكن هذا الاقتصاد لم يصل الكمال بعد. صحيح أن خطوط السكك الحديد في الولايات المتحدة كانت تتجاوز طولا خطوط السكك الحديد في أي بلد آخر في العام ١٨٦٠، على سبيل المثال، لكنها مازالت آنذاك تستورد كثيرا من السكك والعربات من إنجلترا، كما كانت تستورد معظم حاجتها من الفولاذ، وهو معدن بدأ يحتل أهمية كبيرة منذ ذلك الحين.

إلى ما تقدم، فإن القوى السياسية ذات المصالح الضيقة كانت تقسم البلاد إلى شطرين: شمالي وجنوبي، على الرغم من التكامل غير المسبوق الذي حققه الاقتصاد القومي. وكما تبين لاحقا، لم يتسن احتواء تلك القوى تماما بالوسائل السياسية، على الرغم من جهود استغرقت عقودا. وسيتبين أن ما نعته وينستون تشرشل بأكثر الصراعات حتمية بين الشعوب الناطقة بالإنجليزية سيكون أشد الأحداث تأثيرا وأكثرها شأنا في التاريخ الأمريكي. ذلك أنه على الرغم من أن الاتحاد الأمريكي إنما ولد من رحم الثورة، فإن الأمة الأمريكية لن تتشكل إلا على سندان الحرب الأهلية المروعة.

البيبليوغرافيا

WITHE

The First Iron Works Restoration. New York[?] First Iron Works Association, 1953.

Adams, Charles Francis, and Henry Adams. *Chapters of Erie, and Other Essays*. Boston: James R. Osgood, 1871.

Adams, John. *Ocean Steamers: A History of Ocean-Going Passenger Steamers 1820–1970*. London: New Cavendish Books, 1993.

Allen, Frederick Lewis. *The Great Pierpont Morgan*. New York: Harper & Brothers, 1949.

Ambrose, Stephen E. *Nothing Like It in the World: The Men Who Built the Transcontinental Railroad 1863–1869*. New York: Simon and Schuster, 2000.

Bailey, Ronald H. *The Home Front: U.S.A.* Alexandria, Va.: Time-Life Books, 1978.

Bailyn, Bernard, et al. *The Great Republic: A History of the American People*. Boston: Little, Brown, 1977.

Barlow, Francis C., and David Dudley Field. *Facts for Mr. David Dudley Field*. Albany, New York: Parsons and Company, 1871.

Berlin, Ira. *Generations of Captivity: A History of African-American Slaves*. Cambridge, Mass.: Belknap Press, 2003.

Botting, Douglas. *The U-Boats*. Alexandria, Va.: Time-Life Books, 1979.

Bowden, Witt. *The Industrial History of the United States*. New York: Augustus

M. Kelley, 1967. Reprint of the 1930 ed. published by Adelphi Company.

Brands, H. W. *The First American: The Life and Times of Benjamin Franklin*. New York: Doubleday, 2000.

———. *The Reckless Decade: America in the 1890s*. New York: St. Martin's Press, 1995.

Brewer, John. *The Sinews of Power: War, Money, and the English State, 1688–1783*. New York: Alfred A. Knopf, 1989.

Brinkley, Douglas. *Wheels for the World: Henry Ford, His Company, and a Century of Progress*. New York: Viking, 2003.

Brookhiser, Richard. *Alexander Hamilton, American*. New York: Free Press, 1999.

Brooks, John. *Once in Golconda: A True Drama of Wall Street, 1920–1938*. New York: Harper & Row, 1969.

Bruchey, Stuart. *The Wealth of the Nation: An Economic History of the United States*. New York: Harper & Row, 1988.

Buchanan, James M., and Richard E. Wagner. *Democracy in Deficit: The Political Legacy of Lord Keynes*. New York: Academic Press, 1977.

Buck, James E., ed. *The New York Stock Exchange: The First Two Hundred Years*. Essex, Conn.: Greenwich Publishing, 1992.

Burrows, Edwin C., and Mike Wallace. *Gotham: A History of New York City to 1898*. New York: Oxford University Press, 1999.

Burstein, Andrew. *The Passions of Andrew Jackson*. New York: Alfred A. Knopf, 2003.

Cameron, E. H. *Samuel Slater: Father of American Manufactures*. No city: Bond Wheelright Company, 1960.

Chernow, Ron. *The House of Morgan: An American Banking Dynasty and the Rise of Modern Finance*. New York: Atlantic Monthly Press, 1990.

———. *Titan: The Life of John D. Rockefeller, Sr.* New York: Random House, 1998.

Cohen, Lizabeth. *A Consumers' Republic: The Politics of Mass Communication in Post-war America*. New York: Alfred A. Knopf, 2003.

———. *Making a New Deal: Industrial Workers in Chicago, 1919–1939*. New York: Cambridge University Press, 1990.

Collier, Peter, and David Horowitz. *The Kennedys: An American Drama*. New York: Summit Books, 1984.

Cooper, John Milton, Jr. *Pivotal Decades: The United States 1900–1920*. New York: W. W. Norton, 1990.

Cornog, Evan. *The Birth of Empire: DeWitt Clinton and the American Experience, 1769–1828*. New York: Oxford University Press, 1998.

Croffut, William A. *An American Procession 1855–1914: A Personal Chronicle of Famous Men*. Freeport, N.Y.: Books for Libraries Press, 1968. Reprint of the 1931 ed.

Davis, L. J. "Chronicle of a Debacle Foretold, How Deregulation Begat the S&L Scandal." *Harper's Magazine*, September 1990.

Drucker, Peter. *Adventures of a Bystander*. New York: HarperCollins, 1991.

Dulles, Foster Rhea. *Labor in America: A History*. Arlington Heights, Ill.: Harlan Davidson, 1984.

Ferguson, Eugene S. *Oliver Evans, Inventive Genius of the American Industrial Revolution*. Greenville, Del.: Hagley Museum, 1980.

Fogel, Robert William. *Without Consent or Contract: The Rise and Fall of American Slavery*. New York: W. W. Norton, 1989.

Fowler, William Worthington. *Ten Years in Wall Street*. Hartford, Conn.: Worthington, Dustin, 1870.

Fox, Stephen. *Transatlantic: Samuel Cunard, Isambard Brunel, and the Great Atlantic Steamships*. New York: HarperCollins, 2003.

Freese, Barbara. *Coal: A Human History*. Cambridge, Mass.: Perseus Publishing, 2003.

Friedman, Lawrence M. *A History of American Law*. 2nd ed. New York: Simon and Schuster, 1985.

Galbraith, John Kenneth. *Money, Whence It Came, Where It Went*. Boston: Houghton Mifflin, 1975.

Garraty, John A. *The Great Depression*. San Diego, Calif.: Harcourt Brace, 1986.

Gately, Iain. *Tobacco: A Cultural History of How an Exotic Plant Seduced Civilization*. New York: Grove Press, 2001.

Gates, Paul W. *The Farmer's Age: Agriculture 1815–1860*. Vol. 3 of *The Economic History of the United States*. Repr. 1989, M. E. Sharpe, Armonk, N. Y. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1960.

Goodwin, Jason. *Greenback: The Almighty Dollar and the Invention of America*. New York: Henry Holt, 2003.

Gordon, John Steele. *The Great Game: The Emergence of Wall Street as a World Power, 1653–2000*. New York: Scribner, 1999.

———. *Hamilton's Blessing: The Extraordinary Life and Times of Our National Debt.* New York: Walker, 1997.

———. *The Scarlet Woman of Wall Street.* New York: Wiedenfeld and Nicolson, 1988.

———. "When Our Ancestors Became Us," in *American Heritage,* December 1989.

Greenfeld, Liah. *The Spirit of Capitalism: Nationalism and Economic Growth.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2001.

Greider, William. *Secrets of the Temple: How the Federal Reserve Runs the Country.* New York: Simon and Schuster, 1987.

Hadley, Arthur T. *Railroad Transportation—Its History and Its Laws.* New York: G. P. Putnam's Sons, 1886.

Hallahan, William H. *The Day the American Revolution Began: 19 April 1775.* New York: William Morrow, 2000.

Hamilton, Alexander. *Papers on Public Credit, Commerce and Finance,* edited by Samuel McKee, Jr. New York: Columbia University Press, 1934.

Harris, Charles Townsend. *Memories of Manhattan in the Sixties and Seventies.* New York: Derrydale Press, 1928.

Hobhouse, Henry. *Seeds of Change: Five Plants That Transformed Mankind.* New York: Harper & Row, 1986.

Holbrook, Stewart H. *The Age of the Moguls: The Story of the Robber Barons and the Great Tycoons.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1954.

Hounsell, David A. *From the American System to Mass Production, 1800–1932.* Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1984.

House of Representatives. *House Report Number 31, 41st Congress, 2nd Session.* Washington, D.C., 1871.

Hunter, Louis C. *Steamboats on the Western Rivers: An Economic and Technological Survey.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1949.

Jackson, Kenneth T., ed. *The Encyclopedia of New York City.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1995.

Johnson, Paul. *A History of the American People.* New York: HarperCollins, 1998.

Johnson, Richard R. *John Nelson Merchant Adventurer: A Life Between Empires.* New York: Oxford University Press, 1991.

Joseph, Alvin M., Jr., ed. *America in 1492: The World of the Indian Peoples Before the Arrival of Columbus.* New York: Alfred A. Knopf, 1992.

Kanigel, Robert. *The One Best Way: Frederick Winslow Taylor and the Enigma of Efficiency*. New York: Viking, 1997.

Kennedy, David M. *Freedom from Fear: The American People in Depression and War, 1929–1945*. Vol. 9 of *The Oxford History of the United States*. New York: Oxford University Press, 1999.

Kessner, Thomas. *Capital City: New York and the Men Behind America's Rise to Economic Dominance*. New York: Simon and Schuster, 2003.

King, Mary L. *The Great American Banking Snafu*. Lexington, Mass.: Lexington Books, 1985.

Kirkland, Edward C. *Industry Comes of Age: Business, Labor, and Public Policy 1860–1897*. Vol. 6 of *The Economic History of the United States*. New York: Holt Rinehart and Winston, 1961.

Klein, Maury. *The Life and Legend of Jay Gould*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1986.

Klein, Milton, ed. *The Empire State: A History of New York*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 2001.

Krass, Peter. *Carnegie*. New York: John Wiley and Sons, 2002.

Kulikoff, Allan. *From British Peasants to Colonial American Farmers*. Chapel Hill University of North Carolina Press, 2000.

Landes, David S. *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some Are So Poor*. New York: W. W. Norton, 1998.

Lane, Wheaton J. *Commodore Vanderbilt, an Epic of the Steam Age*. New York: Alfred A. Knopf, 1942.

Larkin, Jack. *The Reshaping of Everyday Life*. Vol. 2 of *The Everyday Life in America*. New York: HarperPerennial, 1988.

Lee, Susan. *Hands Off: Why the Government Is a Menace to Economic Health*. New York: Simon and Schuster, 1996.

Lockwood, Charles. *Manhattan Moves Uptown: An Illustrated History*. Boston: Houghton Mifflin, 1976.

Marks, Paula Mitchell. *Precious Dust: The American Gold Rush Era: 1848–1900*. New York: William Morrow and Company, 1994.

McCrady, Edward. *The History of South Carolina*. New York: Macmillan, 1897.

McCullough, David. *John Adams*. New York: Simon and Schuster, 2001.

McCusker, John J. *How Much Is That in Real Money? A Historical Commodity Price Index for Use as a Deflator of Money Values in the Economy of the United States*. 2nd ed. Worcester, Mass.: American Antiquarian Society, 2001.

McCusker, John J., and Russell R. Menard. *The Economy of British North America, 1607–1789*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1991.

McPherson, James M. *Battle Cry of Freedom: The Civil War Era*. New York: Oxford University Press, 1988.

Malabre, Alfred L., Jr. *Beyond Our Means: How America's Long Years of Debt, Deficits, and Reckless Borrowing Now Threatens to Overwhelm Us*. New York: Random House, 1987.

Malone, Dumas. *Jefferson and His Time*. 6 vols. Boston: Little, Brown, 1948–1981.

Martin, Albro. *Railroads Triumphant: The Growth, Rejection and Rebirth of a Vital American Force*. New York: Oxford University Press, 1992.

Medbery, James K. *Men and Mysteries of Wall Street*. Boston: Fields, Osgood, 1870.

Middlekauff, Robert. *The Glorious Cause: The American Revolution 1763–1789*. Vol. 2 of *The Oxford History of the United States*. New York: Oxford University Press, 1982.

Miller, John C. *Alexander Hamilton: Portrait in Paradox*. New York: Harper & Row, 1959.

Miller, Nathan. *Stealing from America: A History of Corruption from Jamestown to Reagan*. New York: Paragon Books, 1992.

Misa, Thomas J. *A Nation of Steel: The Making of Modern America 1865–1925*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1995.

Mitchell, Broadus. *Depression Decade: From New Era Through New Deal 1929–1941*. Vol. 9 of *The Economic History of the United States*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1947.

Moran, William. *The Belles of New England: The Women of the Textile Mills and the Families Whose Wealth They Wove*. New York: St. Martin's Press, 2002.

Morison, Elting E. *Men, Machines, and Modern Times*. Cambridge, Mass.: M.I.T. Press 1966.

Morris, Edmund. *Theodore Rex*. New York: Random House, 2001.

Moss, David A. *When All Else Fails: Government as Ultimate Risk Manager*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2002.

Nettels, Curtis R. *The Emergence of a National Economy, 1775–1815*. Vol. 2 of *The Economic History of the United States*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1962.

Nevins, Allan, ed. *The Diaries of Philip Hone*. New York: Dodd, Mead, 1927.

Nevins, Allan, and Milton Thomas Halsey, eds. *The Diary of George Templeton Strong*. New York: Macmillan, 1952.

Norman, Bruce. *The Inventing of America*. New York: Taplinger, 1972.

Oberholtzer, Ellis Paxson. *Jay Cooke, Financier of the Civil War*. New York: Burt Franklin, 1970.

Parton, James. *Famous Americans of Recent Times*. Boston: Ticknor and Fields, 1866.

Patterson, James T. *Grand Expectations: The United States, 1945–1974*. Vol. 10 of *The Oxford History of the United States*. New York: Oxford University Press, 1996.

Paul, Randolph E. *Taxation in the United States*. Boston: Little, Brown, 1954.

Perlin, John. *A Forest Journey: The Role of Wood in the Development of Civilization*. New York: W. W. Norton, 1989.

Phillips, Cabell. *The 1940s: Decade of Triumph and Trouble*. New York: Macmillan, 1975.

Previts, Gary John, and Barbara Dubis Merino. *A History of Accounting in America*. New York: John Wiley and Sons, 1979.

Randall, Willard Sterne. *Thomas Jefferson: A Life*. New York: Henry Holt, 1993.

Ratner, Sidney, James H. Soltow, and Richard Sylla. *The Evolution of the American Economy: Growth, Welfare, and Decision Making*. 2nd ed. New York: Macmillan, 1993.

Remini, Robert V. *Andrew Jackson and the Course of American Empire, 1767–1821*. Vol. 1. New York: Harper & Row, 1977.

———. *Andrew Jackson and the Course of American Freedom, 1822–1832*. Vol. 2. New York: Harper & Row, 1981.

———. *Andrew Jackson and the Course of American Democracy, 1833–1845*. Vol. 3. New York: Harper & Row, 1984.

Richardson, Heather Cox. *The Greatest Nation of the Earth: Republican Economic Policies During the Civil War*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1997.

Richter, Daniel K. *Facing East from Indian Country: A Native History of Early America*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2001.

Rosenbaum, David E. "A Financial Disaster with Many Culprits," *New York Times*, June 6, 1990.

Rothschild, Michael. *Bionomics: The Inevitability of Capitalism*. New York: Henry Holt, 1990.

Roy, William G. *Socializing Capital: The Rise of the Large Industrial Corporation in America*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1997.

Serrin, William. *Homestead: The Glory and Tragedy of an American Steel Town*. New York: Times Books, 1992.

Shannon, Fred A. *The Farmer's Last Frontier: Agriculture, 1860–1897*. Vol. 5 of *The Economic History of the United States*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1945. Repr. Harper Torchbooks, 1968.

Safire, William, ed. *Lend Me Your Ears: Great Speeches in History*. 2nd ed. New York: W. W. Norton, 1992.

Satterlee, Herbert L. *J. Pierpont Morgan: An Intimate Portrait*. New York: Macmillan, 1939.

Silverman, Kenneth. *Lightning Man: The Accursed Life of Samuel F. B. Morse*. New York: Alfred A. Knopf, 2003.

Simon, James F. *What Kind of Nation: Thomas Jefferson, John Marshall, and the Epic Struggle to Create a United States*. New York: Simon & Schuster, 2002.

Smith, Matthew Hale. *Twenty Years Among the Bulls and Bears of Wall Street*. Hartford, Conn.: J. B. Burr, 1870.

Smith, Page. *The Shaping of America*. Vol. 3 of *A People's History of the Young Republic*. New York: McGraw-Hill, 1980.

Sobel, Robert. *The Big Board: A History of the New York Stock Exchange*. New York: Free Press, 1965.

———. *The Great Boom 1950–2000: How a Generation of Americans Created the World's Most Prosperous Society*. New York: Truman Talley Books, St. Martin's Press, 2000.

———. *NYSE: A History of the New York Stock Exchange, 1935–1975*. New York: Weybright and Talley, 1975.

———. *Panic on Wall Street: A History of America's Financial Disasters*. New York: Macmillan, 1968.

Soule, George. *Prosperity Decade: From War to Depression: 1917–1929*. Vol. 3 of *The Economic History of the United States*. Repr. 1989, M. E. Sharpe, Armonk, N.Y. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1947.

Stamp, Kenneth. *America in 1857: A Nation on the Brink*. New York: Oxford University Press, 1990.

Stedman, Edmund Clarence. *The New York Stock Exchange*. New York: Stock Exchange Historical, 1905.

Stover, John F. *American Railroads*. 2nd ed. Chicago: University of Chicago Press, 1997.

Strouse, Jean. *Morgan: American Financier*. New York: Random House, 1999.

Tanner, Hudson C. *"The Lobby," and Public Men from Thurlow Weed's Time*. Albany, N.Y.: George MacDonald, 1888.

Taylor, Alan. *American Colonies*. New York: Viking, 2001.

Thomas, Emory M. *The Confederate Nation: 1861–1865*. New York: Harper & Row, 1979.

Tobin, James. *Great Projects*. New York: Free Press, 2001.

Trescott, Paul B. *Financing American Enterprise: The Story of Commercial Banking*. New York: Harper & Row, 1963.

Wall, Joseph Frazier. *Andrew Carnegie*. New York: Oxford University Press, 1970.

Warren, Charles. *The Supreme Court in United States History*. Rev. ed. Boston: Little, Brown, 1926.

Weightman, Gavin. *The Frozen-Water Trade: A True Story*. New York: Hyperion, 2003.

Wik, Reynold M. *Steam Power on the American Farm*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1953.

Wilson, George. *Stephen Girard: The Life and Times of America's First Tycoon*. Conshohocken, Pa.: Combined Books, 1995.

Yergin, Daniel. *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money & Power*. New York: Simon and Schuster, 1991.

Yergin, Daniel, and Joseph Stanislaw. *The Commanding Heights: The Battle for the World Economy*. New York: Touchstone, 2002.

WITHE

هذا الكتاب

ملحمة مثيرة ترسم الملامح المميزة للاقتصاد الأمريكي عبر سرد نسيجه روعة المغامرة ومآسي الأزمة. يضع المؤلف يده - بدءا من فجر الثورة إلى الكساد العظيم، فعصر الإنترنت ومطلع الألفية الجديدة - على العناصر التي استمدت منها الأمة الأمريكية قوتها عبر السنين، وهو يجوب مسالك التاريخ الاقتصادي الحافل للولايات المتحدة منذ فجر صناعاتها الأولى، ويعرج على أبرز الأفكار الاقتصادية والابتكارات والاختراعات التي جاد بها خيال مطلق العنان، كان دائما السبيل الفعالة للتصدي للأزمات المالية والاجتماعية والسياسية التي عرفها هذا البلد في تاريخه القصير.

ويرى المؤلف أن كبرى نقاط قوة الولايات المتحدة لا تكمن في المجال العسكري، بل في ثروتها، وتوزع هذه الثروة بين شرائح واسعة من سكانها، وقدرتها على تعظيم الثروة، وإمكاناتها الابتكارية غير المحدودة في تطوير أساليب جديدة تفيد في استخدام تلك الثروة استخداما منتجا.

وليس الاقتصاد الأمريكي أكبر اقتصادات العالم فقط، بل أكثرها دينامية وقدرة على الابتكار. إذ كانت الولايات المتحدة مهد جميع نتاجات التقدم التكنولوجي التي شهدها القرن العشرون تقريبا، أعظم القرون في تاريخ التكنولوجيا. وعلى الرغم من ذلك، فإن تاريخ الاقتصاد الأمريكي ليس سلسلة من الانتصارات المتعاقبة، ففي كثير من مراحل تاريخ الولايات المتحدة مر الاقتصاد بصعوبات بالغة كانت ستتفاقم وتخرج على السيطرة لو أن القيادة السياسية انتهت إلى الفشل كما كان مصير دول كثيرة.

باختصار، تحمل قصة «إمبراطورية الثروة» - كمعظم قصص الإمبراطوريات في التاريخ - طابعا ملحميا حافلا بالانتصارات والهزائم، بالجرأة والتردد، بالأفكار الجديدة والرواسب القديمة، بالعقلاء والحمقى، لكنها كانت في شطرها الأعظم ملحمة قادتها الملايين التي لم يقف في طريقها شيء، في سعيها إلى تحقيق مصالحها الذاتية في ظل حكم القانون، وهذا هو أساس الحرية.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 254 - 8

رقم الإيداع (٢٠٠٨/٠٧٥)